

دراسات في فكر
الإمام الخامنئي



أدبيّات النّهوض

النبـوّة وضروراتهـا

الإمام الخامنئي

ترجمة: عباس نور الدين



دار المعـارف الحكميـة
Dar Al maaref Alhikmiah

النبوّة وضروراتها

النبوّة وضروراتها

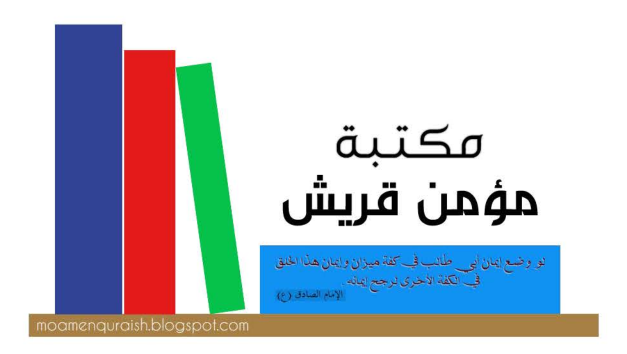
الإمام الخامنئي (حفظه الله)

ترجمة عباس نور الدين

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-035-7

[١٤٣٦ هـ. - ٢٠١٥ م.]





دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان - بيروت - سان تريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - ط٣
Email: almaaref@shurouk.org - تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

مقدمة ٩

الجلسة الرابعة عشر: فلسفة النبوّة ١٣

الجلسة الخامسة عشر: البعثة في النبوّة ٣٣

الجلسة السادسة عشر: البعثة الاجتماعيّة للنبوّة ٥٥

الجلسة السابعة عشر: أهداف النبوّة ٧٩

الجلسة الثامنة عشر: أوّل ترانيم الدعوة ١٠٣

الجلسة التاسعة عشر: الجماعات المعارضة ١٢٧

الجلسة عشرون: عاقبة النبوّة (١) ١٤٩

الفهرس

الجلسة الواحدة والعشرون: عاقبة النبوّة(٢) ١٦٩

الجلسة الثانية والعشرون: التزام الإيمان بالنبّوة ١٨٩

مقدمة

يقول الله تبارك وتعالى في محكم آياته: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾.

يتمثّل التكريم الإلهيّ للبشر بوجهين: تكريم جسمانيّ بأن خلقهم في أحسن تقويم وجهّز لهم كلّ ما يلزمهم من أجل أن يسلكوا في هذه الحياة، وتكريم آخر بتيسير مَن يدلّهم على الطريق.

فالموجودات الممكنة متسربلة في الفقر جميعًا. والله سبحانه هو الغنيّ بذاته، فإنّها فقيرة إليه دائمًا، حتّى في أصل وجودها، وتستمدّ العون من منبع الفيض الأزليّ كلّ لحظة، فإذا انقطعت عنها رعايته ولطفه لحظة، فسينتهي وجودها.

ومن أوجه فقر الإنسان أيضًا حاجته إلى الهداية الإلهيّة والنور والتزكية والتعليم والحريّة والشريعة والنظام وتنفيذ النظام وبسط العدل والحقّ. فما لم تتحقّق الاحتياجات هذه يستحيل أن يبلغ الإنسان رتبة الكمال. لذا فإنّ «وجود النبيّ ضروريّ في بقاء نوع الإنسان وإصلاح أحواله في معاشه ومعاده، وكلّ ما كان ضروريًّا في ذلك فهو واجب في الحكمة الإلهيّة، فوجود النبيّ واجب في الحكمة الإلهيّة».

والنبوّة ليست كما يعتقد بعضهم من أنّها تقوم على الوعظ والإرشاد فحسب بل هي حالة من حالات النهوض والثورة في النفس البشرية قبل أن تكون في صميم المجتمع. فللأنبياء هدفين: أوّلهما هدفٌ أساس وهو عبارة عن بناء الإنسان وتخليصه من الرذائل وتزكيته وتحليته بالخيرات والفضائل والحسنات، فيُختصر الأمر بصناعة الإنسان وبنائه؛ وهذا هو الهدف الأعلى. ثانيهما، والذي يُعدّ مقدّمة لتحقيق الهدف الأوّل، عبارة عن تشكيل المجتمع التوحيديّ وبناء النظام الإلهيّ، وإقامة الحكومة

الإلهيّة، وتأسيس التشكيلات والمؤسّسات التي تُدار على أساس القوانين والمقرّرات الإلهيّة؛ فهذا هو الذي كان هدف الأنبياء جميعًا.

فالعباد أحرارٌ من العبوديّة لغيرهم من العبيد. وعندما يدخل النبيّ إلى المجتمع وهو يحمل الفكر التوحيديّ الإلهيّ ويتّجه نحو هذا الهدف، فإنّه يقلب المجتمع الطبقيّ بهذا الفكر الذي يدخله، ويقضي عليه ويبدّله إلى مجتمع توحيديٍّ خالٍ من الطبقيّة والتمييز والظلم، ليصبح في النهاية تحت حكومة ربّ العالم.

بناءً على ما تمّ ذكره، يأتي هذا الكتاب ليعرض مبحثًا من مباحث أصول الدين الأساسيّة ألا وهو النبوّة. يحمل عنوان النبوّة وضروراتها، وهو عبارة عن ثماني جلسات قرآنيّة استكمالًا للكتابين: الإيمان ومستلزماته والتوحيد وآثاره. لم يتطرّق الإمام الخامنئي فيه لمبحث النبوّة كما يدرّس عادة في مباحث العقيدة، بل تجاوز ذلك إلى ما هو بنظره أهمّ وهي فلسفة النبوّة بمعنى ضرورة وجود النبيّ في حياة الفرد والمجتمع.

كما إنّ من الحكمة الإلهيّة أن يكون الرسول من جنس المرسَل إليه، فالنبيّ واحد من الناس يأكل ويشرب معهم ويمشي في الأسواق إلّا أنّه ولاستعدادات عميقة وفيّاضة في نفسه تحصل عنده حالة من النهوض والثورة الداخليّة تسمح له بشرف حمل الرسالة وتبليغها. وهذا التغيّر والتبدّل الحاصل يدعوه لكي يتحمّل ما يعانيه من أجل الحقّ من اضطهاد وظلم وأحيانًا القتل. وهو الذي يجعل الأنبياء لا يتوقّفون لحظة عن السعي، كلّهم في مسيرة واحدة، من أجل الهدف السامي وهو إيصال الإنسان إلى مقام الترقّي والتكامل الذي أعدّه الله له في بيئة ومحيط مناسبين وهو المسمّى بالمجتمع الإلهيّ التوحيديّ الذي يشكّل لاحقًا القاعدة الأساس التي ينطلق منها الأفراد لبناء أمّة. ولا يخفى أنّ كلّ حركة حقّة يواجهها جماعات معارضة بألوان من اتّحاد البشر لأنّهم إن آمنوا بالرسل فسيخسروا مواقعهم وثرواتهم.

وطريق الحقّ كما في السنن الإلهيّة التاريخيّة صعب المنال لأنّ روّاده قليلون وإن كلّف ذلك تضحيات وآلام، وما قاساه الأنبياء والأولياء على مرّ تاريخ البشريّة من محنٍ ومصاعب يندى له الجبين، إلّا أنّ الله تعالى قد وعد أنبياءه وأوصياءه والمؤمنين بهم بالنصر والظفر مهما طالت المآسي.

جعلنا الله ممّن يشاركون في وضع حجر على قارعة طريق بناء مجتمع إلهيّ جُعل الإنسان فيه عبدًا لله حرًّا غير مملوك لأحد.

سكينة أبو حمدان

الجلسة الرابعة عشر: فلسفة النبوّة

الأربعاء، ١٥ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرّحيم

﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً منْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1].

(١) سورة **الجمعة**، الآية ٢.

لقد اخترنا عدّة موضوعات في مجال بحث النبوّة حيث سنتعرّف على هذه الأبحاث إن شاء الله بالاستناد والاستعانة بآيات من القرآن المباركة.
بالطبع، إنّ الإخوة يعلمون أنّ النبوّة هي أحد أصول جميع الأديان. وهي أصلٌ من أصول الدين، إذا أمكن قول ذلك؛ بل ينبغي أن نقول إنّها أعلى. وقولنا هنا: "إنّها أصلٌ من أصول الدين، إذا أمكن قول ذلك"، لا بمعنى إنكار أنّها أصلٌ، كلّا، بل بمعنى أنّها أعلى من الأصل؛ لأنّ الدين في الأساس لا معنى له من دون الاعتقاد بالنبوّة. وهو ذلك البرنامج والمسلك، وهو تلك المدرسة والمنهج، اللذان يوصلهما حامل الرسالة من جانب الله تعالى. فحامل الرسالة والبعثة من جانب الله يُعدّ من العناصر الذاتيّة للدين؛ وهذا هو قوام الدين في الأساس.

بناءً عليه، من الجدير عندما نتحدّث ونبحث في مجال النبّوة، أن نتحدّث ونبحث عنها بعنوان أحد القضايا المهمّة والأصوليّة للدين.

بالطبع، هناك مجموعة من الأبحاث المتعلّقة بالنبوّة التي تُعدّ رائجةً ومتداولةً بين الناس، فإذا راجعتم أيّ كتابٍ قد كُتب وأُلّف بشأن النبوّة ونظرتم فيه فسوف تجدون هذه الأبحاث. ونحن سوف نتناول، في هذه المجموعة من الأبحاث التي سنقدّمها بشأن النبوّة، قسمًا أو جانبًا من تلك التي تُطرح عادةً في الكتب حول النبوّة، وبأسلوبٍ خاصّ؛ ومنها: بحث فلسفة النبوّة الذي سيُطرح هنا.

أمّا فيما يختصّ ببقيّة الأبحاث التي أُنجزت حول النبوّة وارتبطت بها ودارت حولها الكتب الكلاميّة؛ فإنّها بنظرنا قضايا، وإن كانت في محلّها قضايا صحيحة وما ذُكر بشأنها ضروريٌّ وهي كلام حقّ، لكنّ صحّتها وضرورتها لا تعني بالضرورة أن أضطرّ في هذا الوقت وفي هذه الظروف ومع هذه الاحتياجات أن أتعرّض لها.

إنّ الكثير من الكلام الموجود في العالم صحيحٌ. وأودّ أن أتعرّض هنا وفيما يلي ببضع كلماتٍ لعنوانٍ يتعلّق بالتعليم العامّ وبجميع الأمور الفكريّة

التي ترتبط بدراساتنا. فينبغي، من بين جميع هذه الأبحاث الصحيحة، أن نحدّد ما هو لازمٌ وما هو الأكثر ضرورةً وأهميّة، وما هو الأكثر إلحاحًا، وما هو الذي يُعدّ فوتيًّا ومصيريًّا من بين [القضايا] الأكثر إلحاحًا، فنبدأ منه. ثمّ إذا فرغنا منه، ننتقل إلى الأبحاث اللاحقة (التي هي أقلّ أهميّة)، ونتقدّم هكذا وعلى هذا النحو، إلى أن نصل في النهاية إلى آخر الأعمال والأبحاث التي، وإن كانت صحيحةً، ولكنّ استشعار ضرورتها ولزومها لا يكون بنفس القدر.

فيما يتعلّق ببحث النبوّة، صحيحٌ أنّ الحديث عن أنّ للنبيّ مستوًى من العلوم الإلهيّة أو العلوم الإنسانيّة يُعدّ بحثًا بذاته؛ وكذلك معرفة هل أنّ نبيّنا كان يعرف الكتابة أو لم يكن يعرف لا الكتابة ولا القراءة، حيث إنّ **القرآن** يذكر ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٢]، أي أنّ النبيّ لم يكن يكتب ولا يقرأ، فهل أنّ هذا الأمر مرتبطٌ بكون النبيّ أميًّا، أم أنّه بسبب أنّه لم يكن قادرًا؟ وبحسب ما نصطلح عليه اليوم، هل كان أميًّا على نحو كلّيّ أم لا؟ بل إنّه كان قادرًا على ذلك في الوقت الذي لم يكن يكتب ولا يقرأ. حسنٌ، في النهاية، هذا بحثٌ. وهناك كلامٌ حول هل أنّ نبيّ الإسلام كان على دينٍ ما أو مذهبٍ من بين أديان ومذاهب العالم قبل نبوّته وبعثته؟ وهل كان يعملُ بذلك الدين؟ وهذا بحثٌ أيضًا. ولكن إلى أيّ درجةٍ هو ضروريٌّ ولازمٌ بالنسبة لنا؟ وما هو مدى ضرورة البحث الذي يُعدّ مقدّمةً له؟ وكذا الأمر بالنسبة للبحث الذي يُعدّ مقدّمة لهذه المقدّمة، فإذا سألنا عن مدى ضرورته ولزومه، فإنّنا لا نجد فيه أيّ لزوم أو ضرورة.

بالطبع، بعد أن يتعرّف المرء على كلّ الأمور المرتبطة بالنبوّة وبالدين، لا مانع في نهاية المطاف أن يتعرّف على قضيّة الدين الذي كان عليه النبيّ قبل بعثته؛ لكنّنا إلى الآن ما زلنا على منعطف أوّل زقاق من مدن العشق

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٨.

السبعة[٣]. فمجتمعنا لحدّ الآن لم يتعرّف على مفهوم النبوّة، ولا على معنى البعثة والهدف منها، وما هي عاقبة البعثة وخاتمتها؟ وما هي طريقها؟ وما هو شعار النبّوة؟ فمجتمعنا لا يعلم أيّة آفة قد ابتُلي بها. المسلم لا يدرك هدف البعثة المحمّديّة؛ سلوكيّاتها ونتائجها. ولو كان يعلم هدف بعثة نبيّه لاتّجه نحو ذلك الهدف. فنحن، فيما يتعلّق بالنبوّة، ما زلنا عند القضايا الأوّليّة والمسائل المقدّماتيّة أي تلك المسائل التأسيسيّة؛ فهل نقوم بتناول المسائل الفرعيّة ومسائل الدرجة الرابعة والخامسة؟! لذا، نحن لن نطرح في بحثنا حول النبوّة أيًّا من تلك الأبحاث التي يطرحها المتكلّمون عادةً في الكتب. فهاكم الكتب التي ألّفها المتكلّمون اذهبوا واقرأوها. وليس لدينا أيّ شكّ في لزوم وضرورة تلك الأبحاث وفي حسنها، لكنّنا أيضًا لا نشكّ أبدًا بأنّ ضرورتها هي أقلّ بدرجات من ضرورة الكثير من الأبحاث الأخرى التي يجب أن نتعرّض لها اليوم، لهذا فإنّنا لن نتناولها.

إنّ أوّل قضيّة نبحثها بشأن النبوّة هي فلسفة النبوّة. فلماذا يجب أن يكون هناك نبيّ؟ ولماذا يجب أن يقوم شخصٌ بمهمّة هداية البشر من قبل الله تعالى؟ ألا يمكن للناس أن يهتدوا بأنفسهم؟ ألا تكفي معارف البشر والفكر الإنسانيّ في هذا المجال؟ فلماذا كان هناك نبيّ؟ ولماذا يجب أن يكون هناك حملٌ للرسالة بين عالم الغيب والشهود؟ هذه قضيّةٌ يجب علينا أن نتعرّف إليها. وإذا لم نتعرّف إلى فلسفة النبوّة، فإنّ بقيّة الأبحاث المرتبطة بها سوف تصبح مجموعة من الأبحاث التي لن تكون سوى هباءً منثورًا.

يجب علينا أوّلًا أن نتعرّف إلى الهدف من النبوّة؛ وقد أتينا على هذه المسألة بصورةٍ مختصرةٍ وضمن جملٍ موجزة جدًّا، وإنّ الآيات التي سنقرأها اليوم ناظرةٌ إلى هذا المطلب.

لن نتحدّث كثيرًا بشأن فلسفة النبوّة، فكلمةٌ واحدةٌ تكفي، وهذه الكلمة

(٣) هفت شهر عشق را عطار گشت ما هنوز اندر خم يك كوچه ايم (شعر لمولوي)

هي أنّ حواس الإنسان وغرائزه وفكره لا تكفي لهدايته ونجاته. هناك مجموعة من الكائنات بإمكانها أن تدير حياتها من خلال حواسّها، لعلّنا نعرف بعض هذه الحيوانات التي هي على هذه الشاكلة، والتي تعتمد على حواسّها فقط، وهي الحواسّ الظاهريّة. إنّ نوع الحيوانات، أو أكثرها، يعتمد على الغرائز للاهتداء. فالنحل، مثلاً، يعتمد على غريزته للوصول إلى الرحيق وامتصاصه والرجوع ثانيةً إلى القفير؛ ولبناء هذا القفير على شكل مسدّسات، وكذلك في كلّ ما يتعلّق بالدخول والخروج، وكذا الأمر بالنسبة لملكة النحل وأعوانها والحرّاس؛ وباختصار، بالنسبة لمملكة النحل بأسرها. فهل تظنّون، مثلاً، أنّ النحل يجلسون في مؤتمرٍ عامّ، يجتمع فيه رؤساؤهم وممثّلو القفير أو المنطقة، للتحدّث بشأن كيفيّة تطوير القفير؟! وهل أنّهم سيتناولون قضيّة زيادة أضلع الخلايا أو ينقصون منها من ثمانية إلى أربعة أو إلى ستّة، ومن ثمّ يدرسون مجدّدًا القضيّة ليتّفقوا على الأضلع الستّة لأنّها أنسب، بعد أن اكتشفوا خطأ الأضلع الثمانية؟! فلو كنتم تظنّون أنّ الأمر يجري على هذا النحو، يجب أن أقول لكم بأنّكم أخطأتم. فمثل هذا الحال لا يحدث في عالم النحل، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾[٤]، هذا هو الوحي الإلهيّ للنحل. وهذا الوحي لا يعني أنّ النحل يجتمعون وفي هذه الأثناء يتنزّل عليهم جبرائيل؛ هذا هو بناء قفير النحل، وهذه هي طبيعة غريزة النحل، فهو عبارة عن ميلٍ غريزيٍّ يدفع النحل ويضطرّه [للتصرّف هكذا] ولا يمكنه أن يبدّل ذلك. فالنحل مجبورٌ بشكلٍ طبيعيّ وبصورة غريزيّة ومفطورٌ على أن يشكّل الخلايا داخل القفير بهذه الصورة، وأن يأخذ الرحيق من تلك الزهرة أو تلك النبتة ويمتصّها بتلك الطريقة. فلو أنّ نحلةً خالفت وعوض عن أن تمتصّ رحيق الأزهار والنباتات امتصّت النباتات العفنة، فإنّه لن يُسمح لها بالدخول

(٤) سورة النحل، الآية ٦٨.

إلى القفير بل إنّهم سيمنعونها من الدخول على بابه؛ فهذا كلّه يعود إلى فطرتها وغرائزها.

إنّ الغريزة أمرٌ كافٍ بالنسبة للنحل. فنجد الباحث موريس مترلينغ[٥] يعكف ولسنواتٍ طويلة على حياة النحل والنمل والحشرات المختلفة، تلك الحشرات التي تخترق بيوتكم أحيانًا وتعشعش فيها، وأنتم تشكون منها، وتجدونها تسكن في الأسقف، وتبني في الأرض المغصوبة بيوتها وتشكيلاتها وتفعل ما تفعل؛ تبني البيوت بشكلٍ خاصّ وبوضعيّةٍ محدّدة. والعجيب أنّه لو استطعتم وتمكّنتم من أن تأتوا ببيتٍ من بيوت هذه الحشرات أو بقفيرٍ من قفران النحل منذ زمن طوفان نوحٍ مثلًا، أو قبل عشرة قرون، وجئتم بها ووضعتموها أمام قفيرٍ من القفران الموجودة في إحدى مصايف مدينة مشهد في هذا الزمان، لوجدتم أنّه لم يحدث أيّ اختلاف ولو بمقدار رأس إبرة بين ذلك القفير والقفير الموجود في هذا الزمان. فالتكامل والترقّي والتطوّر ليس موجودًا في عمل النحل ولا في عمل أيّ حيوانٍ آخر، فما هو موجودٌ هو وحي الفطرة ووحي الغريزة وهداية طبيعة الخلقة الموجودة فيها التي تحرّكها وتجرّها وتهديها وتبيّن لها الموانع لكي تتمكّن من القيام بعملها؛ فلا يوجد أيّ شيءٍ آخر غير الغريزة.

والإنسان كذلك، يستفيد من الغريزة؛ لكنّ استفادته قليلة. ففي بداية مجيئكم إلى هذه الدنيا، يكون حكمكم – ولا أقصد التشبيه - حكم هذه الحيوانات. فأنتم تمكّنتم، من خلال هذه الغريزة وهذه الجاذبة الفطريّة والطبيعيّة، من اكتشاف الطريق إلى غذائكم في صدور أمّهاتكم، وعندما وضعتموه في أفواهكم بدأتم بامتصاصه. لم يعلّمكم أحدٌ عمليّة الامتصاص، ولم تتعلّموا كيفيّته في أيّ مكانٍ من الناحية العمليّة والسمعيّة والبصريّة، فغريزتكم كانت هي الفاعل الوحيد هنا. وبانتقالكم من مرحلة

---

(٥) موريس مترلينغ (١٨٦٨– ١٩٤٩م.) شاعر ومؤلّف وفيلسوف بلجيكيّ فاز بجائزة نوبل على مسرحيّته الطائر الأزرق، وقد كتب عدّة مقالات تحت عنوان «حياة النحل» و«حياة النمل» و«حياة البقّ».

الطفولة، فإنّ هذه الوسيلة وهذه الأداة وهذا السلاح المُسمّى غريزة يصبح ضعيفًا وفاقدًا للأثر وقليل الفائدة ويحلّ محلّه شيءٌ أكثر تأثيرًا وأقوى يُسمّى بالعقل الإنسانيّ، فتصبحون من العقلاء. وها أنتم الآن لا تعملون بالغريزة. فالغريزة ليست هي التي ستقول لكم: يا فلان اذهب وافتح باب دكّانك أو أغلقه في الساعة الفلانيّة، أو أجب المشتري بهذه الطريقة، أو اقرأ الدرس بهذا النحو، أو درّس الآخرين بهذا الأسلوب، فهذه ليست غرائز، إنّها أمورٌ تتعلّمونها من خلال الفكر والعلم وبها تكتشفون طريق حياتكم.

ولكن نسأل مرّةً أخرى، هل أنّ هذا العقل أو الفكر الإنسانيّ يكفي لهدايتكم ولإيصالكم إلى منزل السعادة؟ هل أنّ العقل البشريّ كافٍ لهداية [الإنسان]؟ فلو أنّ العقل نفسه كان منفتحًا، ولو فكّر هذا الإنسانُ ولم يتعصّب وكان قادرًا على الحكم بدون أيّة أغراض، فإنّه سيقول: كلّا؛ إنّه مثل ذلك القاضي الذي يحكم بعدم صلاحيّة وأهليّة نفسه للحكم، ويقول: إنّني كقاضٍ لم أعد مناسبًا للقضاء في هذا المورد. فالعقل السليم الخالي من الأغراض في أيّ إنسان سيقول إنّني لست مؤهّلًا لهداية الإنسانيّة بصورةٍ مستقلّة، فهل تريدون دليلًا؟

لدينا نوعانٍ من الأدلّة؛ النوع الأوّل هو أنّ العقل البشريّ محدودٌ وليس مطلقًا في حين أنّ احتياجات البشر لا نهاية لها؛ فمن أين لهذا العقل أن يتمكّن من إدراك جميع الاحتياجات حتّى يتمكّن من تأمين هذه الاحتياجات ووضع القوانين المرتبطة بتأمينها؟ فلا يمكن لهذا العقل الإنسانيّ أن يقوم بهذا العمل؛ فهو أضعف وأعجز ولا يبلغ مقام تشخيص جميع الآلام حتّى يضع لها جميعًا تلك الأدوية والعلاجات المناسبة.

الدليل الآخر هو أن تنظروا إلى الوقائع التاريخيّة والعلميّة لتروا إذا ما كانت العقول قد تمكّنت من ذلك! فهل أنّ عقولًا مثل عقول أرسطو[٦]

(٦) أرسطو الملقّب بالمعلّم الأوّل من فلاسفة اليونان القدماء، وهو واضع علم المنطق.

وأفلاطون[٧] وسقراط[٨] تمكّنت من إدارة البشر؟ وهل أنّ أفلاطون المتفكّر بعد أن جلس وفكّر وشاور وطالع وحقّق ووضع الخطوط العامّة للمدينة الفاضلة؟ هذه المدينة الفاضلة هي من شؤونات الذهن فقط وتقع في خزانة أفلاطون نفسه؛ لأنّ هذه المدينة الفاضلة لم تتحقّق من الناحية الواقعيّة في هذا العالم لحظةً واحدةً. وأنتم الآن عندما تنظرون إلى مدينة أفلاطون الفاضلة، وبحسب الأوضاع التي يعيشها العالم الآن، فإنّكم ستجدونها غير قابلة للقبول وتصبح مهزلةً. انظروا أنتم إلى المدارس العقليّة والفلسفيّة كيف اصطفّت في مقابل بعضها البعض وتواجهت؛ وسترون أنّ البشريّة ما لم تتّصل بمبدإٍ أو نقطةٍ أبعد وأعلى وأعمق من العقل الإنسانيّ، فإنّها لن تتمكّن من الوصول إلى طريق الهداية والسعادة.

هذا هو معنى النبوّة، هي قوّةٌ أعلى؛ فالإنسان يحتاج إلى هداية أعلى وأعمق من هداية الحسّ وهداية الغريزة وهداية العقل. وعندما تأتي هذه الهداية نتساءل عن الأمور التي تقوم بها. فهل عند مجيئها تتنافس مع حواسّكم؟ أو هل ستخالف بمجيئها غرائزكم؟ وهل إذا أتت إليكم ستضرب رأس العقل بحجرٍ؟ كلّا، وأبدًا. فهي تأتي من أجل هداية العقل وتنميته ومن أجل إخراج العقل المدفون من تحت أكوام التراب.

يقول أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه – وهو أمير المؤمنين للبشريّة الجمعاء دون استثناء – وبحسب ما ورد في **نهج البلاغة** «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستهدوهم ميثاق فطرته، ويذكّرونه منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»[٩]. يأتي الأنبياء ليخرجوا تلك الدفائن، وليستثيروا تلك العقول المدفونة ويحرّكوها

---

(٧) أفلاطون من فلاسفة اليونان الكبار وهو تلميذ سقراط، ألّف كتابًا باسم الجمهوريّة وقد بيّن خصائص المجتمع الفاضل.

(٨) سقراط من فلاسفة اليونان الكبار أُعدم من قبل محكمة أثينا بسبب عدم اعتقاده بآلهة المعبد ولبث آرائه.

(٩) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٢٣.

ويفعّلوها؛ تلك العقول والإدراكات والمشاعر الموجودة في المجتمعات البشريّة والتي دُفنت على أيدي الفراعنة والنماريد والأكابر وأصحاب الأموال. ففرعون لا يحبّ أن يكون لشعبه عقلٌ، ولا يحبّ أن يصبح الناس من أهل الفهم والوعي، لأنّهم إذا حصلوا على الفهم والوعي فإنّ وجوده سيصبح باطلًا وخرافةً؛ وهذا ما سنقوم بشرحه بالتفصيل في الأبحاث اللاحقة من أبحاث النبوّة إن شاء الله. ففرعون لا يحبّ أن يُعمِل الناس قوّة العقل. ولأنّ الأمر كان على هذا النحو، فإنّه كان يدفن هذه القوّة العاقلة. أمّا كيف كان يفعل ذلك، فهذا ما سوف نتعرّض له في الأبحاث المقبلة إن شاء الله. من هنا نفهم أنّ مجيء الأنبياء هو من أجل استخراج هذه الدفائن وهذه الكنوز والخزائن المخفيّة والمستترة وتصفيتها وتقديمها بين يديّ الناس.

إنّ الأنبياء، إذًا، وبواسطة قوّة الوحي التي يتّصلون بها ويحصلون عليها لا يواجهون العقل ولا يحاربونه. والذي يظنّ أنّ الدين يتنافى مع العقل، فإنّه في الواقع لا يعرف لا الدين ولا العقل. أمّا مَن كان من أصحاب العقل وجرّب إعمال عقله وعرف الدين، فإنّه سيدرك جيّدًا أنّ الدين لا يمكن أن يتنافى مع الفكر البشريّ والعقل الإنسانيّ أصلًا؛ فكلّ ما يقوله الدين تفهمه العقول السليمة وتتقبّله. وأولئك الجاهلون الذين يهبّون للدفاع عن الدين ويقولون في بعض الأحيان: يا فلان لا ينبغي أن تطلب تفسير الدين، ولا ينبغي أن تطلب من الدين أيّ نوع من الاستدلالات، ولا يجوز لك أن تطلب الفلسفة من الدين؛ فهم يتصوّرون أنّ هذا الكلام - طلب الفلسفة والقول الفلسفيّ - ينتقص من قدر الدين. فعلى هؤلاء أن يعلموا أنّ الأمر ليس على هذا النحو، القضيّة ليست هكذا. فإذا عُرض الدين الصحيح على العقل الكامل، فإنّه لا يمكن أن يتعارض أو يتنافى معه أبدًا. نجد في يومنا هذا أنّ العقول البشريّة الكبرى تدرك التوحيد في الدين والنبوّة الدينيّة والصلاة الدينيّة والصوم الدينيّ والزكاة الدينيّة، والأحكام الفرعيّة للدين.

عندما يتعرّف العقل البشريّ والتجربة العلميّة الإنسانيّة على الكحول

ويدركان مضارّ هذه المادّة ويعرفان كم توجّه من ضربة وصدمة للجسم والأعصاب والروحيّة والأوضاع الاجتماعيّة العامّة، فلماذا لا أتمكّن عندئذ وأتجرّأ أن أقرأ هذه الآية القرآنيّة بكمال القدرة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[10]؟! لماذا لا أطرح عندئذ هذه الآية القرآنيّة؟! ولماذا لا أسلّم إلى ما وصل إليه العلم البشريّ في هذا المجال؟ ولماذا لا أقول إنّ الخمر هو من عمل الشيطان، أي أنّ الشياطين هم الذين يقدّمون لكم هذه المادّة، والشياطين هم الذين يستغلّون هذا العَرق المتعرّق، فلماذا لا أقول كلّ هذا؟!

وما سمعتموه من أنّ الإمام السجّاد صلوات الله وسلامه عليه كان يقول: «إنّ دين الله لا يُصاب بالعقول»[11] فله معنًى آخر، وهو يعني أنّ الدّين الإلهيّ لا يصحّ أن يُكتشف بالعقل. فماذا يعني أنّه لا يصحّ كشفه؟ يعني أنّه لا يمكنكم بالعقل أن تدركوا أنّ صلاة الظهر أربع ركعات، ما لم تحصلوا على رواية تبيّن أنّ صلاة الظهر أربع ركعات؛ وهذا كلامٌ صحيحٌ تمامًا. فما لم يذكر القرآن لنا أنّ وقت الصلاة هو ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[12]، فإنّك لن تتمكّن من أن تدرك أوقات الصَلاة من خلال العقل والفكر العاديّ؛ بل يجب أن تحصل على ذلك من خلال القرآن أو أن تجد له حديثًا شريفًا، فالوحي هو الذي يقدّم لنا هذا الأمر. وهذا هو الذي يقصده الإمام السجّاد، وهو الذي يُستظهر من كلامه حين يقول إنّ دين الله لا يُصاب بالعقول؛ ولا يعني ذلك أيضًا أنّنا لن نتمكّن من رؤية أحكام الدين ومعارفه بمنظار العقل ووسيلة الفكر الإنسانيّ.

ينتفض بعض الجهلة بكلّ اندفاع، وتحت عنوان الدفاع عن الدين،

---

(10) سورة **المائدة**، الآية ٩٠.

(11) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٢، الصفحة ٣٠٣.

(12) سورة **الإسراء**، الآية ٧٨.

ويصرخون قائلين: يا فلان لا ينبغي أن تبيّن للدين فلسفةً. فلماذا لا نفعل ذلك؟ ولماذا لا نبيّن؟ بالطبع نحن نقول دائمًا ونكرّر ونعترف أنّ ما نفهمه وندركه هو أقلّ من واحد بالألف من معارف الدين العميق. وما يمكننا أن نطبّقه ونبيّنه هو أقلّ بكثيرٍ ممّا هو ممكنٌ في الواقع وما يمكن إنجازه وما هو موجودٌ في حقيقة الأمرٍ؛ فليس في ذلك شكٌّ أبدًا؛ لكنّني أقول كلمةً واحدة، ثمّ يأتي شخصٌ آخر ويقول كلمةً، ويأتي شخصٌ آخر ويقول كلمة؛ فلو أنّكم حسبتم القضيّة على مرّ الخطّ الطوليّ لتاريخ البشريّة، فإنّه وبعد مئتي سنة أو خمسمئة أخرى ستجدون أنّ البشريّة أصبحت أكثر إيمانًا وإذعانًا واعترافًا بعمق الدين من ذلك الزمان الذي لم تكن فيه هذه الأفكار والعقول والتطبيقات موجودة.

وبناءً عليه، فإنّ الدين عندما ينزل، فإنّه لا يأتي لأجل قمع العقل أو إبطاله أو إخراجه من مسرح الحياة وقضاياها. فلماذا يأتي الدين إذًا؟ إنّه لأجل هداية العقل والأخذ بيده. العقل موجودٌ ولكن عندما يكون الهوس إلى جانبه، فلن يتمكّن من الحكم والقضاء بصورةٍ صحيحة. العقل موجودٌ، ولكن عندما يكون الطمع محيطًا به، وحين تكون الأمانيً والأغراض إلى جانبه، فإنّه لن يتمكّن أن يدرك بصورةٍ صحيحة. يأتي الدين من أجل أن يزيل عن العقل كلّ أنواع الهوس والأهواء والأطماع والمخاوف والأغراض؛ ويأتي من أجل أن يزيد من قوّة العقل السليم الكامل ويؤيّده ليدرك الأمور بصورةٍ أفضل. وأنتم عندما تراجعون قضايا الإسلام ومعارفه، فإنّكم ستجدون أنّ الإسلام من أوّله إلى آخره مليءٌ بتجلّيات العقل. فكم لدينا من آيات في القرآن، في قوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُون﴾ ، وكذلك كم لدينا من آيات في قولهٍ: ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ . فكلّ ذلك هو من أجلٍ أن تفهموا وتعقلوا وتدركوا. وكم لدينا من آيات من قوله تعالى: ﴿لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَاب﴾ ، وكم لدينا في الروايات من مثل قولهم عليهم السلام: «إنّ لله على النّاس حجّتين»[١٣]؛

---

(١٣) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٣، الصفحة ٢٠٣٦.

فالحجّة الأولى هي النبيّ أو الرسول والحجّة الثانية هي العقل. هكذا، هو العقل ونحن لن نتحدّث حول العقل أكثر ممّا تحدّثنا لحدّ الآن.

وبالإجمال، احفظوا هذه الكلمة جيّدًا وهي اختصار ما قيل بأنّ الإنسان بدون هداية الوحي وبدون أن يكون الوحي متّجهًا إليه لتخليصه وإنقاذه، فإنّه لن يتمكّن من إيصال نفسه إلى منزل السعادة. وعندما يأتي الوحي، فإنّه لا يقمع العقل ويبطله، كما أنّه لا يفعل ذلك بالغريزة، ومن المؤكّد أنّه لا يريد القضاء على الحواس الظاهرة، بل إنّه يريد أن يأتي لأجل تقوية الحواس الظاهرة والغرائز الإنسانيّة والبشريّة وقوّة العقل والفكر في الإنسان ويهذّبها ويزّكيها ويأخذ بيدها ويعلّمها. هذه هي وظيفة الوحي، ولذلك نقول إنّ فلسفة النبوّة هي هذا الأمر.

وحيث إنّ الوضع على هذا النحو، ولأنّنا ناقصون ولأنّ الفكر والتصوّر البشريّ غير كافٍ لهدايتنا، يجب أن تأتي يدٌ من الغيب وتقوم بهدايتنا؛ وهذا هو محلّ خروج هذه اليد الغيبيّة؛ [وليس محلّها عندما] أكون أنا العبد جائعًا قليلًا ولا أسعى من أجل لقمة العيش وأنتظر حتّى تأتي يد الغيب إليّ وتنقذني وتطعمني؛ [وليس محلّها] عندما أقترف معصيةً ما، فأقف في حسرة وأسف وندامة وأنتظر حتّى تأتي يدٌ من الغيب فتنقذني، كلّا؛ [ولا محلّها] عندما لا أؤدّي تكليفي الإلهيّ، فلا آمر بالمعروف ولا أنهى عن المنكر ولا أتّبع طريق الله، لكن أبقى منتظرًا حتّى تأتي يدٌ من الغيب وتخرج وتفعل ما تفعل؛ [وليس محلّها عند] العمل خلاف الآية القرآنيّة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذي يُكَذِّبُ بالدِّين * فَذلكَ الَّذي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلى طَعام الْمِسْكين﴾[14]، ﴿قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّين * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكين * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين﴾[15]. فهذه الآية القرآنيّة تعدّ المكذّبين بالدين من أولئك الذين لا يحضّون على إطعام المسكين وإعطاء حقوق الناس؛ أولئك الذين

(١٤) سورة **الماعون**، الآيات ١-٣.

(١٥) سورة **المدّثر**، الآيات ٤٣، ٤٤، و٤٦.

لا يحثّون ولا يدفعون الناس من أجل إشباع المساكين. وبرؤية أوسع وأعمق وبعبارةٍ أقرب إلى متن الإسلام، فإنّهم لا يسعون لاقتلاعٍ جذور الفقر والجوع.

فذاك الذي لا يطبّق نفسه على هذه الآية، ولا يخطو خطوةً واحدةً في طريق القضاء على كلّ أنواع الجوع، ولا يخطو ولو خطوة واحدة من أجل القضاء على جذور الفقر، ولا يتقدّم على هذا الطريق، ويجلس حتّى تأتي يدٌ من الغيب وتفعل فعلها، فمثل هؤلاء الناس ينبغي أن يعلموا أنّه لو خرجت هذه اليد من عالم الغيب، فإنّ أوّل ما ستقوم به هو ضرب رؤوسهم من أجل إبعاد هذه الوجودات التائهة والباطلة وإسقاطها.

نعم، يوجد يدٌ تأتي من عالم الغيب وتقوم بالأفعال، لكن في المحلّ الذي ذكرت، وذلك عند ضرورة هداية الناس؛ هذه هي يد النبيّ أي يد النبوّة، وتلك هي الرسالة الماهرة التي تأتي لهداية البشريّة على ذلك النحو الذي ذكرناه وهو بعث الطاقة العقليّة فيهم. عندها، تبرز مجموعة كبيرة من المسائل الأخرى، ويوجد لدينا هنا مجموعة من القضايا المختلفة، قمتُ بتدوين لائحة مختصرة منها، وأحدها يتعلّق بمفهوم النبوّة وارتباطها بالبعثة، فعندما نقول إنّ النبيّ مبعوثٌ فماذا تعني البعثة؟ وهل يوجد في النبوّة نوعٌ من الانبعاث أو التحرّك؟ فمثل هذا البحث يُعدّ بحثًا يجدر تناوله؛ فنحن لا نصادف مثل هذا البحث في الأبحاث المتعلّقة بالنبوّة.

ما هي نقطة بدء عمل الأنبياء؟ فمن أين يبدأون في عمليّة الإصلاح؟ وما هي عاقبة مساعيهم؟ وإلى أين تنتهي أعمالهم؟ فهل أنّهم يغرسون الشتول ويكتفون بريّها ثمّ يذهبون ويتركون الأمور؟ هل أنّ قطع رأس النبيّ يحيى وإرساله إلى ذلك الطاغية ينتهي عند هذا الأمر فقط؟ هل يكون آخر شيءٍ في النبوّة هو هذا الأمر أم لا؟ هناك عاقبةٌ أخرى ونهايةٌ مختلفة لمثل هذه البداية المتصوّرة والتي ينبغي أن ننظر إليها، وقد أشار القرآن إليها؛ ويوجد قضايا أخرى ينبغي أن نتطرّق إليها، ونتحدّث عنها.

فيما يتعلّق بفلسفة النبوّة، فإنّ المقدار الذي تحدّثت عنه يبدو لي كافيًا. يوجد آياتٌ عديدة في هذا المجال، آيات عظيمة المحتوى والمضمون. وأوّل ما بدر لي هو هذه الآية التي ذكرتها، وسأشرحها بصورةٍ مفصّلة، وقد رأيت أنّني لو أردت أن أشرح المفهوم المتبادر إلى الذهن من هذه الآية، إلى جانب المسألة المتعلّقة بالنبوّة، فإنّني لن أستطيع شرحه بصورةٍ كاملة في هذه الجلسة لوحدها. ومن الملفت جدًّا، وأريد أن ألفت أذهانَ وأفكار الإخوة الأعزّاء إلى أنّ هذه الآية قد ذُكرت في تفسير آية الله الطالقاني، المسمّى **شعاع من القرآن**، فليراجعوه. وهناك بحثٌ جيّدٌ في هذا المجال نسبيًّا، وأنا أكتفي بترجمة مختصرة لها.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ [١٦]، هذه الآية تشير إلى أنّ الناس كانوا بصورة أمّة أو جماعة واحدة، وقد بحث المفسّرون في هذا المجال بصورة مفصّلة أيضًا. فإذا كان الحديث عن أمّة واحدةٍ، يأتي السؤال حول إذا ما كانت هذه الأمّة جيّدة وخيّرة، أو أنّها كانت أمّةً سيّئة. وعلى كلا الاحتمالين، فقد أورد الذين كان لهم كلامٌ في هذا المجال إشكالًا ها هنا. بعض هؤلاء يقول إنّ قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ إشارة إلى الاشتراكيّة الأوّليّة وبداية عصور ما قبل التاريخ. وأنا أقول إنّه لا يوجد شاهدٌ واحدٌ على هذا المعنى سوى أنّ عنوان عصر الاشتراكيّة والبدايات يجري على الألسن، وأسفنا هو أنّه ليس للقرآن نصيبٌ من كلامهم في هذا المجال سوى هذا؛ وإلّا فإنّ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ لا تشير إلى العصر الذي كان يعيش الناس فيه في ظلّ الاشتراكيّة الأولى بحسب قولهم، كأن يُقال مثلًا إنّهم كانوا كالحيوانات العاديّة الهائمة في الأودية والفيافي وكانوا يحملون تلك الهراوة الحجريّة ويصطادون الحيوانات ويأكلونها وقد يأكل بعضهم بعضًا في حالات معيّنة، فالأمر ليس كذلك حتمًا. ولا يمكن أن يكون سعينا نحن بأن نجعل قرآننا محلًّا نلصق به شيئًا من مكانٍ آخر، كلّا؛ فما نفهمه

---

(١٦) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.

من القرآن هو هذا الأمر وهو يكفينا، ولا يحتاج قرآننا إلى كلام الآخرين وثقافاتهم وإلى الهوامش والحواشي عليه منهم، كلّا، فإنّ القرآن لا يطلب تلك الإضافات والتوضيحات من غيره بأيّ نحو من الأنحاء.

﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾، يمكن تفسيرها بعدّة أنحاء. يوجد معنيان في تفسير آية الله الطالقاني - في حال قمتم بمراجعتهما وملاحظتهما - ويوجد أيضًا معنًى بالنسبة لي يختلف عن المعنيين المذكورين والذي قد أشرت إليه سابقًا. ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ تعني أنّ الناس كانوا في حالة من التساوي من ناحية الاحتياجات ومن ناحية الاستعداد. لقد كان الناس في البدايات يعيشون نحوًا واحدًا من الاحتياج، وكانت نشأة الجميع متساوية؛ وكانت الأوضاع الاجتماعيّة على هذا النحو دائمًا. لقد كان الجميع يمتلك العقل نفسه والفكر نفسه والذكاء نفسه، والحاسّة السادسة نفسها، وهكذا الحال بالنسبة للحواس الظاهرة والباطنة؛ وكان جميع الناس يجوعون ويعطشون ولديهم الهوس الجنسيّ ويحتاجون إلى المنزل واللباس وكلّ الأشياء من هذا القبيل. كانت الاحتياجات كلّها متساوية ومن سنخ واحد على وجه التقريب ومن موادّ وأصول مشتركة متشابهة.

وعندما ينشأ الإنسان في ظلّ تربية أفضل يصبح من الممكن لاستعداداته أن تتفتّح أكثر، وهذا مطلبٌ آخر. من الممكن أن ينشأ أحد أبناء النبلاء أو الأرستقراطيّين في بيت أرستقراطيّ ويأتيه معلّمٌ إلى منزله ويعلّمه اللغة الهنديّة والصينيّة فيصبح كالبلبل وهو ابن السابعة، في حين لا يجيد ابن ذاك العامل في منجم من المناجم، الفارسيّة التي هي اللغة المحلّيّة رغم أنّه بلغ السابعة أو الثامنة من العمر؛ ومثل هذا لا يُعدّ دليلًا على أنّ استعداد [الطفل الأوّل] هو أفضل من استعداد الطفل الآخر. كلّا، بل قد استُخرج ما في [الطفل الأوّل] من استعدادات كامنة، في حين أنّ الطفل الآخر قد حُرم من هذه العمليّة، فبقيت استعداداته كامنة. وليس معلومًا على سبيل المثال إذا ما كانت الآبار النفطيّة في المناطق الشماليّة أو الجنوبيّة

الموجودة في الدولة الفلانيّة هي أوفر وأغنى من تلك الآبار النفطيّة التي لم يتمّ حفرها لحدّ الآن. فتلك قد ضُخّت في محطّات وتحوّلت إلى وقود للسيّارات والكلّ يعرفها ويعرف اسمها؛ في حين أنّ نفط تلك الآبار المسكينة التي لم يتمّ استخراجها قد يكون أوفر وأكثر. ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً﴾ بشكل طبيعيّ وعاديّ ويعيشون باحتياجات متساوية واستعدادات متشابهة ـ وقد ذكرنا ذلك ضمن ترجمة هذه الآية ـ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾[17]، وهنا بعث الله تعالى أنبياء من بين هؤلاء الناس المتساوين من حيث المستوى، أرسل ربّ العالم إنسانًا أسمى وأقوى وأعمق وأكثر حماسًا واستعدادًا، أوجده وبعثه لأجل أيّ شيء؟ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِين﴾، يوصل البشرى ويحذّر الناس. فما هي البشرى التي كان يوصلها الأنبياء؟ إنّها بشرى الجنّة وبشرى سعادة الدنيا، وبشرى المدينة الفاضلة، وبشرى الاستقرار الأمنيّ والسلام والرفاهيّة، وبشرى القضاء على اليأس والفقر والخوف والجهل والاضطراب، فهم حاملوا البشرى. وفي النهاية، بشرى تشكيل الحكومة الفاضلة والمدينة الصالحة للبشريّة، وبعد هذه بشرى الوصول إلى الجنّة والاتّصال برضوانٍ من الله أكبر. ويحذّرون ويخوّفون من نيران جهنّم، ومن دقّة جسر الصراط، ويخوّفون من وخامة الدنيا، ومن تسلّط عفريت الجهل والفقر، كما أنّهم كانوا يخوّفون من السقوط في مستنقع الفساد وأودية الانحراف. وكانوا يخوّفون من القضاء على الاستعدادات الإنسانيّة، فهم حملة الإنذار أيضًا.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَق﴾، فلم يكن كلّ ما عندهم هو أن يبشّروا الناس وأن يقولوا لهم احذروا وخافوا؛ فماذا كانوا يحملون إلى جانب ذلك؟ إنّه كتابٌ من جانب الله؛ لقد نزل إليهم كتابٌ بالحقّ وطبق الحقّ. وكنّا قد ذكرنا معنى الحقّ عدّة مرّات. وبالإجمال، إنّ ما يطابق فطرة العالم وما ينسجم مع المسار الطبيعيّ لهذا

---

(١٧) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.

الوجود هو الحقّ. ويُقال حقّ لكلّ ما ينطبق على فطرة الإنسان وأصل خلقة العالم. وكتاب الأنبياء حقٌّ أيضًا، وهو يتقدّم بالإنسان في طريقه الطبيعيّ ومساره الفطريّ وفي بيئته العاديّة ومساره التكامليّ ويأخذ بيده ويعينه. فكتاب الأنبياء متلازمٌ مع الحقّ دومًا.

﴿أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، إنّ الكتاب هنا يتقدّم من أجل أن يقضي بين الناس بشأن الخلافات التي تقع بينهم؛ وكما نعلم أنّ الناس لن يبتعدوا عن الاختلاف، لأنّ الاختلاف بين الناس سُنّةٌ ووجوده ضروريٌّ وعدمه مضرّ. فاعلموا جيّدًا أنّ وجود الاختلافِ أمرٌ جيّدٌ لأنّه يؤدّي إلى التكامل. وبالطبع في مجال الاختلافات، يجب أن أجدّد النظر في هذه الكلمة التي قلتها بأنّ عدمه مضرٌّ، فلا أعلم إن كان مضرًّا أم لا؛ ولكن على كلّ حال يجب أن أفسّر وأشرح أنّ وجوده في كلّ حالٍ مفيدٌ، أمّا إن كان عدمه مضرٌّ فلا أعلم. فلأكتفي بهذا الكلام.

إذن يأتي الكتاب وينزل من أجل أن يحكم بين الناس ويقضي بينهم؛ فهذه الحكومة ترتبط بشأن تلك الأمور التي اختلفوا فيها، فماذا نفهم في هذا المجال؟ نفهم أنّ الحكومة التي يوجدها الأنبياء هي ليست حكومة النبيّ كفردٍ أو كشخص، وليست حكومة الاستبداد، بل هي حكومة القانون وحكومة الكتاب، فعندما يأتي النبيّ فإنّه يصنع مجتمعًا يكون الحاكم فيه هو ذاك الكِتاب، أي القانون، في المعنى والواقع.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بشأن هذا الكتاب لا يوجد اختلافٌ، ولم يختلفوا، ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ فالذين اختلفوا بشأن الكتاب السماوي هم أولئك الذين أعطي لهم الكتاب، وأولئك الذين من أجلهم جاء الكتاب السماويّ. فعلى ماذا يدلّنا هذا الأمر؟ إنّه يشير إلى وجود التحريف في الأديان السماويّة فيما يتعلّق بمقولات الأنبياء. فعندما يأتي الأنبياء ويأتون بالكتاب والقانون والمذهب، فإنّ أولئك الذين أعطوا هذا الكتاب والقانون والمذهب يقعون في الاختلاف، فماذا يعني اختلافهم؟

إنّه يعني أنّ هناك مجموعة تقول حقًّا، ومجموعةٌ أخرى تقول خلاف الواقع. وبناءً عليه، يوجد هناك أشخاصٌ هم أتباع دينٍ ويتحدّثون بحديث الدين لكنّهم يخالفون الواقع، وهذا إشارة إلى وجود النّسخ والتحريف في الأديان.

﴿مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُم﴾، فالطغيان والعداوات التي حصلت [إنّما وقعت بسبب البغي]. ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِه﴾، فالذين آمنوا واتّبعوا دين الحقّ فإنّ الله يهديهم إلى الإجابة عمّا اختلفوا فيه بإذنه وإجازته. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾ فهدايته تشمل من يشاء[١٨].

فماذا فهمنا لحدّ الآن؟ لقد فهمنا معنى فلسفة النبوّة وهو أنّها أصلٌ في جميع الأديان، بل هي أصلٌ أساسيّ، ولو لم تكن كذلك لما بقي للدين أيّ معنًى أو مفهوم صحيح؛ لأنّ الدين هو ذاك الأمر الذي جاء من جانب الله بواسطة حملة الوحي والرسالة.

---

(١٨) بالإضافة إلى ترجمة سورة **الجمعة** في جلسات قرآنيّة أخرى في مسجد كرامت في مدينة مشهد وفي مناسبات عدّة لمن شاء الاستزادة من الاطلاع.

الجلسة الخامسة عشر: البعثة في النبوّة

الخميس، ١٦ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرّحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْانسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْانسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلاَّ إِنَّ الْانسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾[١٩].

---

(١٩) سورة **العلق**.

إنّ موضوع حديثنا في هذه الجلسة هو في أنّ النبيّ وحين يُلقى على عاتقه حمل الرسالة والنبوّة وبعد أن يتلقّى رسالة الله، فأيّة حالة وأيّة كيفيّة في العالم المحيط به تتحقّق. بالطبع، من الواضح أنّه ليس لدينا كلامٌ كثيرٌ حول الكيفيّات الداخليّة أو الباطنيّة للنبيّ نفسه؛ وإذا كنّا سنطرحها هنا فهو من باب أنّه يوجد استفادة لطيفة ودقيقة من إحدى الكلمات العاديّة الرائجة في القرآن وفي عرف المتشرّعة والتي توضح لنا ضمنًا أحد أبعاد قضيّة النبّوة.

أنتم تعلمون أنّه في القرآن، وفي الغالب عندما يجري الحديث عن مجيء النبيّ، فإنّ الحديث يكون عن بعثته، ﴿لَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾[٢٠]. لقد بعثنا موسى وبعثنا إبراهيم وبعثنا الأنبياء الآخرين. البعثة؛ فماذا تعني البعثة؟ وما هي العلاقة بين البعثة والنبوّة؟ إنّ العنوان الذي وضعناه لبحثنا هي البعثة في النبوّة، كما ورد في عنوان الجلسة. ففي النبوّة، يوجد بعثة ونحن نسأل عن المعنى الكامن في هذه الكلمة. فإذا كان في النبوّة بعثةٌ، فهل أنّ هذه البعثة ترتبط بشخصٍ أو بشيءٍ ما؟ وما هي الفائدة منها؟ وأمور من هذا القبيل.

إنّ البعثة تشير إلى التحرّك بعد الفتور والركود والضعف. فالميّت الذي ينام في القبر لسنواتٍ مديدة وتتحوّل أجزاء بدنه إلى تراب، يُقال عنه، عندما يقوم بقدرة الله تعالى يوم القيامة، أنّه بُعث. هذا هو يوم البعث؛ فالإنسان الذي يكون نائمًا في بيته أو يتحرّك في مجريات حياته الاجتماعيّة اليوميّة، ولا يكون فيه الفوران والسعي والفعّاليّة، والتي هي حالة مخالفة للحالة العامّة في المجتمع، فإنّه يكون في الواقع مثل قطعة الخشب، أو كنبتةٍ بلا روح، ومثل ريشة واقعة في السيل العامّ للمجتمع ويسوقه هذا المجتمع أينما شاء؛ وعندما يرجع هذا الإنسان إلى نفسه، وعندما يخرج من هذه الحالة اللامبالية، وعندما يشعر أنّه ليس من الضروريّ لهذا المسير

(٢٠) سورة **النحل**، الآية ٣٦.

وهذا الجريان الطبيعيّ والعاديّ أن يمنحه الاطمئنان الكامل أو يقنعه؛ وأنّه قد يكون هناك جريانٌ آخر يمكن له أن يتّبعه ويوصله إلى منزل السعادة؛ وعندما يستيقظ هذا الإنسان على أثر هذه الأفكار ويتنبّه ويبدأ سعيًا وتحرّكًا جديدًا يُقال عن هذا الإنسان إنّه قد بُعث. وكذا في الأمثلة الصغيرة والجزئيّة، فإذا نهضتم من نومكم يقولون عن ذلك أنّه بعثٌ. وعندما تخرجون من حالة الضعف والكسل واللامبالاة والفتور وتبدأون حركةً شديدة فيُقال أيضًا إنّه بعثٌ. فهذا هو معنى البعث.

وكما تعلمون، يُقال ليوم القيامة يوم البعث؛ فهو يوم القيام ويوم الخروج من الضعف واللامبالاة وفقدان النشاط؛ وهو يوم التحرّك؛ وهو يوم يكون الناس فيه عند خروجهم من القبور، ومن اللحظة الأولى وحتّى آخر لحظة من مسيرهم نحو المصير النهائيّ المحدّد، يكونون في سعي وتحرّكٍ وسيرٍ. هذا، ويُقال له يوم البعث. وفي النبوّة يوجد مثل هذه الحالة أيضًا.

إنّني أريد أن تصبح نظرتكم إلى النبوّة نظرةً جديدةً من الأساس. فالبعض يتصوّر النبوّة على نحو الوعظ على سبيل المثال، دخل مدينةً من أجل أن يبيّن لأهل هذه المدينة عددًا من القضايا التي ترتبط بالدين أو بغيره؛ أو لنفترض مثلًا، مثل متفوّهٍ أو خطيب ينهض من بين الناس ويقف ليخبرهم بمجموعة من القضايا الفرعيّة؛ أو مثل أحد الخطباء أو الناطقين، على سبيل المثال، الذي يدخل إلى لقاءٍ عامّ في مجتمعٍ ما ليبدأ جدالًا أو حوارًا داخل هذا المجتمع؛ هؤلاء يفترضون أنّ النبيّ هو في العادة مثل هؤلاء؛ رجلٌ روحانيٌّ عالمٌ نجيبٌ يحني رأسه تواضعًا ويسير بين الناس. غاية الأمر أنّ الناس أحيانًا يعرفون قدره إذا كانوا من الأخيار ويُقال عن هؤلاء إنّهم مؤمنين، وأحيانًا لا يعرفون قدره فيُقال عنهم إنّهم كفّار أو يُقال مشركين. فنحن كنّا نتصوّر النبيّ على هذا النحو.

يوجد في النبوّة تحوّلٌ وتبدّل؛ ويجب أن نقول إنّه عبارة عن نحوين من التحوّل والتبدّل. النحو الأوّل هو الذي يحدث في وجود النبيّ نفسه؛ أي أنّ

البعثة والثورة والتحوّل، كلّ هذه تحدث في البداية في النبيّ نفسه، في ذاته وباطنه؛ فالنّبيّ نفسه هو أوّل من يتبدّل، وهو أوّل من يخرج من حالة الركود والفتور. وبعد أن تتحقّق القيامة في روح [النبيّ] وباطنه، وتحدث البعثة في ذاته ونفسه الباطنيّة، وبعد أن تنهض جميع الاستعدادات شديدة الفوران والمستودعة فيه من جانب الله تعالى وكأنّها نبعٌ يُستخرج منه في لحظة واحدة مليارات السيول التي تبدأ بالانهمار - حيث أنّ كلّ هذه المياه قبلاً هذه اللحظة تكون ما زالت مخفيّةً ومستترةً في باطنه - فبعد هذه اللحظة التي نعبّر عنها باختصار بأنّ النبيّ نفسه أصبح مسلمًا، وبعد أن يصبح هو نفسه تحت تأثير تحوّل الوحي الإلهيّ، وبعد هذا الانفجار والتحوّل والفيضان والثورة، أي هذه البعثة التي تكون بفضل تفجّر الفيضان الداخليّ في روح النبيّ وباطنه، فإنّ كلّ ذلك يعود ويسيل إلى المجتمع البشريّ وينتقل إليه. فبعد أن يحدث التحوّل في باطن [النبيّ] يبدأ التحوّل في المجتمع. وبعد أن تتحقّق في باطن النبيّ تلك البعثة العظيمة تتحقّق بعثةٌ أعظم في متن المجتمع، وبعد أن تتحقّق هذه الثورة في قلب النبيّ تبدأ ثورةٌ في المجتمع على يديه، وتتحقّق البعثة بمعناها الواقعيّ هناك. فانظروا جيّدًا ستجدون أنّ كلّ ما في النبوّة هو عبارةٌ عن فيضانٍ وفورانٍ وتحوّلٍ وتغيّر وبعث وانبعاث.

ونسأل هنا عن الحالة التي كانَ عليها النبيّ قَبل نبوّته. ويوجد هنا نقطتان ترتبطان بمجال حياة أيّ نبيٍّ قبل النبوّة؛ وهما على تضادّ. فبالطبع عندما نقول تضادّ لا بمعنى التضاد الواقعيّ، بل ما يبدو للنظر أنّه على نحو متضادّ. الأولى هي أنّ النبيّ، وإن لم يكن مبعوثًا، لكنّه يكون متمتّعًا باستعدادات إنسانيّة في غاية القوّة والعمق، وهذا ما يميّزه عن بقيّة الناس؛ فالاستعداد للفهم والتحرّك والانبعاث الذي يكون موجودًا فيه لا يمكن مقارنته بما هو موجودٌ عند غيره من الناس؛ والاستعداد الموجود فيه للعبوديّة لله لا يمكن أن يُتصوّر لغيره من الناس من ناحية المستوى؛ فكلّ هذه الاستعدادات التي تكون في أيّ إنسانٍ لتخرجه من حضيض الترابيّة

وتوصله إلى أوج «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، أي تلك العبوديّة الواقعيّة لله والتخلّق بأخلاق الله، كلّ هذه الاستعدادات تكون في النبيّ أكثر بكثيرٍ من غيره.

وهنا نسأل: لماذا تكون هذه الاستعدادات في النبيّ أكثر من غيره؟ فهل أنّ الله قد ظلم في هذا المورد أو ميّز؟ يمكننا للإجابة بأن نقدّم جوابًا مختصرًا، حيث نقول في هذه الحالة إنّ تحمّل مسؤوليّة النبوّة في نهاية المطاف يحتاج إلى عضد أقوى وأشدّ وإلى استعداد أعلى؛ فحمل الرسالة ليس عملًا وضيعًا. إنّ حملَ النبوّة وإيصال رسالة الله إلى الناس، وتبديل المجتمع من الجاهليّة إلى التوحيد، يُعدّ عملًا عظيمًا جدًّا كما أنّ حمله ثقيلٌ للغاية؛ وفي النهاية فهو يتطلّب أن ينهض أحدٌ به ويتحمّله. فمن الذي يمكنه أن يتحمّل هذا الأمر؟ هل هم أولئك الأشخاص العاديّون؟ أم هم أولئك الذين يحوزون على استعدادات وإمكانات أكثر بسبب الشروط والظروف والخصوصيّات العامّة والبيئيّة والأسريّة وغيرها؟ فلأنّ الله يرى في هذا الإنسان وجود هذه الإمكانات الإضافيّة، فإنّه يعينه ويفيض عليه ويتلطّف به ويجعل تحت اختياره وبين يديه ما يحتاجه في التكامل حتّى يصل إلى تلك المرحلة من القدرة بحيث يتمكّن من رفع ذلك الحمل الثقيل؛ فيصنع الله تعالى منه إنسانًا مستعدًّا وجاهزًا لهذا العمل.

ففي النهاية، إذا لم يحمل رسول الله هذا الحمل الثقيل، فإنّ هذا الحمل سيبقى على الأرض؛ فأنتم وأنا لسنا ممّن يمكنه أن يحمله؛ كما أنّ هذا الحمل ليس بمقدور غاندي[٢١] ولومومبا[٢٢]، وليس هو من عمل سقراط

(٢١) الماهاتما غاندي (١٨٦٩ – ١٩٤٨ م.) الزعيم المعنويّ السياسيّ لشعب الهند على طريق التحرّر من سلطة الامبراطوريّة البريطانيّة. وكان يعيش عيشةً بسيطةً جدًّا، متأثّرًا بالديانة البراهمانيّة وكان يؤكّد على الكفاح السلميّ. وفي إحدى مواقفه، حرّم غاندي شراء البضائع الإنكليزيّة، وقد اغتيل بعد استقلال الهند من قبل أحد الهندوس المتشدّدين الذي كان يعارض إقامة العلاقات الواسعة مع باكستان الإسلاميّة.

(٢٢) باتريس لومومبا (١٩٢٥ ـــ ١٩٦١ م.) قائد الحركة المعادية للاستعمار في دولة الكونغو ضدّ بلجيكا والذي تمّ عزله بعد وصوله إلى رئاسة الوزراء بمؤامرة المخابرات الأمريكيّة والبلجيكيّة من قبل رئيس الجمهوريّة وبعد مدّة من الاختفاء أُعدم من قبل الجنرال موبوتو سي سي كو.

وأفلاطون وأرسطو، بل إنّ رفع هذا الحمل الثقيل - الذي يُسمّى الرسالة والنبوّة والبعثة - يحتاج إلى عضد وعاتق أقوى من كلّ هذه القدرات.. بالطبع، إنّ الإعداد والتهيئة لمثل هذا الأمر هو كبيرٌ جدًّا؛ وهكذا يكون النبيّ حائزًا على هذه الاستعدادات الإضافية مقارنةً ببقية الناس. فهذه النقطة الأولى وقد اختصرناها بمثل هذا الكلام وهو أنّ الاستعدادات الموجودة في النبيّ هي أكثر من استعدادات الناس العاديّين وأغنى وأعمق وأفعل.

النقطة الثانية هي أنّ النبيّ، قبل البعثة وقبل النبوّة، يكون مشاركًا للناس في مجريات حياتهم اليوميّة ومواكبًا لهم، حيث إنّ الناس في هذا المورد يتحرّكون على مسارٍ معيّن؛ فلا يكون في البداية مشغولًا بالتفكير بكيفيّة قلب أوضاع هذا المجتمع، ومن الممكن أن يكون غير راضٍ، وبالطبع يكون كذلك. فانظروا إلى موسى بن عمران، عليه الصلاة والسلام، الذي كان يعيش في قصر فرعون، وبحسب قول أحد الشيبة قبل عدّة سنوات فقد كان يأكل من سفرة فرعون، وكان يعيش حياة الأشراف، ويقتل أحد الأشخاص في السوق، ويُبعث بعدها بالنبّوة والرسالة ويؤمن به قومٌ من بني إسرائيل، وذلك إثر عودته من عند شعيب في مدين؛ أي أنّه بُعث بالرسالة بعد أن قضى تلك المدّة عند شُعيب في مدين. وبشأن قتل ذلك الرجل قبل ذلك بمدّة، فإنّه يقول: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾[٢٣]. فماذا يعني أنّه كان من الضالّين؟ يعني أنّه لم يكن قد اهتدى إلى الطريق الصحيح المخالف للطريق العامّ للمجتمع الفرعونيّ في ذلك الزمان، لا بمعنى أنّه يعدّ قتل أحد أفراد الفراعنة معصيةً وذنبًا، كلّا؛ وإنّما أراد أن يقول: إنّني عندما قتلت ذلك الرجل ولم أكن شخصًا صاحب نهج مشخّص وتوجّه ثوريّ صحيح، بل كنت رجلًا من بين الناس، وكنت أسير على الطريق العامّ الذي يسلكه عامّة الناس؛ فكنت أسعى وسط المساعي الكثيرة وأتحرّك إلى جانب كلّ أنواع التحرّكات الأخرى. فاليوم قد بدّلت الطريق، واليوم فإنّني

---

(٢٣) سورة الشعراء، الآية ٢٠.

أعتبر تلك الحركة العامّة والمسير الجمعيّ للناس في المجتمع خاطئًا؛ أي إنّني اليوم سأقوم ببعثةٍ ونهضةٍ داخل هذا المجتمع، متى ذلك؟ إنّ ذلك يحدث بعد البعثة.

كذلك الأمر بالنسبة لنبيّنا الأكرم محمّد (ص) فإنّ الآية من سورة ﴿وَالضُّحى﴾ تبيّن المطلب بصورةٍ جيّدة؛ وأنا سوف أفسّرها وأشرحها لكم. لقد ذكر المفسّرون مطالب حولها، ويوجد روايات عديدة في ذيل هذه السورة، وأنا قد تأمّلت فيها ونظرت فوجدت أنّ الروايات عبارة عن تأويلٍ لا تفسير. فما هو موجودٌ في ذيل السورة الشريفة ﴿وَالضُّحى﴾ - كتسعين بالمئة من الروايات التي تأتي في ذيل الآيات القرآنيّة - ليس عبارة عن تفسير ظاهر الألفاظ؛ فإنّ ظاهر اللفظ يعطي معناه الخاصّ، ونحن سنقدّم هذا التفسير بينما ذاك يُعدّ من التأويل، الذي هو عبارة عن إضافة نكتةٍ على النكات الموجودة في هذه الآية؛ وإلّا فإنّ الآية بنفسها واضحة. فالإمام عليه الصلاة والسلام لا يريد أن يحمل لفظ ظاهر الآية على خلاف الظاهر، بل إنّ ظاهر الآية محفوظٌ في محلّه، وإنّما يريد أن يضيف شيئًا آخر. فما لا نفهمه أنتم وأنا من الآية بالنظرة العاديّة، يدلّنا عليه الإمام عليه السّلام، وهذا ما يُسمّى بالتأويل. وفي المضمون، فإنّ قسمًا من بحثنا يرتبط بهذه السورة.

﴿وَالضُّحى﴾ عبارة عن قسم من الزمن الذي يشرق فيه النهار، وهو عبارة عن فترة ما قبل الظهر. لاحظوا، إنّ لهذا القسم بذاته معنًى. فالقسم بذلك الوقت يحمل معنًى؛ ولعلّ الإشارة موجودةٌ فيه وواضحةٌ، لأنّ الحديث هو حول البعثة والرسالة التي يحملها النبيّ. لهذا، فإنّ الضّحى يشير إلى ذلك النور الذي يملأ جميع آفاق العالم على أثر بعثة نبيّ الإسلام ونبوّة الإسلام. ﴿وَالضُّحى * وَاللَّيْلِ إذا سَجى﴾ وقسم الليل الذي يملأ ظلامه كلّ الآفاق، ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلى﴾، يُقال إنّ الوحي قد انقطع مدّة من الزمن عن النّبيّ بعد أن بدأ؛ فبعد أن تحقّقت البعثة في وجود هذا

النبيّ، وظهر ذلك الفوران والتأجّج في باطنه، وأنس بجبرائيل حامل وحي الله، فإذ به يرى أنّ الوحي قد قُطع فجأة، فيُصاب بغمٍّ شديد. وكم طال هذا الانقطاع أو هذه المدّة التي يُعبّر عنها بمرحلة الفتَرة؟! قيل إنّها قد امتدّت لأربعين يومًا، وقال بعضهم أكثر من ذلك، لسنتين أو ثلاث؛ لتأتي بعدها سورة ﴿والضّحى﴾ كأوّل سورة مبشّرة تخاطب النبيّ الأكرم وتقول له: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾؛ فالله لم يتركك أو يطردك أو يغضب عليك أو ينفر منك. ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى﴾، فإنّ المستقبل سيكون بالنسبة لك أفضل من البداية والماضي، لأنّ عاقبة عملك هي أفضل من بداية عملك.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾، فعطاء الله للنبيّ سيكون إلى درجةٍ يصل معها إلى الرضا. ويوجد في الروايات ما يبيّن أنّ المراد من الرضا هنا في هذه الآية هو الشفاعة وهو أمرٌ صحيح؛ لأنّ الشفاعة هي من الأشياء التي أُعطيت لرسول الله وقد أُعطي منها ما يوصله إلى الرضا، لكنّه أُعطي منها في هذه الدنيا مقدارًا ما لأجل أن يرضى. فهداية البشريّة، وتشكيل المدينة الفاضلة، والغلبة على أعدائه الدمويّين، وفتح البلاد، ووضع المجتمع الإسلاميّ على سكّة المسير التكامليّ، هي أيضًا من تلك النعم التي أُعطيت لرسول الإسلام.

أجل، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوى﴾؟ فالرسول (ص) كان وحيدًا بلا ملجإٍ ولا معين ولا أبّ. فوالده قد تُوفّي قبل ولادته؛ وأمّه ارتحلت من هذا العالمً بعد مدّة قصيرة من ولادته؛ وكذلك جدّه، فقد ارتحل من هذا العالم بعد سنواتٍ قليلة؛ وقد بقي النبيّ لوحده، وصار تحت كفالة عمّه أبي طالب؛ والله يمنّ عليه بأن آواه منذ تلك اللحظة الأولى لليتم وجعله في حضن العطف والمحبّة، وحفظه بحفظه ورعايته. وهنا، يُعطى الأمل، ويُراد أن يُقال له إنّ مأوى الله سيكون دائمًا من نصيبه. فكما كان الأمر في الطفولة، فإنّه سيبقى كذلك بعد حمل الرسالة، مهما كانت ثقيلة وشديدة على عاتقك

وبيدك، فلا تخف ولا تخشَ ولا تظنّن أنّ الله تعالى قد تركك وودّعك، أبدًا، فإنّ الله تعالى لن يتركك منذ ذلك الوقت الذي آواك فيه.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾، يوجد بشأن الضلالة والهداية عدّة روايات، بعضها ضعيفٌ من ناحية السند. ويوجد مجموعة من الأقوال المنسوبة للمفسّرين قد دخلت ضمن هذه الروايات. فقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ لا يرتبط بالضلالة الفكريّة والروحيّة، بل المراد منها أنّ النبيّ عندما ضاع في طفولته في بعض أودية وجبال مكّة، هدى الله تعالى جدّه وتمكّن من إيجاده؛ أو كما ورد في حادثة أخرى أنّ [النبيّ] قد ضاع فجاءت امرأةٌ ووجدته؛ أو [المقصود هو] أنّك كنت ضالًّا في أهل مكّة وبين الناس ولم يعرفك أحد، فهدى الله تعالى أهل مكّة إليك. هكذا حملوا المعاني على هذه الآية؛ ونحن لا ننكرها جميعها، بل المقصود هو أن ندرك المعنى المطلوب. فمن الممكن أن تكون هذه المعاني موجودة؛ ولو وجدنا الرواية الصحيحة التي تنطبق على أيّ واحد من هذه المعاني سنطأطئ لها رؤوسنا. من الممكن أن تكون المسألة من الأساس عبارة عن وجود روايات ضعيفة، ومن الممكن أن يكون هناك روايات صحيحة في هذا المجال، فعندها ستكون منطبقةً على كلّ واحدة من هذه التفسيرات، وهي بالطبع مقبولة ويمكن أن تكون صحيحةً في موردها. ومع افتراض أنّنا نقبل كلّ معنى من هذه المعاني طبق الروايات الصحيحة؛ فإنّ المعنى الظاهر لهذه الآية هو غير هذا. وقبول الرواية التي تعطينا هذا المعنى لا يتنافى مع قبول المعنى الظاهر من الآية. فظاهر الآية هو شيءٌ آخر؛ إنّ ظاهرها واضحٌ وصريحٌ وهو يقول إنّك كنت ضالًّا ونحن هديناك. فماذا تعني الضلالة هنا؟ هل تعني عبادة الأصنام؟ كلّا وأبدًا. هل تعني أنّه كان شخصًا منحرفًا؟ كذلك الأمر الجواب هو بالنفي حتمًا. هل تعني أنّه كان عاصيًا؟ كلّا. فماذا إذًا؟ إنّها تعني أنّ هذا الصراط المستقيم الذي أريناك إيّاه في البعثة والنبوّة لم يكن بمتناول يديك؛ وهل يوجد شيءٌ آخر غير هذا؟ فتلك المعارف، وتلك

القوانين والأفكار التي أضاءت قلبك المقدّس مع نزول الوحي، هل كانت موجودةً قبل النبوّة وقبل البعثة في قلب هذا النبيّ العظيم؟ فمن المسلّم أنّها لم تكن كذلك. فالضلالة تعني هذا الأمر، وهو المعنى الظاهر من الآية، ولا يوجد أيّ إشكالٍ في أن نحمل هذه الآية الشريفة. حيث إنّ ظاهرها كذلك بلحاظ المعنى التأويليّ على الضلالة بين أهل مكّة أو الضلالة في جبال مكّة أو الضلالة أثناء رعي الأغنام في المكان الفلانيّ، كما جاء في بعض الروايات والمنقولات. فالتفتوا جيّدًا!

حسنٌ، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنَى ﴾، هنا تبيّن الآية أنّ الله تعالى قد أغنى نبيّه المحتاج. فما هو المقصود من هذه الآية وطرح هذه السورة في هذه الجلسة؟ لقد كان النبيّ الأكرم، وكما هو مفاد ظاهر الآية، يتحرّك بين الناس العاديّين ويسير وسط المجتمع، وإن كان منزعجًا ومتألّمًا من الأوضاع؛ وإن كان يتألّم من أبناء أشراف قريش الذين استولوا على ابنة ذلك الرجل المعدم وفعلوا ذلك بالقوّة، وقد قام بإنجاز حلف الفضول[٢٤]، وهو معاهدة شرفيّة؛ وإن لم يشرك الرسول لحظةً واحدةً بربّه ولم يخضع في مقابل الأصنام ويعظّمها؛ وإن لم يكن ينسجم لحظةً واحدةً مع أصحاب الأموال والمستبدّين وكان يعيش في ذلك المجتمع كإنسانٍ شريفٍ؛ فما فعله النبيّ، رغم كلّ هذه الأوضاع، هو أنّه كان يسير في المسير العاديّ لحياة ذلك المجتمع.

لقد كان النبيّ يعيش في المسار العاديّ لحركة المجتمع وحياته الجمعيّة، ثمّ يأتيه الوحي فجأةً فيحدث في نفسه تحوّلًا عميقًا وكذا في باطنه ووجوده؛ وقد كان هذا التحوّل عجيبًا وشديدًا إلى الدرجة التي كان يؤثّر في جسم النبيّ أيضًا، وكذلك في أعصابه. فعندما اصطدمت أوّل شعلة للوحي بروح النبيّ الأكرم واشتعلت في جبل النور، وجد أنّ حامل رسالةً

(٢٤) حلف الفضول هو معاهدة قام بها النّبيّ في سنّ العشرين مع مجموعة من شباب مكّة من أجل الدفاع عن المظلومين وكلّ غريب يدخل إلى مدينة مكّة ويقع تحت ظلم الظالمين ومن أجل الدفاع عنها.

الله يقول: ﴿اقرأ﴾؛ ولأنّ النبيّ لم يكن يقرأ شيئًا قال: وما أقرأ؟[٢٥] أو أنّه قال: لا أقرأ أو لا أستطيع أن أقرأ؛ فسواء كانت «ما» هنا نافية أو استفهاميّة «وما أقرأ؟». ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٢٦]. هكذا أتت تلك الشعلة إلى روح النبيّ وأوجدت فيه ذاك التحوّل. فهذا الإنسان المتفكّر، الذي نشأ نشأةً سليمة، والذي يمتلك هذه الجهوزيّة والاستعداد، يحدث في نفسه ذلك الانقلاب وتلك البعثة. لم يعد هذا الإنسان كما كان من قبل من الأساس. فمحمّد لم يعد ذاك المحمّد الذي كان قبل لحظة؛ وهذا الإنسان لم يعد كما كان قبل ساعة؛ لقد أصبح شيئًا آخر، وصار عنصرًا مختلفًا وجوهرًا جديدًا. في البداية، حقّقت البعثة في وجوده انقلابًا وتحوّلًا في باطنه وأصبح هذا الانقلاب منشأً لكي يتمكّن من تبديل العالم كلّه؛ ولو لم يتبدّل هو بنفسه لما استطاع أن يبدّل العالم. هذا هو الدرس لأتباع النبيّ وهو أن يعلموا أنّهم إذا لم يبدّلوا أنفسهم فلن يتمكّنوا من تبديل العالم؛ فليعلموا أنّ:

ذات نـا يـافـتـه از هـستى بـخش	كى تواند كه شود هستى بخش[٢٧]
الذات التي لم تدرك أصل الوجود	متى يمكنها أن تصبح مانحة الوجود

فأنت الذي لم تدرك حصّةً من الوجود ومن هذا الفيضان الإلهيّ ومن شعاع لطف الله ونعمة نوره، فأنت إذًا لم تنل شيئًا من هذا، ولم تفعّل استعدادًا كامنًا في نفسك؛ فكيف يمكنك أن تعطي الناس؟! وماذا ستُعطيهم؟! فكن أوّلًا نارًا واشتعل، كي تتمكّن من إشعال ذلك الفحم وذلك الحطب وتضيئه.

لقد أشعل النبيّ روحه أوّلًا، وكان قلبه أوّل متحوّلٍ ومنقلبٍ. ففي البداية،

---

(٢٥) **البرهان في تفسير القرآن**، ذيل تفسير سورة **العلق**.

(٢٦) سورة **العلق**، الآيات ١-٥.

(٢٧) شعر لعبد الرحمن جامي.

تحقّق هيجان القيامة في باطنه، وهناك استطاع أن يجرّ العالم نحو فوران تلك القيامة. لقد استطاع أن يصنع إنسانًا، يقدّم نفسه ولا يضيّع فكره. فهل هذا الأمر مجرّد خُزعبلات؟ فهل كان مزاحًا أن يأتي بلال الحبشيّ، الذي كان شديد السواد، ويتلقّى كلّ ذلك الضرب، لا ذلك الضرب الخفيف بل ذلك الضرب المبرّح؛ يضربونه! فكيف ذلك؟ كلّ ذلك يحصل تحت ضرب السياط ووطأة ذلك التعذيب، وليس لدقيقة أو ساعة، في حين أنّه هو يصرخ ويقول: أحدٌ، أحدٌ، أحدٌ، أحدٌ[٢٨]. ولو أردنا أن نعبّر عن هذا المعنى باللغة الفارسيّة فعلينا أن نجد جملةً مرادفة له، والمقصود هنا بهذا الكلام هو: الموت لكم، الموت لكم، الموت لكم، الموت لكم. هذا هو معنى أحدٌ؛ أحدٌ بالنّسبة لبلال. فما صنعه النبيّ بأبي ذرّ[٢٩] أو ببلال، أو بالمقداد[٣٠]، أو بعبد الله بن مسعود، في أوائل الإسلام والبعثة، لم يكن أمرًا بسيطًا أو عشوائيًّا. فقد أحدث الرسول (ص) التحوّل أوّلًا في ذواتهم. والآن، فلننظر ماذا فعلت ترانيم الوحي الأولى بالنبيّ، وماذا كانت تتضمّن من مطالب.

القسم الآخر هو سورة اقرأ. ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، فانظروا كيف يبدأ بسلسلة منظّمة. فأوّل شيء يمكن أن يؤدّي بالإنسان للتوجّه إلى الله ويجذب قلبه إلى اللهً، بالنسبة لإنسان يعبد الله كنبيّنا، والذي كان يعبد الله قبل البعثة ولم يكن مشركًا، هو أبسط وأسهل موضوع وهو موضوع الخلقة؛ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فالخلق له، وكلّ

---

(٢٨) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، الرسالة التاسعة، قصّة غزوة بدر.

(٢٩) جندب بن جنادة، كان يُكنّى بأبي ذرّ، وهو من قبيلة غفار، وهو الرابع أو الخامس من الذين أسلموا. عندما سمع النبيّ الجديد أسرع إلى مكّة وأسلم. ثمّ رجع إلى قومه وبعد معركة الخندق هاجر إلى المدينة، كان أبو ذرّ من أنصار أمير المؤمنين بعد وفاة رسول الله ورفض مبايعة أبي بكر، كان أبو ذرّ ينتقد سياسات عثمان وطريقة استعماله لبيت المال، ولهذا أبعده إلى الشام ثمّ إلى الربذة حيث توفّي هناك عام ٣١ أو ٣٢ للهجرة.

(٣٠) كان من أوائل الذين أسلموا ويعدّه المؤرّخون المسلمون سابع من أسلم. كان المقداد من كبار الصحابة وقد هاجر إلى مكّة بسبب ظلم مشركي مكّة. ثمّ رجع إلى مكّة وتوجّه إلى المدينة وشارك في جميع حروب النبيّ، كان معروفًا برمي السهام بمهارة. وبعد وفاة رسول الله كان المقداد من القلّة المعدودة التي نصرت أمير المؤمنين. وقف المقداد مخالفًا لبيعة الناس مع عثمان، وفي عام ٣٣ للهجرة، تُوفّي في المنطقة التي تبعد فرسخًا واحدًا عن المدينة نُقل إلى المدينة ودُفن في مقبرة البقيع.

هذه المظاهر العظيمة للخلقة منه.

وعندما يستقرّ هذا المطلب في الذهن، فإنّه يرتقي إلى درجة أعلى، ويثبت شيئًا أعلى من الخلق، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ . وهنا، كم هو هذا الاختلاف بين الإنسان والكائنات الأخرى؟ الإنسان في البداية لا يتوجّه إلى هذه القضيّة. فأنتم عندما تسيرون في الشارع بينما تركبون السيّارة، وتمرّ بجانبكم سيّارةٌ أو إنسانٌ أو يمرّ عشرة أشخاص أو تمرّون على عشر شجرات بسيّارتكم، فقد تشتبه الرؤية عند الإنسان، لأنّ الإنسان عندما لا يدقّق فإنّه لا يلتفت إلى وجود فرقٍ بين الإنسان وغير الإنسان.

حسنٌ، إنّ الإنسان موجودٌ وهو بالتأكيد موجودٌ أعزّ وأفضل وأعلى [من سائر الموجودات]؛ وتلك أيضًا موجودات وكائنات. أولئك الذين يعتبرون زبدة العالم لا يدركون الفرق بين الإنسان وغير الإنسان حتّى النهاية، وذلك لأنّ آلاف البشر بالنسبة لهم هم بقدر آلاف النمل، لا قيمة لهم. فهذا الإنسان يقضي على آلاف النمل والنملات بكميّة قليلة من المحروقات، ويحرق آلاف البشر بأمرٍ واحدٍ يصدره، كأن يلقي عليهم قنبلةً واحدة. لن ندخل الآن في هذا الموضوع.

لا يدرك الإنسان للوهلة الأولى أهميّة الإنسان والاختلاف العميق بين الإنسان وغيره من الكائنات، ولكن عندما يدقّق فكيف سيكون الأمر؟ سيقول أوه يا للعجب! يوجد بين الإنسان وغيره من الكائنات هوّةٌ، وهي هوّةٌ عميقةٌ جدًّا! فما هي هذه الهوّة؟ وأيّة مميّزات يمتلكها هذا الإنسان بحيث تفصله إلى هذا الحدّ وإلى ذاك الحدّ عن الكائنات الأخرى؟ إنّها قوّة العقل ومعرفة الكلّيّات والاستنتاج من الجزئيّات؛ وهو الأمر الذي لا تفعله الأشجار ولا الأحجار ولا الحيوانات؛ إنّه الابتكار والإبداع. فلو لم يكن مثل هذا الإبداع عند الإنسان، لبقي دومًا عند حدٍّ معيّن كالكائنات الأخرى؛ ولقد ضربت في الجلسة السابقة من النحل مثالًا على ما نقول. إنّها قوّة الإرادة والعزم والاختيار والقيام بما يريد [التي يمتلكها الإنسان]،

بخلاف الكائنات الأخرى التي هي مضطرّة لاتّباع غريزتها، والتي تعمل وفق ما تمليه غريزتها عليها حيث لا يوجد في البين أيّة إرادة أو اختيار. أمّا الإنسان، فإنّه يستطيع أن يعمل بخلاف غريزته. فقد تقضي غريزة الإنسان بأن يأكل الآن، أو أن يتمكّن من إشباع شهوته الجنسيّة، فهذه غرائز في النهاية؛ لكن أنتم ترون أنّه يمكن أن يوجد إنسانٌ لا يشبع غريزته الجنسيّة ولو لمرّة واحدة طوال عمره وهو يقوم بالرياضات لمخالفة غريزته؛ ونجد إنسانًا يعيش على حبّة لوزٍ واحدة ولأيّام متمادية، فهذا الفعل لا يقدر عليه إلّا الإنسان، لأنّ الإنسان يمكنه أن يعملَ خلاف غريزته.

وباختصار، إنّ قوّة الفكر والاختيار والإرادة وقوّة الابتكار التي يمتلكها الإنسان، هي الأشياء التي ميّزته عن بقيّة الكائنات. وهكذا، يكون الإنسان من الأساس شيئًا آخر مقابل تلك الكائنات والموجودات. بالطبع، إنّ العلماء المادّيّين قد توصّلوا مؤخّرًا بدرجةٍ ما إلى هذا الأمر؛ وهم يقولون إنّ الإنسان هو أحد الأنواع المدهشة في عالم الكائنات، وإن لم يقولوا بوجود الاختلاف والتفاوت، لكنّه بالنسبة لهم نوعٌ مدهش. وإنّ جميع هذه المميّزات الموجودة في الإنسان إنّما كانت على أثر فيضان روح الله فيه، وهذا هو معنى تجلّي روح الله في الإنسان حيث يقول تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فيه مِنْ رُوحي﴾[(٣١)].

أجل، يتوجّه النبيّ فجأةً ويلتفت إلى شيءٍ هو أعلى من خلق الجامد والخالي، وهو خلق الإنسان وخلق العقل وخلق قوّة الفهم والإدراك، ومن أيّ شيءٍ نشأ ذلك؟ من علق، من الدماء المنعقدة والمتجمّعة. فمن أين وإلى أين؟ ما للتراب وربّ الأرباب؟ فكيف يمكن لشيءٍ ليس له روح وليس فيه قوّة التحرّك ولا فيه قوّة الفهم أن يتبدّل إلى آنشتاين مثلًا؟! أو أن يتبدّل إلى إنسانٍ عظيم؟! أو أن يتبدّل إلى سقراط وإلى متفكّر أو إلى فيلسوف أو نبيّ؟! فكيف يمكن ذلك؟! أليس ذلك كلّه سوى من صنع الربّ القويّ لهذا العالم؟ ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. لقد التفت نبيّنا ومنذ بداية الوحي إلى

(٣١) سورة **الحجر**، الآية ٢٩، وسورة **ص**، الآية ٧٢.

هذه النكتة المهمّة جدًّا. لاحظوا، إنّ الله يريد أن يحدث فيه تحوّلًا، ويضع في قدمه حذاءً من الفولاذ، وأن يعطيه عصًا من حديد لكي يذهب، وعندها لن يبقى للتعب بالنسبة له أيّ معنًى. فكانت هذه الكلمات تصنعه ومنذ البداية.

﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَم * الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

هنا يطرح على النبيّ قضيّة تعليم الإنسان؛ وأنتم تعلمون أنّه لو لم يكن القلم ولم تكن الكتابة لما حصل للبشريّة هذا الترقّي. فالذي يمكن أن ينقل تكامل أو تطوّر جيلٍ إلى الجيل الآخر، حيث يقوم الجيل الآخر بالاستفادة منه كسلّم للصعود، ويضع قدمه على درج تجربة الجيل السابق، ويصنع لنفسه تجربةً جديدةً لا شيء سوى القلم؛ مثلما أنّ الاكتشافات العلميّة والدراسات والأبحاث العلميّة التي حقّقها الجيل السابق، لو لم توضع بين يديّ الجيل اللاحق، لما استطاع هذا الجيل اللاحق أن يزيد عليها؛ فاعلموا ذلك أيّها الأعزّاء. فلو لم يكن كتاب أرسطو بمتناول يد أبي علي سينا[٣٢]، لما كان هناك أبو علي سينا كما هو، والذي هو أفضل من أرسطو مثلًا؛ ولو لم يكن الكتاب الفقهيّ للشيخ الطوسي[٣٣] مثلًا، أو للعلّامة الحلّي[٣٤]

(٣٢) أبو علي سينا (٣٧٠- ٤٢٨ قمري) وُلد في قريةٍ قريبة من بُخارى وقد تميّز بذكاءٍ خارق وتبحّر في العلوم المختلفة ومنها العلوم العقليّة والطب. كان له مؤلّفات في مختلف العلوم ومنها القانون في الطب والشفاء والفلسفة والإلهيّات والطبيعيّات والمنطق.

(٣٣) الشيخ أبو جعفر بن محمّد بن علي الطوسي (٣٨٥ ـــ ٤٦٠ ق.) والمعروف بشيخ الطائفة وُلد في طوس خُراسان. وسافر إلى العراق من أجل تحصيل المعرفة، وكان من تلامذة الشيخ المفيد والسيّد المرتضى علم الهدى. للشيخ الطوسي مؤلّفات كثيرة ومنها كتاب **تهذيب الأحكام والاستبصار** الذي يُعدّ من الكتب الروائيّة الأساسيّة الأربعة عند الشيعة.

(٣٤) حسن بن يوسف الحلّيّ (٦٤٨ – ٧٢٦ ق.) وُلد من أسرةٍ علميّة. وتتلمذ على يد أساتذة كالمحقّق الحلّيّ والخواجة نصير الدين الطوسي، وتبحّر في العلوم المختلفة كالفقه والحديث والكلام والفلسفة والرياضيّات والهندسة ولُقّب بالعلّامة. وصل في سنّ الثامنة والعشرين إلى زعامة الشيعة ومرجعيّتهم بعد وفاة المحقّق الحلّيّ. من خلال مناظرات العلّامة مع علماء أهل السنّة، اختار أولغايتو الحاكم المغولي لإيران لنفسه مذهب التشيّع واختار لنفسه اسم محمّد عبد الله.

بمتناول يد الشيخ الأنصاري[٣٥] والميرزا الشيرازي[٣٦]؛ وهما أكثر غورًا من الماضين وأكثر علمًا ممّن سبقهم ألف سنة. فلو لم تكن هذه الكتابات بين أيديهم، ولو لم تكن نتاجات الدراسات والأبحاث تلك في متناولهم، فمن المسلّم أنّهم ما كانوا ليصلوا إلى ذلك الحدّ والمستوى، فهذا واضحٌ جدًّا إذًا. فالشخص الأوّل يمتلك خمس تومانات يعطيها إلى الشخص الثاني، والشخص الثاني يضيف عليها فتصبح عشر تومانات، فيعطيها للشخص الثالث الذي بدوره يزيد عليها خمس تومانات؛ فتصبح خمسة عشر تومانًا، وهكذا يصبح الشخص الثالث أكثر ثراءً من الشخص الأوّل لأنّه يمتلك خمسة عشر تومانًا، ولكن من أين له هذه التومانات الخمسة عشر؟! فلو لم يكن الشخص الأوّل، هل كان ليحصل على هذا المبلغ؟ وكذلك لو لم يكن الشخص الثاني، ما كان ليحصل على توماناته، كلّا وأبدًا؛ فإنّه ما كان ليصل إلى الخمس تومانات إلّا بشقّ الأنفس. فإنّ حاصل واكتشافات مَن سبق من الناس هو الذي يصل إلى الأجيال اللاحقة، وكلّ ذلك بأيّة وسيلة؟ إنّه بواسطة القلم وبواسطة الكتابة.

إنّ تعليم الإنسان بالقلم هو أعلى وأعظم بكثير من أصل الخلقة. ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَم * الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَم * عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ علّم الإنسان تلك الأشياء التي ما كان ليعلمها، فهي نعمٌ إلهيّة للإنسان؛ إذًا، على الإنسان أن يشكر هذه النعم. وعندما يعلّم الله الإنسان ويهديه ويعطيه القلم ويجعله

---

(٣٥) الشيخ المرتضى (١٢١٤ – ١٢٨١ ق.) ينتهي نسبه إلى جابر بن عبد الله الأنصاري ووُلد في مدينة دزفول. رأت أمّه قبل ولادته الإمام الصادق (ع) وقد أهداها مصحفًا مذهّبًا. وبعد تحصيله الابتدائيّ في دزفول توجّه إلى كربلاء وتتلمذ على يد علماء كبار كالشيخ موسى كاشف الغطاء والسيّد محمّد المجاهد والحاج الملّا أحمد النراقي. تصدّى لمرجعيّة زعامة الشيعة بعد المرحوم صاحب الجواهر. وما زالت آثاره الفقهيّة ككتاب **المكاسب** مرجعًا أساسيًّا للدراسات الحوزويّة.

(٣٦) الميرزا محمّد تقي (١٢٥٨ – ١٣٣٨ ق.) وُلد في مدينة شيراز. سافر إلى حوزة كربلاء من أجل تحصيل العلوم الدينيّة واستفاد من محضر آية الله محمّد حسن الشيرازي الذي عُرف بتحريم استعمال التنباك. وصار مرجعًا للتقليد بعد وفاة آية الله السيّد محمّد كاظم اليزدي. ورغم كبر سنّه، وقف في الصفوف الأماميّة للجهاد ضدّ الاستعمار الإنكليزيّ ودعا الشعب العراقيّ بفتواه التاريخيّة للجهاد والصمود. وقد أدّى هذا الجهاد في النهاية إلى أن يتحرّر العراق من سلطة الإنكليز. وكان عبد الكريم الحائري من جملة تلامذته.

عاقلًا ويعلّمه، يجب على الإنسان أن يتّجه نحو قمم المجد، ويعني ذلك أنّه لا ينبغي له أن يتسافل لحظةً واحدة، ولا يجوز لهذا الإنسان بعدها أن يعود ويشقى. فهل أنّ الأمر هو هكذا؟ إنّ الآية اللاحقة تجيب، وكأنّها تواجه توهّمًا مثل هذا التوهّم. لو أنّ الله خلق البشريّة على هذا النحو وربّاها وأعطاها القلم وتلطّف بها وأكرمها، لما كان ينبغي للإنسان أن يكون بهذا الشقاء والضلال والفساد وأمثالهم، فهل حدث مثل هذا الأمر؟!

كلّا، ليس كما تظنّ وتقول. فكيف كان وضع البشريّة؟ ﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ فكلّ ذلك الطغيان والعصيان والتمرّد هو من قبل هؤلاء الأفراد العاجزين والطواغيت في مقابل الرحمانيّين، حيث اصطفّوا وواجهوهم وأدّوا إلى تعاسة البشريّة؛ فذلك الطغيان هو الذي لم يسمح للبشر أن يصلوا إلى الهداية، وهو ذلك الطغيان والتمرّد والعصيان الذي لم يسمح للبشر أن يستفيدوا من الاستعدادات الربوبيّة إلى الحدّ الأقصى وأن ينشأوا ويتربّوا كما أراد الله لهذا الإنسان أن ينشأ ويتربّى؛ فالطواغيت لم يسمحوا بذلك، وعندما وجدوا أنفسهم مستغنين طغوا وتمرّدوا وخرجوا عن الطريق الإلهيّ.

لاحظوا هنا، إنّ ذلك أيضًا يصنع النبيّ؛ كالتوجّه إلى لطف الله، وعظمته وكرمه، وتعليمه، والتوجّه إلى أنّ الله خالق، والتوجّه إلى أنّ الله معلّم، وأنّه الأكرم، والتوجّه إلى أنّ الإنسانيّة لم تصل إلى ما كان ينبغي أن تصل إليه، ولم تصل إلى مفهوم ﴿كَلَّا﴾، وإلى تقصير الطواغيت. فالطغيان يحصل على أثر الإحساس بالغنى. فالغنى والاستغناء وجمع الثروة وتكديس الكنوز والثروات تجعل الرقاب تستعلي؛ وعندما تستعلي الرقاب، وتتشكّل القوى غير الإلهيّة، لن تصل البشريّة إلى المنزل المقصود والهدف النهائيّ. لاحظوا، هذه كلّها إلهاماتٌ إلهيّة في بداية البعثة؛ وهذه هي الشعلة التي أشعلت النبيّ.

كلّا، ليس كما تفرضون؛ فأنتم تتصوّرون أو تتوقّعون أنّ البشريّة قد

وصلت إلى عاقبتها الحميدة، ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى * إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ فهل سيكون لأولئكَ الطواغيت عاقبةٌ موفّقة؟! كلّا، فَإنَّ الرجوع سيكون إلى ربِّك، والعاقبة عنده، ونهاية الأمور إليه ولمصلحة الجبهة الإلهيّة، ولهذا الطريق الذي عيّنه ربّ العالم. وفي النهاية، سوف تصل هذه البشريّة إلى المقصد النهائيّ ولا شكّ في ذلك، ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾. ويوجد مطالب أخرى في هذه السورة الشريفة، انظروا إلى هذه المطالب كم تضمنّت وبيّنت من حقائق.

ثمّ هناك القسم الآخر من آيات ﴿وَالنَّجْم﴾ والتي تشير إلى التحوّل الباطنيّ في نفس النبيّ؛ ولا شكّ أنّ هناك آيات أخرى كثيرة، لم نجد ضرورة لنقلها جميعًا، وإن كان البحث بحثٌ دقيقٌ جدًّا، وأنا نفسي لم أصادف في الأبحاث التي كنت قد طالعتها أنّه تمّ تناول هذه النكتة بدقّة؛ لذلك كنت أودّ أن أوضّح المزيد عنها، لأنّ معرفتها مفيدةٌ في مجال التطبيق والعمل.

﴿بسم الله الرّحمن الرحيم، وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾، إنّ البحث هنا هو بالنجم حين نزوله. ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى﴾، والقضيّة، كما جاء في العديد من التفاسير، ترتبط بالمعراج - هذا وإن كانت تشير إلى التحوّل الباطنيّ للنبيّ وحالة تلقّي الوحي - ولكنّ سبب نزول سورة ﴿والنَّجْم﴾ هو أنّه كلّما [أراد النّبيّ] أن يبيّن لهم ما جرى معه في سفره الليليّ وسَفره المعراجيّ لم يكونوا يستمعون، والآية في هذا المقام تبيّن هذه القضيّة. ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى﴾، صاحب القدرةَ الكبيرة هو الذي قام بتعليمه. ﴿شَدِيدُ الْقُوى﴾ يعني أنّه شديدٌ وكثيرٌ من حيث القوّة والقدرة. ﴿ذُو مِرَّة﴾ يعني الذي يمتلك العقل والحكمة؛ وقد ذكر المفسّرون أنّها تشير إلى جبرائيل، حيث إنّ كلّ ما كان يقوله كان ينقله عن جبرائيل، وكان الله يعلّمه هذه الأشياء

بواسطة جبرائيل. ﴿فَاسْتَوَى﴾، كان يقف ثابت القدم عند تنزّل هذا الوحي الإلهيّ إليه.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾، الأعلى هو الذي يشير إلى ما هو معروفٌ من الأفق، فالرسول كان قد استقرّ في الأفق الأعلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾، ولعلّه يمكن تفسير قوله ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ على هذا النحو: أي أنّه استطاع أن يصل إلى أعلى مستوًى، وكما ذكرنا، فإنّ النبيّ قبل نبوّته، يكون بين الناس في أوضاع حياتيّة عاديّة رغم ما يتمتّع به من استعدادات هائلة وأعلى من العاديّة. ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ أي أنّه اقترب ثمّ ازداد قربًا. ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾، فمن الواضح معنى «الأعلى» و«الأفق»، فهذا المقام من مقامَاتَ النبيّ، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فلعلّه يمكن أن يُفسّر هذا الكلام حيث نقول مثلما ذكرنا سابقًا وهو أنّ النّبيّ كان في البداية، حينما كان بين الناس، يعيش حياةً عاديّة قبل النبوّة، ويتمتّع باستعدادات أعلى من الاستعدادات العاديّة، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾، فاقترب ثمّ اقترب. والمقصود هنا هو إشارة إلى أنّ النّبيّ كان قريبًا، ثمّ على أثر العبادات، والرياضات، والتدبّر، والتفكّر، وعلى أثر الألطاف التي اختصّه الله بها، أصبح أقرب إلى الله وصارت روحه قريبةً إليه تعالى، ثمّ أكثر قربًا، حتّى استعدّ لتلقّي الوحي؛ وقد قال البعض إنّ المقصود من «دنا» هو جبرائيل الذي اقترب من النبيّ، و«تدلّى» بمعنى تعلّق به، وبمعنى أنّه أوصل نفسه إلى الرسول حتّى يتمكّن من أن يوصل الوحي إليه. وعلى كلّ حال، لا يوجد فرق. لكنّ المعنى الأوّل هو بنظرنا أكثر قربًا وظهورًا. أمّا المعنى الثاني فقد ذكرته كإشارةٍ إلى أنّه يوجد معنًى ثانٍ، لكنّني أستحسن المعنى الأوّل.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، فإنّ النبيّ كان قد اقترب من الله واقترب إلى أن وصل إلى ما هو أقرب من مسافة قوسين. فلا تقولوا ماذا يعني ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ وما هي الخصوصيّة الموجودة فيهما؟ فافرضوا أنّ

القوس هو مسافة متر واحد، فهل تكون القضيّة بأنّه اقترب لمسافة مترين؟ فأين كان الله حتّى يصل النبيّ إلى مسافة مترين منه؟! كلّا، إنّ هذه تعبيرات كنائيّة واستعارة، فقد اقترب منه لا بلحاظ المكان؛ وإنّما المقصود بتعبيره: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، هو أنّه صار شديد القرب إلى تلك الدرجة التي لم يعد هناك بالإمكان أن يكون من هو أقرب منه، فروح النبيّ المقدّس صارت أقرب من القريب.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ إنّ مشاهدات قلب النبيّ لم تكن كذبًا بالنسبة له، فكلّ ما شاهده كان صحيحًا ولم يقع فيه أيّ خطأ. ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾، فلمَ تجادلونه بما كان يرى؟

أجل، فبعد أن تصبح دوافع النبيّ الباطنيّة والذاتيّة سببًا لتغيير طريقه ويأخذ سعيه في الحياة صبغةً جديدة ويسعى بجدٍّ وجهاد دائمين، فلماذا يسعى؟ إنّ ذلك من أجل أن يتحقّق في المجتمع وعلى متنٍ الحياة البشريّة بعثةٌ وتحوّلٌ من الجذور والأساس. فبعد أن أوجد في نفسه هذا التحوّل، سيسعى لتحقيق هذا التحوّل في المجتمع، وهذه هي مسؤوليّة الرسالة والنبيّ إنّما كانا لأجل هذا الأمر.

الجلسة السادسة عشر: البعثة الاجتماعيّة للنبوّة

الجمعة، ١٧ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[٣٧].

(٣٧) سورة **القصص**، الآيتان ٥ و٦.

يوجد مطلبٌ بين أيدينا يُستفاد من ذيل هذه الآيات، سوف نبحثه بالاستعانة بهذه الآيات وآيات من سورة **الصفّ**، وقد وجدنا أنّ أفضل عنوان لهذا المطلب هو «البعثة الاجتماعيّة للنبوّة».

بالطبع، إنّ عملنا هو أن نشرح البعثة الاجتماعيّة للنبوّة ونبيّن ماهيّتها. ولقد سمعتم مقدارًا من مقدّمات هذا الحديث في الجلسات السابقة، حيث قلنا إنّ البعثة تبدأ بوجود وتحقّق انبعاث وفوران في باطن النبيّ مع بدء الوحي في قلبه. هذا النبيّ الذي يكون عبدًا اختاره الله وعيّنه لأجل رسالة ومسؤوليّة وعهد عظيم وثقيل نظرًا لما لديه من استعدادات عميقة وفيّاضة، فبعد أن ينزل الوحي الإلهيّ على مثل هذا العبد يتحقّق في روحه وفي باطنه نوعٌ من الانبعاث والفوران وتتحقّق ثورةٌ في روح هذا النبيّ؛ فنجد أنّ بعثةً حقيقيّةً تتحقّق في حياته العاديّة: في ذهابه وإيابه، وفي توجّهاته الاجتماعيّة، وباختصار في كلّ وجوده؛ إنّها ثورةٌ بكلّ ما للكلمة من معنًى؛ فالإنسان الذي كان قبل الوحي لا يعود ذلك الإنسان نفسه بعد الوحي بساعة أو يوم. وما يكتبه بعض الباحثين الذين لا يؤمنون بنبيّ الإسلام من هؤلاء المستشرقين بشأن حياة النّبيّ - ولعلّ بعضهم لم يكتب ذلك عن نوايا سيّئة أو أغراض، لكنّ البعض الآخر من المسلّم أنّهم كانوا مغرضين - عن أنّه (ص) كان يطالع ويفكّر ويتدبّر طوال حياته قبل البعثة، وأنّ هذه التأمّلات هي التي أوصلته إلى هذه الثورة وأوجدت فيه هذا التحوّل، إذا أخذنا هذا الكلام بظاهره، فهو خطأ وكذب إلّا إذا كان مقصودهم شيئًا آخر.

إنّ النبيّ لم يصل إلى الثورة والدعوة الإسلاميّة على أثر التفكّر والتدبّر، بل بعدما تحقّقت هذه الدعوة وهذا الوحي وهذه البعثة في وجوده أصبح موجودًا آخر وإنسانًا مختلفًا وصار في وضعيّة أخرى؛ وليس الأمر منحصرًا بهذا النبيّ بل يشمل جميع الأنبياء من قبله. فعندما كان موسى يسير بزوجته وابنه في الصحراء، كان سفره سفرًا عاديًّا، وفي تلك اللحظة الحسّاسة التي نزل فيها عليه الوحي الإلهيّ نسي موسى كلّ شيءٍ آخر عند

ذلك. ففي ذلك الوقت الذي يشعر فيه النبيّ موسى بالرسالة يكون قد أصبح إنسانًا آخر غير ذلك الإنسان الذي كان عليه قبل لحظة، فقد وُجد في نفسه حماسٌ وانبعاثٌ وفورانٌ مختلف؛ أمّا ذاك الذي لا يعتقد بالنبوّة وبالبعثة وبالوحي وبرابطة الأنبياء بعالم الغيب ويتفوّه بذلك الكلام، فإنّ كلامه هو كلامٌ يصدر عن مستشرقٍ ملحدٍ أو مغرض، ثمّ يأتي مؤلّفٌ قليل الاطّلاع وعديم التحقيق وغير مغرضٍ ويكرّر مثل ذلك الكلام في كتابه ومؤلّفاته ومقالاته.

وعلى أيّ حال، فإنّ البعثة هي عبارة عن ذلك الانبعاث والثورة والتحوّل والتغيّر - وأيّ تعبيرٍ ترغبون بوضعه إلى جانب هذه الألفاظ - الذي يحدث في وجود النبيّ المختار. وبعد أن تحصل هذه الثورة في باطن [النبيّ]، فإنّ الدور يصل إلى تلك الثورة المرتبطة بالبيئة الخارجيّة والمحيطة به؛ فذاك التحوّل الذي وُجد في روح النبيّ يجب أن يتحقّق بشكلٍ معيّن أو وضعٍ خاصّ في عمق الواقعيّة الاجتماعيّة، وهذا هو ما أطلقنا عليه عنوان «البعثة الاجتماعيّة للنبوّة». بالطبع، بعد أن أشرح وأفصّل بشأن هذا التحوّل في يومنا هذا إن شاء الله، سيصل الدور إلى أبحاث أخرى في مجال النبوّة. وهنا نجد أنّ تلك الأبحاث التي سيصدف أن تُطرح لاحقًا، هي أبحاثٌ غايةً في الأهميّة وترتبط بشأن هدف الرسالة والنبوّة، فنتساءل حول الهدف والمقصود والدور الذي ينبغي أن تؤدّيه هذه البعثة الاجتماعيّة، وسوف نتناول هذا الأمر ضمن بحثٍ أو بحثين في الجلسات الآتية. بالتأكيد، هذا يستتبع مسائل أخرى أيضًا سوف نتطرّق إليها ونعرضها عليكم أيّها الإخوة والأخوات، فيما لو أُعطينا العمر والفرصة لذلك.

ماذا يمكن أن يُقال عن هذه البعثة التي نتصوّرها ونضعها بحسباننا والمختصّة بالنبيّ؟ يوجد مفهومٌ جديدٌ لكلمة الثورة في عالمنا اليوم وفي الثقافات الحديثة والمعاصرة، وهذه الكلمة كلمةٌ مفهومةٌ وواضحةٌ وذات معنًى. بالتأكيد، من الواضح جدًّا أنّ المقصود من كلمة الثورة هو ذاك

التحوّل والتغيير العميق والجذريّ في أيّ مجتمع؛ ولا يعني ذلك بالضرورة أن يشتمل مفهوم الثورة على التصادم، ولا يستلزم لفظ الثورة بالضرورة إراقة الدماء والمجازر، كما أنّه لا يستدعي حتميّة حصول المشاحنات والخلافات؛ فمن الممكن أن يحصل الشجار والصدام، ومن الممكن أن يكون هناك اضطرابات، ولكنّ كلمة الثورة بذاتها لا تحمل هذا المعنى.

فلو أردنا أن نشرح لكم أيّها الإخوة المعنى المستفاد من الثورة ضمن مثالٍ صغيرٍ وسهلٍ ومحسوس فإنّنا نقول: افرضوا أنّ لهذا المسجد وضعيّة خاصّة في شكله وبنائه وجدرانه وعمارته وهندسته وأنّ أسسه قد وُضعت بهذه الطريقة وأنّ أعمدته صُنعت بشكلٍ خاصّ، وأنّ بناءه قد جُعل مستطيلًا بحيث يكون من الناحية الشرقية بهذا الحدّ، ومن الناحية الغربيّة بذاك الحدّ، ويكون مدخله بنحوٍ محدّد أيضًا دون أن يتمّ تقسيمه من حيث التقسيم الداخليّ إلى حجرات؛ فلو أرادوا على سبيل الفرض أن يبدّلوا باحة المسجد وقاعته الأساسيّة إلى عمارة سكنيّة فلا شكّ بأنّهم سيضطرّون إلى هدم تلك الأوضاع وإعداد الأساسات والأعمدة بطريقة أخرى، ولو أرادوا أن يقسّموا هذه القاعة الكبرى إلى عدّة غُرف مثلًا إلى خمسة أو عشرة أو عشرين غرفة ليحوّلوها إلى نُزُلٍ للمسافرين مثلًا، لا بدّ أن تكون الأساسات والقواعد والأعمدة بشكلٍ آخر؛ فلأنّ [هذا المسجد] قد أُعدّ لهذا النوع من التجمّعات فقد تمّ بناء أسسه وأعمدته وجدرانه بهذا الشكل الذي يتناسب مع هذا الدور.

ولو فرضنا على سبيل المثال أنّه تمّ اتّخاذ قرارٍ بتبديل بناءٍ تامّ البناء والعمارة، كأن أرادوا هدم فندق وتبديله إلى مسجد، أو افرضوا أنّ هناك عمارة لأحد البنوك يُراد تبديلها إلى قاعة للاحتفالات، أو أنّهم أرادوا تبديل بناءٍ سكنيٍّ إلى عمارةٍ لا تُستخدم لسكن العوائل، فماذا ينبغي أن يفعلوا؟ عليهم أن يبدّلوا جميع الأساسات والأعمدة والقواعد أوّلًا؛ فلا يصحّ أن يُقال تعالوا نعيد طلاءه ونجعل صورته من الخارج صورة مسجدٍ،

كلّا، فمثل هذا الأمر لا يصحّ، ولا يصحّ أن يُقال إنّنا سنجمع كلّ هذه الجدران الوسطيّة. افرضوا على سبيل المثال أنّ البنك الوطنيّ يُراد له أن يصبح المسجد الفلانيّ من أجل اجتماع المسلمين والصلاة والعبادة، فلا يصحّ القيام بمثل هذا الأمر، وذلك لأنّ طراز تأسيس البناء لم يكن من أجل عمارة مسجد. فإعداد هذا البناء ليكون مسجدًا يحتاج إلى أساسات وقواعد خاصّة وأعمدة مختلفة، مثلما أنّه يحتاج إلى عمارة الجدرانِ بطريقة تتلاءم مع المشروع الجديد ووفق تقسيمات وأسقف تحقّق الغرض. فلو أرادوا أن يبدّلوا بناءً أُعدّ لدورٍ محدّد إلى بناءٍ يؤدّي دورًا آخر يغايره بنحوٍ كلّيّ ولا يرتبط بالمقصد الأوّل، فلا بدّ لهم أن يقوموا بثورةٍ من أجل تحقيقِ هذا التبديل، أي تبديل البناء الأوّل إلى البناء الثاني. فماذا تعني الثورة؟ إنّها تعني تبديل الأسس والقواعد والأقسام الأساسيّة والهيكل العامّ لهذه العمارة إلى أسسٍ وقواعد وجدران وهيكلٍ آخر وشكلٍ مختلف؛ هذا ما يُسمّى بالثورة.

خذوا على سبيل الفرض أحد المجتمعات الذي يعيش فيه حوالي خمسين ألف إنسان أو خمسمئة ألف أو خمسين مليون نسمة، فلا فرق هنا، لأنّ المجتمع عبارة عن اجتماع مجموعة من الناس على خطٍّ ومسارٍ واحد ووفق برنامج عامّ حتّى ولو كان له صدرٌ وذيل (بداية ونهاية)، ولكنّ الطريق الكلّيّ هو طريقٌ واحدٌ ومسارٌ واحدٌ، فهذا ما يُسمّى بالمجتمع، أو بالوحدة الاجتماعيّة المترابطة. كما يمكن بناء مثل هذا المجتمع الذي يضمّ هذا العدد على نحوين - أرجو الدقّة هنا - نقول على نحوين ولكن بشكلٍ عامّ يمكن بناؤه على نحوين ويكون داخل كلّ نحو أنواعٌ وأقسامٌ أيضًا.

إذًا بشكلٍ عامّ، يمكن بناء أيّة مجموعة بشريّة على نحوين؛ يتحقّق من خلالهما الشكل الاجتماعيّ ويحصل. النحو الأوّل هو أن يكون بين هذا العدد من الناس الذين يعيشون في هذه البقعة الجغرافيّة - سواء كانوا خمسين ألفًا (أو خمسين مليون نسمة) - شريحةٌ أو طبقةٌ من الناس أو

أقليّةٌ تحكم وتتسلّط وتتولّى أمور البقيّة وتديرها؛ وهنا تقوم هذه الأقليّة بتعيين الطريق للآخرين وتضع لهم القوانين؛ ولو تصرّف بعض الناس خلاف ميولها، فإنّها تنزل بهم أشدّ النقمات. ولو قال لهم الناس إنّه يوجد حاجبان فوق أعينكما، فإنّ هذه الأقليّة ستتصرّف بشدّة وتقمع هذه الأقليّة. ولو أنّ حادثةً وقعت في هذا المجتمع، فإنّهم سيستغلّون تلك الحادثة لصالحهم وإن أدّت إلى الإضرار بالباقين. ولو حدث أنّ وقع هذا المجتمع أو تلك الجماعة من الناس في بلاءٍ معيّن، فإنّ هذه الأقليّة ستجعل من بقيّة الناس حصنًا ودرعًا لها مقابل البلاء وتجلس هي جانبًا؛ هذا نحوٌ من المجتمعات البشريّة. فالأساس في البنيان والهيكل العامّ لأيّ مجتمعٍ هو فيما إذا كان مثل هذا الاختلاف الطبقيّ سائدًا فيه أم لا.

ولو فرضنا مجتمعًا يوجد فيه هذا الاختلاف الطبقيّ - وإن كان مصطلح الاختلاف الطبقيّ بالنسبة لأسماع البعض يبدو مستهجنًا -، ولكنّه ما ذكرناه، فهو سهلٌ جدًّا وبسيط، وقد رأيتم كم هو سهلٌ أن نبيّن معنى الاختلاف الطّبقيّ، أي لم يكن جميع أبناء هذا المجتمع متساوين بلحاظ الحقوق، ولم يكونوا على مستوًى واحدٍ بلحاظ الإمكانات والمزايا المرتبطة بالحياة؛ وكانت هناك جماعةٌ منهمٍ تستطيع أن تحصل على المزيد والأفضل وتقول ما يحلو لها وتفرض قوّتها وتعمل إرادتها بالكامل وتفعل ما تريد؛ في حين أنّ جماعةً أخرى أكثريّة تكون مضطرّة لأنّ تمدّ أعينها إلى تلك الأقليّة وتصغي إليها وتطيعها وتغلّ أيديها مقابل تلك الأقليّة بل وتضع جباه السجود والخضوع على التراب في قبالها؛ فلو وُجد مثل هذا المجتمع، فإنّ هذا المجتمع يُعبّر عنه بالمجتمع الطبقي، ويكون الاقتصاد في مثل هذا المجتمع اقتصاد الطبقيّة؛ وتكون الحكومة أيضًا في مثل هذا المجتمع لصالح الطبقات العليا، وتكون حكومةً طبقيّة؛ وكذلك الأمر بالنسبة للحقوق الأساسيّة أو الدستور، فإنّهم يكونون أيضًا لصالح الطبقات العليا، فيكون الدستور دستورًا طبقيًّا أيضًا. هذا هو النحو الأوّل

من المجتمعات.

فالمجتمع الذي يحوي هذا العدد من الناس سواء كان ٥٠ ألفًا أو ٥٠ مليونًا قد يكون متشكّلًا على هذا النحو؛ وأحيانًا لا يكون على هذا الشاكلة. فما هو شكل المجتمع الآخر؟ في هذا المجتمع الآخر، الذي تعيش فيه مجموعة بشريّة قد تبلغ أكثر من ٥٠ مليون نسمة، لا يكون أحدٌ صاحب حقٍّ في التسلّط على غيره؛ ولا يكون الأمر محصورًا بطبقة عليا من الناس، بل لا يكون الأمر محصورًا بأحد، حتّى ولو كان شخصًا واحدًا. فلا تجد في مثل هذا المجتمع فردًا واحدًا إذا قلت له: يا فلان، لماذا تفعل هذا الأمر؟ فيقول: هكذا أرغب. فهذه الرغبة في التسلّط على الآخرين وإعمال الإرادة ليست موجودة في مثل هذا المجتمع؛ فلا أحد يتسلّط ويحكم ويستقوي ويعتدي ويتجاوز حدود أيّ شخصٍ آخر. وفي المقابل، لا يوجد أيّ معنًى لأن يشعر أيّ إنسانٍ مقابل غيره من أبناء هذا المجتمع بالخفّة والضعة والضعف والهوان والمظلوميّة. فجميع أبناء هذا المجتمع، من الـ٥٠ ألف وحتّى الـ ٥٠ أو الـ ٥٠٠ مليون يطيع أوامر قدرة معيّنة وتلك القدرة هي أعلى من قدرة الناس والبشر؛ فمن هي هذه القدرة؟ إنّها الله. هكذا يكون هذا النحو من المجتمعات.

فلدينا ها هنا نحوان من البناء الاجتماعيّ. البناء الاجتماعيّ الأوّل الذي يكون فيه الناس - كلّهم أو الأكثريّة منهم - عبيدًا وأسرى لمجموعة من الناس الآخرين؛ والثاني هو الذي يكون جميع الناس فيه أحرارًا من الأسر والقيود التي قد تفرضها أيّة قوّة أخرى. إذا قمتم بعمليّة حسابيّة، فكما أنّ الاقتصاد في النوع الأوّل [من المجتمعات] يكون لمصلحة تلك الطبقة العليا ولكلّ من ينتمي إلى هذه الطبقة ويلفّ لفّها، وتكون الحكومة بيد هذه الطبقة، وكذلك هو الأمر على مستوى الحقوق والامتيازات الأساسيّة في المجتمع؛ فإنّ الاقتصاد في النوع الثاني من المجتمعات - الذي هو المجتمع غير الطبقيّ والذي لا يتسلّط فيه أحدٌ على أحد ولا يفرض أحدٌ فيه إرادته

على أحد ولا يتحكّم فيه أحدٌ بأحد - يكون جمعيًّا، وتكون الحكومة بمعنى تسلّم مقاليد الأمور عامّةً وتكون بيد الجميع. فالحقوق الأساسيّة جمعيّة ولأجل الجميع؛ ويكون الأمر باختصار، بحيث إنّ كلّ شيء جيّد فهو للجميع، وأيّ شيء سيّئ يعود على الجميع؛ فلو أنّ أمرًا مؤلمًا أو مزعجًا حصل سيكون الجميع شركاء فيه، ولو أنّ خيرًا ما وقع سيكون الجميع شركاء فيه؛ وتكون الجنّة في هذه الحالة على الأرض.

إذًا، يُتصوّر ها هنا نوعان من المجتمعات. وما شرحناه وبيّنّاه لكم بشأن هذين النحوين من المجتمعات قد وُجدا وتحقّقا على مرّ التاريخ البشريّ. ففي النحو الأوّل، هناك مجتمعٌ طبقيّ يعمّ فيه الظلم والجور والاختلافات الطبقيّة والاستغلال والتحكّم وإعمال القوّة والتمييز، ويوجد نحوٌ آخر من المجتمعات غير الطبقيّة التي يعمّ فيها العدل والإنسانيّة والحرّيّة - وأريد أن أركّز ها هنا على الحريّة بالخصوص لأنّ بعض المجتمعات غير الطّبقيّة التي يتمّ الإشارة إليها في العالم هي مجتمعات فاقدةٌ للحريّة وفيها أشياء كثيرة بحسب ادّعائهم - وفي المجتمع غير الطبقيّ، تسود الرفاهيّة والحريّة بشكل خاصّ ولا يوجد أحدٌ عبدًا لأحد، ولا يكون أيّ شخصٍ رقّ لأحد، ولا يُضطرّ أحدٌ أن يستمع رغمًا عنه لأحدٍ. هذان هما النحوان من المجتمعات، وقد وُجد كلٌّ منهما عبر التاريخ البشريّ. ونرى أنّ المجتمعات التي هي من النوع الأوّل والتي ساد فيها التمييز الطبقيّ، هي مجتمعات أوجدها قياصرة العالم وأكاسرته وجبابرة التاريخ. أمّا الذي كان يشكّل المجتمعات التي كانت من النوع الثاني، عبر التاريخ، والتي هي مجتمعات حرّة وعامرة وفاقدة للتمييز ومجتمعات إنسانيّة، فهم الأنبياء الإلهيّون العظام. وقد تسألون هل أنّ الأنبياء شكّلوا مجتمعات؟ وفي الجواب، نقول أجل، لقد قام الأنبياء بإيجاد مجتمعات؛ ويوجد في القرآن دلالاتٍ كثيرة على عمليّة تشكيل الأنبياء للمجتمعات. فأحداث سليمان، ووقائعُ طالوت، وما جرى مع موسى ومجيئه إلى الأرض المقدّسة، وما قام به موسى من إخراج بني

إسرائيل وتحريرهم، فكلّ ذلك كان يدلّ على أنّه كان يريد أن يقودهم إلى تشكيل المجتمع والمدينة الفاضلة. ومثل هذه الأمور تمثّل موضوع الأبحاث يمكن أن نشير إليها لاحقًا، وأردت أن أكتفي هنا بإشارةٍ مختصرةٍ بهذا المقدار.

لدينا نوعان من المجتمعات، وكلًّا منهما قد تحقّق عبر التاريخ. فالنوع السيّئ هو الذي كانت تمثّله القوى السياسيّة المعادية للدين والذي كان العالم والتاريخ مليئًا به، وهو الذي يحكم العقل بقبحه، وكذلك الإنسانيّة تستقبحه. أمّا النوع الحسن، فهو الذي كانت تمثّله تلك القوى الإلهيّة والمعنويّة عبر التاريخ، وهم الأنبياء. ونحن نتساءل حول دور الأنبياء الذين كانوا يُبعثون في أيّ مجتمع، فنقول إنّ مجيئهم إنّما كان لأجل تبديل ذاك النوع الأوّل من المجتمعات إلى النوع الثاني؛ وهذا هو روح كلامنا في البحث الذي نتطرّق إليه اليوم.

يوجد في الغالب تصوّرٌ مغايرٌ حول الأنبياء وهو سائدٌ منتشر. يتصوّر الناس أنّ الأنبياء إذا ظهروا في أيّ مجتمع فسوف يكونون مثل ذلك الرجل الحكيم العالم الجليل الذي يحمل جبلًا من المعلومات ويتّخذ بيتًا في قلب المجتمع ويجلس في زاويةٍ من زواياه من أجل أن يأتيه الناس أفواجًا ويتعلّمون من علمه ويستفيدون من معدن فيضه؛ يتصوّر هؤلاء أنّ النبيّ يشبه مثل هذا الإنسان وهو على هذه الشاكلة. فلو جاء النبيّ على سبيل المثال إلى مجتمع ما، كإبراهيم خليل الله مثلًا، أو موسى كليم الله، فإنّه سيتّخذ لنفسه بيتًا ويجلس فيه ويعطي بعضًا من وقته للقاء المؤمنين وغير المؤمنين، وكلّ من يأتي إليه فإنّه يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويخوّف الناس من الله ويحدّثهم عن وجود الله ويستدلّ لهم ويباحثهم، فيصنع من مجموعةٍ منهم أناسًا طيّبين ثمّ يرتحل عن هذا العالم.

هم يتصوّرون أنّ النبيّ يشبه مثل هذا الإنسان. لكنّ النبيّ ليس كذلك؛ فهو عندما يُبعث في أيّ مجتمعٍ، وكما ذكرت بشأن البعثة، فإنّ أوّل ما

يحدث هو تلك البعثة وذاك التحوّل العميق في باطنه وفي روحه، حتّى إذا ورد المجتمع فإنّه لن يعرف التوقّف ولا الملل ولا الهدوء ولا الاستكانة؛ بل سيكون إنسانًا قد تبدّلت أعماقه إلى شعلة جوّالة[٣٨]، وإذا ورد ذلك المجتمع فإنّه يتطلّع إليه وإلى أوضاعه ويرى أنّ هذا المجتمع ببنيته هو مجتمعٌ خاطئٌ، وأنّ العمارة قد بُنيت بشكلٍ سيّئ، وأنّ أسسها خاطئة، وأنّ جدرانها وكلّ تصميمها غير صحيحٍ ومخالف للأسلوب المعماريّ للفطرة الإنسانيّة؛ فيعلم جيّدًا أنّه يجب أن يُبدّل؛ ويدرك أنّ هذه العمارة ينبغي أن تصبح عمارةً جيّدة، فماذا يعني ذلك؟ يعني أنّه يدرك بأنّ هذا المجتمع الطبقيّ الذي يسوده التمييز والظلم والاضطراب وفقدان القيم، هو مجتمعٌ ينبغي أن يُبدّل ويتحوّل إلى مجتمع توحيديّ.

فما هو هذا المجتمع التوحيديّ أيّها السيّد؟ لقد تحدّثنا عن التوحيد في الأبحاث السابقة وأشرنا إلى أنّ التوحيد ينفي الطبقيّة لأنّ التوحيد الإلهيّ يعني انحصار القدرة والحكومة بالله. والتوحيد الإلهيّ يعني أنّ كلّ الأشياء من القانون والعادات والآداب والثقافة والأحكام ينبغي أن تكون من الله على نحو الإلهام.

التوحيد الإلهيّ يعني أنّ جميع الناس هم عباد الله لا غير، وأنّه لا ينبغي لأحدٍ منهم أن يكون عبدًا لأيّ شخصٍ آخر. فالعباد أحرارٌ من العبوديّة لغيرهم من العبيد. وعندما يدخل النبيّ إلى المجتمع وهو يحمل هذا الفكر ويتّجه نحو هذا الهدف، فإنّه يقلب هذا المجتمع الطبقيّ بهذا الفكر الذي يدخله إليه، ويهدم المجتمع السابق ويقضي عليه ويبدّله إلى مجتمع توحيديّ خالٍ من الطبقيّة والتمييز والظلم، ليصبح في النهاية تحت حكومة ربّ العالم. إنّ النبيّ يأتي للقيام بمثل هذا الدور. ولو أردت أن أضرب مثالًا وأستحضر الشخصيّات المعروفة من غير الأنبياء، فلا بدّ أن أضرب مثلًا تلك الشخصيّات المعروفة التي يعلم عنها أهل المطالعة بنحوٍ ما، لكنّني لا

---

(٣٨) الشعلة الجوّالة عبارة عن قطعة خشبيّة يتمّ إشعالها من طرفين ويتمّ تدويرها بسرعة فوق الرؤوس.

أريد هنا أن آتي على ذكر الأسماء غير الدينيّة في الأبحاث الدينيّة لأنّنا سنضطرّ لوضع حدودها بدقّة.

إذًا يأتي [النبيّ] إلى المجتمع من أجل إيجاد مثل هذا التغيير؛ ولا أقول إنّه يأتي من أجل سفك الدماء، كلّا وأبدًا، ولا أقول من أجل القتل والقتال، كلّا، ولا أقول إنّه يأتي من أجل أن يوقع الشجار والنزاع فيما بين الناس، فمثل ذلك لا يكون في أيّ وقت ولا يمكن أن يكون هكذا. فإنّ كلمة الثورة والتغيير والتحوّل - كما ذكرت سابقًا - ليست في إراقة قطرة دم لأيّ شخص. من الممكن أحيانًا أن يحدث نوعٌ من سفك الدماء حتّى في الأعمال اليوميّة العاديّة للحياة، وربّما لا يحدث هذا. فلأجل أيّ شيءٍ وقعت الحرب العالميّة الأولى؟ لقد كانت بسبب اغتيال أحد الأمراء في زاويةٍ من زوايا العالم، فأدّت إلى اشتعال العالم بحربٍ ضروس حملت معها الموت الذريع؛ ألم يكن الأمر كذلك؟ وليّ عهد النمسا ولا أعلم وكذا وكذا من ذلك الكلام. فمن الممكن أن يكون لعمليّة اغتيالٍ صغيرة أثرٌ يؤدّي إلى إشعال العالم. وبالطبع، ففي الثورة من الممكن أن يحدث نوعٌ من سفك الدماء وإراقتها وربّما لا يحدث ذلك، لكن كلمة الثورة بذاتها لا تحمل معنى سفك الدماء والقتل والشجار والنزاع أيضًا.

فلو أنّ النبيّ عندما يدخل مجتمعًا ما ويقول كلمته الثوريّة، كأن يقول لفرعون لا ينبغي أن تكون في مقامك هذا، ولا ينبغي أن تفعل ببني إسرائيل ما كنت تفعل، ولا ينبغي أن توجد تلك الطبقات الاجتماعيّة المختلفة؛ فلو أنّ فرعون قال له أو أجابه عندما قال له ذلك: على عيني وأنا مستعدّ لأن أستمع إلى ما تقول وسوف أقوم من مقامي - حيث كان من المقرّر أن يقوم النبيّ ببناء المجتمع بواسطة أيدي الصنّاع المقتدرين داخل المجتمع - فإنّه لم تكن لتتحرّك قطرة دماء واحدة من مكانها. فالسبب الذي أدّى إلى النزاع والحرب في ثورات الأنبياء، وكما يقول الله في القرآن: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ

نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[٣٩] فما أكثر الأنبياء الذين قاتل معهم عباد الله وكانوا في رَكابهم؛ أو كما نعلم من تشريع الجهاد في الإسلام، فذلك لأنّ تلك الطبقة المترفة وتلك الطبقة التي تكون رأس حربة الثورة موجّهة ضدّها وتُسلب الامتيازات منها لا تكون مستعدّةً لهذه الثورة.

فلو أنّ كلّ الذين وقفوا مقابل الأنبياء ودعوة الرسل، أصبحوا أناسًا وأدركوا الحقيقة في الواقع، وأصبحوا مثل الكثير من الشخصيّات السياسيّة والاقتصاديّة والماليّة العظيمة في التاريخ التي حدث لها ذلك التحوّل الكبير والجميل في الروح وتبدّلوا إلى أشخاص عاديّين، فلو أنّهم سلّموا وتنازلوا عن ذلك الجاه، لما اضطرّ النبيّ أبدًا لمثل هذا القتال والحرب وأمثالها.

فعندما يدخل النبيّ أيّ مجتمع، فإنّه يأتي ليحدث هذا التحوّل. فهو يأتي من أجل إيجاد هذا التغيير. فماذا يعني هذا الفعل؟ إنّه يعني أنّ النبيّ لو دخل المجتمع العربيّ في زمانه على سبيل المثال، فإنّه سيقول: لماذا ينبغي أن تكون موارد الثورة في هذا المجتمع وكلّ هذه المنابع المتدفّقة للمال بيد أقليّة من الأرستقراطيّين؟ لماذا؟ ولماذا ينبغي أن يكون الجميع عبيدًا وغلمانًا لأهواء السادة والكبراء؟ ولماذا يجب أن يسقط الضعفاء ضحايا الميول والغرائز المختلفة لأمثال الوليد بن المغيرة وأبو جهل وأبو لهب، لماذا ذلك؟ فلماذا لا يكون الجميع على مستوًى واحد؟

«النّاس سواسية كأسنان المشط»[٤٠]، فلو أخذتم مشطًا ونظرتم من أوّله إلى آخره لوجدتم أنّه لا يختلف أيّ سنٍّ من أسنانه عن السنّ الآخر ولا يتميّز عنه، فالكلّ سواسية وفي نفس الحدّ والمستوى والحجم والشكل، فما أجمل ذلك! وهكذا تكون الإنسانيّة، هذا هو نداء النبيّ: كلّكم من آدم وآدم

---

(٣٩) سورة **آل عمران**، الآية ١٤٦.

(٤٠) صدر الدين شرف الدين، **حليف مخزوم (عمّار بن ياسر)** (دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة ٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م)، الصفحة ٥٥.

من تراب[٤١].

فلماذا ينبغي لذاك الوجيه، الذي أشاد قصرًا في تلك المحلّة من مكّة، أن يتنعّم بالطعام والشراب، وأن يحتكر التجارة، وأن يكون الآخرون عنده كالعبيد ورعاة الإبل، وأن يستغلّ كلّ هؤلاء، ويحدّد كيفيّة توزيع مقدّرات مكّة؟ فذاك الوجيه الفلانيّ مع كلّ هذه الخصائص لا يختلف أبدًا مع ذاك العبد الوضيع في بيته، فلا فرق بينهما من الأساس من ناحية العنصر والجوهر الإنسانيّ؛ فهما بلحاظ العنصر والجوهر الإنسانيّ متساويان، ولا يوجد بينهما أدنى تفاوت؛ فلماذا ينبغي أن يكون الميدان بالنسبة لهذا واسعًا إلى هذا الحدّ ليستفيد منه ما يشاء، بينما لا يحقّ لذاك المسكين أن يضرب بجناحٍ واحدٍ ذلك القفص؟ لماذا؟ ينبغي أن يكون الميدان مفتوحًا أمام الجميع، وهذه هي دعوات النبيّ، كما تلاحظون.

إنّ الأنبياء، وأينما ظهروا وفي أيّ مجتمع كانوا، يظهرون ويخرجون بهذه الدعوة وبهذا الشعار، وهو أنّ النبيّ يأتي من أجل أن يبدّل المجتمع ويخرجه من بنيته الخاطئة وشكله غير المتوازن ومن ذاك البناء المتوائم مع الظلم والجور، إلى مجتمعٍ متوازنٍ ذي شكلٍ جميلٍ وهيئة عادلة، هذا هو المطلب الأوّل. إنّ بعثة النبوّة هي هذه. فعندما يُبعث نبيٌّ في مجتمع ما ويظهر فيه، عليكم أن تعلموا سرّ هذا الظهور. وبشكلٍ عامّ، لا يوجد نبيٌّ أتى فقط من أجل أن يبيّن للناس مجموعة من القضايا الفرعيّة والجزئيّة للحياة.

بالطبع، كان هناك أنبياءٌ عظام، نحن نسمّيهم بالأنبياء أولي العزم ونعرفهم بهذا العنوان، وقد كانوا أقطاب الثورات الإلهيّة. أمّا الأنبياء الآخرون، فبعضهم قد جاء ليتمّم تلك الثورات، وبعضهم الآخر كان تابعًا لها، وبعضهم جاء من أجل أن يوصل تلك الأعمال إلى ثمرتها؛ وهناك بعضٌ آخر أراد أن يرجع تلك الثمار التي تحقّقت بعد الثورات إلى سابق عهدها؛ وكلّ ذلك كان يتطلّب ثورةً جديدة. وهذا هو العمل نفسه الذي

---

(٤١) المصدر نفسه.

قام به أوصياء نبيّنا بعد رحيله، من أمير المؤمنين والإمام الحسين والأئمّة الآخرين وعلماء أمّة الإسلام، وفي النهاية سيكون عمل صاحب العصر والزمان وليّ العصر صلوات الله وسلامه عليه.

ويوجد مطلبٌ آخر في مجال هذه البعثة ينبغي أن نتوجّه إليه، فنسأل نحن: أيّها السيّد ما هو الإشكال في أن يكون النظام الجاهليّ مستتبًّا وأن لا يُقام النظام العادل؟ فما هو المانع من أن لا يبدّل النبيّ هذا الوضع الخاطئ إلى وضع جميلٍ وحسن، ويتحمّل كلّ ذلك العذاب والألم والأذى؟ فما هي المشكلة في أن يبقى كلّ شيء كما هو؟ ولماذا يُعدّ ذلك الوضع سيّئًا؟ لماذا تكون تلك الأوضاع قبيحة؟ وأيَّ حقٍّ موجودٍ هنا حتّى تتّخذوه مقياسًا؟ الحقّ لمن غلب. فكلّ غالبٍ وكلّ من يحصل على القدرة فهنيئًا له. فذاك الذي لا هم له سوى المعلف فليذهب إلى الجحيم. فما لم يرد أن يحدث فليحدث؛ وإذا كانت الأوضاع هكذا، فليدع الأمور كما هي، وليفعل أولئك ما يريدون من غاراتٍ ونهبٍ، فلماذا على النبيّ أن يوقع نفسه في كلّ هذه المشقّات؟

ويوجد سؤالٌ آخر، فمن الممكن أن تقولوا: إنّ النبيّ لا يتحرّك بدون هدف، والنبيّ لا يوقع نفسه بكلّ هذه المشقّات عبثًا وجزافًا؛ فإنّ كلّ ما يراه من الأوضاع السائدة في زمانه هو وضعٌ باطلٌ ومخالفٌ للفطرة الإنسانيّة والعالميّة، وإنّ كلّ ما يريد أن يحقّقه هو وضع الحقّ، أي المطابق للفطرة الإنسانيّة والعالميّة. فـ«الحقّ» و«الباطل» كلمتان تصادفونهما كثيرًا في كلّ القرآن، في الموارد التي يأتي على ذكر الاصطفاف ما بين الحقّ والباطل نجده مجسّمًا ومشخّصًا في عشرات الآيات القرآنيّة، فماذا يعني الحقّ والباطل؟ لقد ذكرنا ها هنا مطلبًا بشأن توضيح الحقّ والباطل، وقلنا: أيّها السيّد إنّ الإنسان هو كائنٌ نراه يسير في هذا العالم على هذه الشاكلة وفي هذا القالب وقد صُنع وبُني وفق مجموعة من الخصائص، فللإنسان خصائص معيّنة وإمكانات وله احتياجاتٌ؛ فهو موجودٌ يتمتّع بمقدارٍ معيّن

من الخصائص والإمكانات الخاصّة بذاته. فاحفظوا هذا الأمر ها هنا.
ولهذا العالم، الذي يعيش فيه هذا الإنسان، حركةٌ؛ وقد بُني على أساس جهة معيّنة ووفق شروط خاصّة وخصائص معيّنة أيضًا. فكلّ شيء في هذا العالم، الذي تنظرون إليه وترونه بأعينكم، قد وُضع في مكانه؛ فشمسه التي تبعد ملايين الفراسخ عن الكوكب الفلانيّ، وإنسانه مع نباتاته وحيواناته ليس لهم بحسب الظاهر أيّ ارتباط فيما بينهم؛ أمّا في الواقع، وبنظر العارف بالله والذي يعبد الله، فهو عبارة عن وحدة لا تتجزّأ؛ فكلّ هذا العالم هو عبارة عن شيءٍ واحدٍ، وأجزاء هذا العالم هي أعضاء جسدٍ واحد؛ ومثلما أنّ الجسد الواحد له حركةٌ متجانسة ما بين جميع أجزائه، فإنّ هذا العالم هو أيضًا كذلك.

إنّنا نجد للمعدة في كلّ إنسان عملًا معيّنًا، وللعين عمل وللكبد عمل وللدماغ عمل وللأعصاب، ولكنّ حصيلة مجموع هذه الأعمال كلّها هو أمرٌ واحدٌ ومشتركٌ؛ ونحن نسأل: ما هو هذا الأمر المشترك؟ إنّه إبقاء الإنسان على قيد الحياة، وتأمين التحرّك والسعي، والاستمرار في منح الحياة لهذا الإنسان. فإنّ ما تشاهدونه عند التأمّل في هذه الحصيلة المرتبطة بجميع هذه الحركات في هذا العالم من الأعلى إلى الأسفل، وفي هذه الكرة الأرضيّة وفي غيرها من الكرات، يكون أيضًا على مستوى المجموع شيئًا واحدًا ولإيجاد حركةٍ واحدة. إنّ موجودات العالم الأخرى وكائناته غير الإنسانيّة ولأنّها لا تمتلك شعورًا وليس فيها إرادة واختيار، تتقدّم في هذه الحركة العامّة وضمن هذا المسير شاءت أم أبت؛ أمّا هذا الإنسان الذي يمتلك الاختيار، والذي يمكنه أن يعصي ويخالف ويتنكّب عن قافلة موجودات هذا العالم ويخرج عن مسارها ويتحرّك بعكس الطريق، فهذا الإنسان هو وحده الذي يمكنه أن لا يسير وراء هذه القافلة التي ذكرنا أنّها مجموع كائنات العالم والتي تسير باتّجاه واحد، إنّه الإنسان وحده. أمّا باقي الموجودات، فإنّها وإن خرجت وقتًا ما عن مسيرها الطبيعيّ، فإنّ الإنسان هو الذي يكون قد

أحدث هذا الإخراج. فلو أنّ اليورانيوم شُطر وصُنع منه قنبلةً نوويّةً وأُلقي على الملايين لقتلهم عوضًا عن أن يُستخدم لمعالجة أمراض آلاف البشر، فإنّ ذلك يكون بيد الإنسان. واليورانيوم نفسه لا يمكن أن يتعدّى أو يتجاوز هذا المسير الطبيعيّ للعالم، بل إنّه كغيره من الكائنات يتحرّك وفق هذا الطريق العاديّ. ولو أنّ مادّة الـL.S.D[٤٢] التي ينبغي أن تُستخدم لمعالجة الأمراض جُعلت كمادة مخدّرة وتناولها شابٌّ فهلوس وغفل عمّا يحيط به وغاب عن هذا العالم، فإنّ ذلك لا يكون من تقصير النبتة الفلانيّة أو تلك المادّة التي استُخدمت لصناعتها، بل يكون من تقصير هذا الإنسان.

ففي هذه القافلة التي بيّنّاها لكم، والتي تكون الشمس والأرض من أجزائها، تتحرّك المجرّات والكائنات الصغيرة والهائلة العملاقة - التي تمثّل كلّ واحدة منها عناصر وأجزاء هذه القافلة الكبيرة - على طريقها وتتقدّم في هذا العالم الواسع. أمّا الذي يقوم أحيانًا بالانحراف عن الطريق ويسير بالعكس وإلى اليمين وإلى اليسار فهو هذا الموجود الشيطانيّ، وهذا الكائن المتحرّك والفعّال الذي يمتلك الاختيار؛ وفي بعض الأحيان، فإنّه يأخذ بيد بعض الكائنات الأخرى التي لا لسان لها ويلحقها بنفسه؛ فنجده يسخّر اليورانيوم والـ L.S.D والمورفين ليسيروا خلفه، ويجعل هذه المواد تابعةً له. فالمورفين الذي ينبغي أن يكون من أجل نفع الإنسانيّة يصبح عاملًا للإضرار بها، وتلك النبتة الفلانيّة التي كان ينبغي أن تساهم في شفاء الإنسان تتحوّل إلى مادّة قاتلة، وهي لا تقوم بذلك بنفسها وإنّما فعلت ذلك بواسطة هذا الإنسان الذي تنكّب عن المسير وأخرجها عنه. فللإنسان مثل هذه الخصوصيّة.

ولأنّ للإنسان مثل هذه الخاصّيّة، أي امتلاك الاختيار والإرادة، فبإمكانه أن يبدّل مسيره. ولأنّه على هذا النحو، فينبغي أن يعيّن له القانون

---

(٤٢) دواءٌ تمّ اكتشافه أثناء أبحاث أحد العلماء السويسريّين عن طريق الصدفة، ومن عوارض تناوله حصول حالات الأوهام والاضطرابات الكاذبة. وبعد أن اختفى وتوقّف استعماله لمدّة عادت مجدّدًا للرواج عن طريق الجماعات الهبيّة في أمريكا.

ويُشخَّص له طريق السير ويُقال له: يا فلان عليك أن تتحرّك على هذا الطريق لكي لا تتنكّب عن هذه القافلة في مسيرها العامّ. فلو أنّك جاوزت خطّ المسير هذا، وخرجت عن هذه الخطّة التي رسمناها لك، فاعلم أنّك قد خرجت عن مسير هذه القافلة؛ فماذا يعني هذا الأمر؟ إنّه يعني شيئًا واحدًا وهو ضرورة وجود القانون للإنسان. فهذا القانون الذي يتطابق مع خطّ سير الحركة الجمعيّة لكائنات العالم يُسمّى - إذا أردتم أن تستعملوا لفظًا محدّدًا - الحقّ.

إنّ الحقّ يعني ذلك القانون الذي يتطابق مع أصل خلقة العالم، ولأنّه يتطابق مع هذه الخلقة الأصليّة، فإنّه ينسجم أيضًا مع فطرة الإنسان. ولأنّ الإنسان بدوره هو أحد أجزاء هذا العالم، ولأنّه يمثّل أحد أجزاء الهيكل العظيم، ولأنّ القانون يتطابق مع فطرته ومع خلقة العالم، فإنّ مؤدّى هذا القانون هو خير هذا الإنسان وصلاحه.

فما هو الباطل؟ إنّ الباطل هو ذلك المسير، أو ذلك القانون الذي وُضع وجُعل وطُبّق، أو ذلك الطريق والعادات التي تخالف فطرة الإنسان والعالم. إنّ الباطل هو ذاك الشيء الذي يصنعه المستبدّون والشياطين وأولئك الذين يريدون أن ينحرفوا عن هذا المسير. وقد كان الأنبياء دومًا يأتون بالحقّ من أجل إزهاق الباطل. فذاك المجتمع الذي يصنعه فرعون ويقسّم فيه الناس إلى طبقات، ويمارس كلّ أنواع الضغوط على طبقة منهم، ويحافظ على طبقة في غاية الرفاهيّة ويظلم بها الآخرين؛ فإنّ ذاك الوضع والنظام وتلك المقرّرات وذلك الشكل الاجتماعيّ هو هيئةٌ باطلة. إنّ الأنبياء يأتون من أجل تهديم هذه الهيئة الباطلة، ويأتون من أجل أن يزيلوها ويقضوا عليها ويقيموا الحقّ بدلًا منها. فما يتحمّله الأنبياء من أذىً وكدحٍ هو من أجل الحقّ، وذلك لأنّ الحقّ هو الذي يقول له ويطالبه.

إنّ كلّ ما يتحمّله النبيّ ويعانيه هو من أجل الحقّ، إنّه يكون من أجل الاستبدال بالحقّ وإحلال الحقّ مكان الباطل، وهذا ما جعل الأنبياء لا

يتوقّفون لحظةً واحدةً عن السعي ولا ينسون دورهم هذا؛ ولهذا ما كانوا ليستقرّوا أو يتوقّفوا عن النضال. إنّ القضيّة هي قضيّة إحلال الحقّ مكان الباطل، هذا هو التفسير والتحليل الذي يرتبط بعمل الأنبياء.

وهكذا، نختصر كلامنا ونقول: إنّ الأنبياء أرادوا تبديل النظام الجاهليّ - ذلك لكونه نظامًا طبقيًّا وظالمًا ومستغلًا وغير إنسانيّ ويحتوي على الكثير من القضايا السّلبيّة، والتي تكون كلمة الجاهليّ أفضل كلمة معبّرة عنه؛ فالجاهليّة هي ذلك النظام الظالم المنافي للفطرة وغير الإنسانيّ - إلى نظام إلهيّ وإلى بيئة اجتماعيّة توحيديّة. إنّهم يريدون تبديل المجتمع ليكون تحت حكم الله ولا يتّبع حكومة الأهواء؛ فهذه هي حصيلة أعمال الأنبياء. يأتي الأنبياء من أجل تبديل النظام الاجتماعيّ المنحرف إلى نظام اجتماعيٍّ صحيح، ويكون شعارهم التوحيديّ من أجل هذا الهدف، ويكونُ كلّ كفاحهم ونضالهم ضدّ الطواغيت على هذا الطريق.

ومن أجل ذلك، قام الطواغيت بمواجهتهم ومحاربتهم. ويكون هذا الأمر أحد فصول هذا الحديث المتسلسل؛ وإن شاء الله يمكن أن يأتي يومٌ نتعرّض فيه للحديث حول ماهيّة الطبقات التي عارضت الأنبياء وواجهتهم وحول الدوافع التي حملتهم على هذه المعارضة والمخالفة. لقد اخترت مجموعة من الآيات من سورة **القصص** وهي تدلّ على هذه الحالة وتفصّل فيها. إنّها تشير إلى الوضع الجاهليّ للحكومة الفرعونيّة والمجتمع الفرعونيّ والحالة الاجتماعيّة التي أراد موسى أن يحقّقها بدلًا عن الحالة الفرعونيّة، وأثناء تشخيص الوضعين المتقابلين، تقدّم لنا بشارةً لأولئك الذين يتحرّكون باتّجاه الحالة الموسويّة؛ إنّها تبشّر بأنّ إرادة الله هي التي ستتحقّق في نهاية الأمر وأنّ موسويّي العالم، أي الموحّدين في كلّ هذا العالم والإلهيّين سيفوزون وينتصرون. وهذا الأمر واضح السبب وهو بدوره موضوع بحثٍ آخر من تلك العناوين التي أخذناها بعين الاعتبار وسوف يتمّ تناولها بالتدريج، وذلك تحت عنوان عاقبة النبوّة وما ستنتهي إليه أعمال

الأنبياء، أي الفتح والفوز؛ وأيضًا نتعرّض لأسباب ذلك، لأنّها متطابقة مع فطرة الإنسان وأصل خلقة العالم وتكوينه.

﴿بسم اللّه الرّحمن الرحيم، طسم﴾ هذا هو الرمز الأوّل للسورة. وبالطبع، إنّ من الأبحاث التي يمكن أن تُطرح بشأن بعض الآيات القرآنيّة، والتي ليست ذات أهميّة كبيرة، هي ما يرتبط بماهيّة هذه الرموز والتي قد تعرّض لها المفسّرون، إلّا أنّها ليست مورد عملنا الآن.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٤٣] تبيّن هذه الآيات قسمًا من القصّة المهمّة التي دارت بين فرعون وموسى. ومن الواضح أنّ نهج **القرآن**، عند نقل أيّ واقعة من الوقائع التي ترتبط بالأنبياء، أنّه يتوجّه إلى مقصد خاصّ من ورائها، وذلك في كلّ بعد من أبعاد هذه الواقعة؛ فيكون اختيار هذا القسم الخاصّ من القصّة لأجل مقصد خاصّ. وعلى هذا الأساس، يتمّ نقل هذه القصّة. وهنا، يذكر قسمًا مختصرًا جدًّا لأنّ له مقصدًا خاصًّا وهو ما يرتبط بقضيّة انتصار الحقّ على الباطل. وبالطبع، لن نتعرّض إلى الأقسام الأخرى من هذه القصّة في بحث اليوم، ولذلك لم نأتِ على ذكرها.

إنّ تناول هذا القسم المهمّ من قصّة موسى وفرعون يكون ﴿بِالْحَقِّ﴾، بعيدًا عن الأساطير لأنّه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، لذلك فإنّ كلّ ما يبيّنه اللّه تعالى ونقرأه ليس فاقدًا للفائدة، وغير فاقد للأثر، بل إنّه سيكون مفيدًا جدًّا ومؤثّرًا ونافعًا بالنسبة للمؤمنين الذين آمنوا بالرسول. فلو أنّهم سمعوا هذه القصّة وفق هذه الرؤية، وفهموا السنّة الإلهيّة وأدركوها في هذا المجال، فإنّهم سيشخّصون طريقهم بدقّة. وخلاصة المطلب هو: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقد طلب الاستعلاء لنفسه، وهذا يعني أنّه قد تجاوز هذا المستوى المساوي بين الناس، واعتبر نفسه أفضل من الآخرين بجلوسه على ذلك العرش؛ فبينما يكون جميع الناس متساوين وفي نفس المرتبة، فهو

---

(٤٣) سورة **القصص**، الآيتان ٢ و ٣.

يريد أن يجعل لنفسه هذا العلوّ.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ * وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ وهذا ما أشرنا إليه تحت عنوان «إيجاد المجتمع الطّبقيّ»، حيث يقرّب جماعةً إلى نفسه كطبقة هامان وغيره ممّن يشبهه، ويجعل طبقةً أدنى وهكذا، حتّى يتحوّل المجتمع إلى مجتمع فرعونيّ على الأرض. ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾، فبالإضافة لعمليّة فرز الطبقات وتقسيم الناس إلى فرق مختلفة، فإنّه يقوم بممارسة ضغوطات كبيرة على طبقة خاصّة وهذا هو معنى «يستضعف». فالاستضعاف إذًا هو هذه الممارسة الظالمة التي تؤدّي إلى جعل طبقة اجتماعيّة في قبضة الضعف والعجز. ولا يصحّ أن نعبّر عن الاستضعاف بالظلم، وإن كان نتيجة الاستضعاف كما بيّنّا، وذلك لأنّ البعض فسّر هذه العبارة بالمظلوميّة فقال إنّ المستضعفين هم المظلومون؛ لكنّ المقصود هو أنّه يتمّ وضع هذه الطبقة الاجتماعيّة في قبضة الضعف حيث تُسلب منها الإمكانات والطاقات فتصبح مجموعة ضعيفة ويؤدّي ذلك إلى جعل هذه المجموعة البشريّة في إطار العجز وعدم القدرة على التأثير. ويُقال إنّه يستضعف بمعنى عدّ واعتبار هؤلاء ضعفاء واتّخاذهم أذلّاء بحسب التعبيرات المختلفة؛ ولكنّ الناتج من هذه الممارسة هو حرمان هذه الجماعة البشريّة من جميع الإمكانات التي تحتاج إليها في المجتمع من أجل التكامل والرقيّ.

ولو أنّكم كنتم مطّلعين على القضايا الاجتماعيّة وتطالعون المؤلّفات الاجتماعيّة، لوجدتم كيف أنّ عالم اليوم يتعامل مع بعض الدول، دول العالم الثالث، بهذا اللحاظ؛ وستدركون هذا الأمر بصورةٍ تامّة وترونه بأنفسكم. هنا نجد أنّ جميع الموارد والإمكانات التي يحتاج إليها الناس من أجل التقدّم والرقيّ تُصبح محتكرة من قبل مجموعة خاصّة، والتي بدورها تمنع الآخرين من الرقيّ ولا تسمح لهم بأن يتنفّسوا، وإذا سمحت لهم بأيّ نوعٍ من التقدّم، فذلك من أجل أن يكونوا في خدمتها، وهنا يتمّ استغلالهم

بحسب مصالحها.

إذًا ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ تعني هذه الممارسة الشديدة والضغوط المتتالية التي تؤدّي إلى ضعف وعجز تلك الطائفة. ومن الضغوط التي كان يمارسها عليهم هو أنه كان ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ فلم يكن يسمح لأطفالهم بأن يبلغوا سنّ الشباب؛ وكان يعلم أو يشعر أنّه يوجد نوع من الثورة والتحرّك فيما بينهم؛ كما كان يعلم أنّ الذي يمكنه أن يوصل هذا التحرّك وهذا الفوران إلى نهايته هو جيل الشباب؛ ولأنّه لم يكن للنساء في تلك الظروف الاجتماعيّة لذلك العصر، من تدخّل في مثل هذه المسائل والقضايا الاجتماعيّة، حيث كان يقع الحمل على عاتق الذكور، فقد كان الضغط أكثر على هذه الشريحة. وبالطبع أنتم تتعرّفون على هذا الأمر من الخارج. فلقد سمعنا واطّلعنا، بحسب المنقولات والروايات التي وردتنا في هذا المجال، أنّ فرعون كان يعلم أنّ موسى سيظهر من بين هؤلاء الشباب، و«موسى» سيكون في النهاية سببًا لجعل حياة فرعون تنقلب رأسًا على عقب؛ أو أنّه كان يعلم ذلك من خلال ما جاء في ظاهر الروايات، حيث قيل إنّ كاهنًا أخبره بأنّه سيظهر ولدٌ ويتمتّع بالصفات الفلانيّة وسيكون اسمه موسى؛ أو أنّه لم يكن يعرف ذلك من خلال الخصائص والصفات، لكنّه كان يبصر ويدرك ويعلم أنّه في النهاية سيبرز من بين هذا الجيل الشابّ، الذي كان يعيش في المجتمع الفرعونيّ ومن بين بني إسرائيل، مَن يثور. وفي النهاية، سيكون هناك موسى أو إنسانٌ عظيم أو شخصٌ مضحٌ يظهر بينهم، فلذلك كان يخاف من هؤلاء وكان ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، وهنا كان يبقي على نسائهم إمّا لكي يفسدهنّ، أو من أجل أن يجرّهنّ إلى الفحشاء، أو من أجل أن يضيّع سلامة نسبهنّ، وبهذه الطريقة يزوّج بنات بني إسرائيل من أبناء قوم فرعون حتّى لا يظهر من بينهم ذلك الشاب، فيختلط بهذه الطريقة النسل ويضيع بنو إسرائيل ويذوبون في المجتمع الفرعونيّ والمجتمع المصريّ وينقرضون. وكما ذكرنا

سابقًا وفي إحدى المناسبات عند الحديث عن آيات أوّل سورة **البقرة**، فإنّ بني إسرائيل تمكّنوا من الحفاظ على استقامتهم طيلة ٤٠٠ سنة داخل ذلك المجتمع الفاسد والمضطرب، وحافظوا بذلك على عقائدهم الشريفة ومبادئهم.

حسنٌ، هذه هي المواجهة بين هاتين الجماعتين والتي أدّت إلى نشوء جبهتين. ففي الجبهة الأولى، كان فرعون يتمتّع بمثل هذه الوضعيّة، وتخبرنا الآية القرآنيّة في النهاية ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، فكان يحدث ذلك الفساد في فطرة الإنسان مثلما أنّه كان يفسد في المجتمع وينشر الفساد في العالم حيث إنّ الآية الأخرى من سورة **البقرة** تخبرنا عنه، ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[٤٤]. فمن خصائص الفراعنة أن يفسدوا في الأرض ويهلكوا الحرث ويمنعوا من وصول الذخائر المعنويّة في هذا العالم بأنواعها وأقسامها المختلفة إلى غاياتها وثمارها؛ أو أنّها إذا أثمرت فتثمر بصورة خاطئة وغير سليمة، وقد كان فرعون من هذا القبيل.

والآن ماذا نرى في المقابل؟ فماذا كان الحقّ؟ ونسأل عن إرادة الله وعن السنّة الإلهيّة، أين كانت؟ ونحو أيّ جهة تحرّكت؟ ﴿وَنُرِيدُ﴾ أي السنّة والإرادة التكوينيّة لله ﴿أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾. فالله تعالى لا يقول وأردنا، بمعنى أنّ الله أراد ذلك بشأن بني إسرائيل في ذلك الزمان، كلّا، بل الأمر على نحو الدوام وطوال التاريخ. لقد أردنا ونريد أن نمنّ على جميع المستضعفين أي هذه الطبقة التي وقعت أسيرة القهر والضعف والعجز وننجيها من ذلك الوضع الوخيم ونخرجها من حالة الاستضعاف، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾[٤٥]، فينقلهم من حالة التبعيّة والتهميش الاجتماعيّ إلى الريادة

---

(٤٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٠٥.

(٤٥) سورة **القصص**، الآية ٥.

والقيادة والمتبوعيّة؛ وبذلك نسلّط المستضعفين في الأرض على كلّ العالم، ونجعلهم غالبين ومنتصرين على القوى المستبدّة. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ فهم يرثون بذلك خيرات الأرض وهذا ما يعبّر عن إرادة الله.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهكذا ينالون الاستقرار والتمكين. ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما﴾، وفرعون وهامان في هذه الآية يمثّلان طبقة. ففرعون، وإن كان ينتمي إلى تلك الطبقة العالية، ولكن بما أنّه شخصٌ مميّزٌ في هذه الطبقة العليا، فإنّه يمثّل الطبقة الممتازة التي يكون هامان أيضًا تحت إمرته، وبذلك يكون مستغلًّا له. أمّا هامان، فهو نموذج ومظهر لطبقة أخرى، طبقةٌ تستعمل كلّ إمكاناتها وقدراتها في خدمة فرعون، حيث يمكنٌ أن يكون تعبير القرآن عن هذه الطبقة بالملأ، وسوف نتحدّث عن الملأ في المستقبل إن شاء الله تعالى.

﴿وَجُنُودَهُما﴾ هم أولئك الذين يبذلون جهدهم ويقدّمون زهرة حياتهم على طريق هؤلاء من دون أن يروا منهم الخير، لكنّهم يستمرّون في خدمتهم؛ فنريهم من المستضعفين ﴿ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾؛ فسيحدث لهم ما كانوا يخافونه من المستضعفين. فتلك الطبقة التي كان يخافها فرعون، جعلناها هي العليا ونصرناها عليه، وهامان الذي كان يحذر ويخاف، أريناه في النهاية ما كان يخاف ويحذر، فيعني ذلك أنّنا سلبناهما القدرة وأعطيناها للمستضعفين، فصار الترابيّون والمساكين أصحاب القدرة والسلطة. وبالطبع، فإنّ المساكين والفقراء في أيّ مجتمعٍ يشكّلون الأكثريّة وهذه هي إرادة الله.

وبعدها يدخل البحث إلى قضايا أخرى، ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعيه﴾ هذا مظهرٌ آخر من مظاهر قدرة الله. ويوجد مسألةٌ أخرى في تلك الآية الأخرى التي اخترناها لكم من سورة الصفّ يُشار فيها أيضًا إلى الانتصار والتغلّب على النظام الجاهليّ من قبل النظام الإلهيّ، ونحن في بحثنا اليوم لن نتطرّق إلى جهة الغلبة حتمًا.

الجلسة السابعة عشر: أهداف النبوّة

السبت، ١٨ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٤٦].

---

(٤٦) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

تفرّع البحث حول النبوّة، ووصل إلى أنّ النبيّ، الذي يُعدّ مبعوثًا إلهيًّا، عندما يريد أن يدخل إلى أيّ مجتمع فإنّه يوجد فيه بعثةً وتغييرًا وتحوّلًا كتلك التي حدثت في باطنه. ونحن نريد أن نفهم هذا المطلب في لقائنا اليوم والذي يرتبط بالمقصد والهدف من إيجاد هذا التحوّل ونبحث بشأن هدف نشاطات الأنبياء الإلهيّين بشكلٍ عامّ؛ حيث تُعدّ معرفة مثل هذه القضيّة مفيدةً لنا من جهاتٍ عدّة، لا بل ضروريّة. فما هو الهدف الذي يسعى النبيّ إلى تحقيقه؟ وما هو المقصود النهائيّ أو المطلوب الذي يتحرّك نحوه؟

يوجد هدفٌ للنّبيّ يُعدّ في وسط الطريق كأساس لمجموعة من الأهداف الأخرى التي يضعها النبيّ نفسه، ومن بين هذه الأهداف الأخرى يوجد هدفٌ يُعدّ أهمّ من الجميع وأكثر جاذبيّة بالنسبة للنبيّ نفسه، ذاك الهدف هو الذي يكون الهدف الأوّليّ للنبيّ أو هدفه الأصليّ. ويمكن اختصار الهدف الأساسيّ والأوّليّ للأنبياء الإلهيّين بشكلٍ عامّ في عدّة كلمات: يأتي الأنبياء إلى هذا العالم من أجل إيصال الإنسان إلى مقام الترقّي والتكامل الذي أُعدّ له؛ فالإنسان كموجود ذي استعدادت وقوى وطاقات كثيرة يمكن أن يصبح موجودًا أعلى وأرقى وأعزّ وأشرف ممّا هو موجود.

في الأساس، يكون الإنسان من أوّل ولادته وعلى صعيد تكوّنه الدنيويّ (الجسمانيّ) في حالة تكاملٍ مستمرّ. وعلى هذا الأساس، فإنّه يبقى دومًا في حالة ترقٍّ وتكامل؛ وتشاهدون هذا الأمر بصورةٍ جيّدة على مستوى الجسم والشكل الظاهريّ للإنسان. فالطفل حديث الولادة يكون فاقدًا للكثير من خصائص الإنسان الكامل؛ فاقدٌ للأسنان، ويفتقد إلى العضد القويّ، كما أنّه لا يمتلك فكًّا قويًّا، وكذلك لا تكون أقدامه مستعدّةً للركض. وكذلك على مستوى الأجهزة الداخليّة، فإنّه يفتقد لتلك القوّة الهاضمة وغيرها من القوى التي يتمكّن الإنسان العاديّ والبالغ من استعمالها للسير في هذه الحياة، حتّى إنّه يفتقد إلى الأجهزة والتشكيلات الدماغيّة والعصبيّة القويّة؛ لكنّه بعد مدّةٍ ينال كلّ هذه الأشياء التي يفتقد إليها.

ومن المسلّم أنّه لا يحصل على شيءٍ من الخارج، فذاك الفكّ الصغير نفسه يصبح قويًّا ومتينًا، وتلك اليد الضعيفة تصبح اليد القويّة والمقتدرة. وهكذا بالنسبة لأقدامه الصغيرة والناعمة، فإنّها تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى تلك الخطوات الثابتة، وهكذا هو الأمر على مستوى الأعصاب الضعيفة فإنّها تشتدّ مثل ذلك الدماغ العاجز الذي يصبح على شاكلة الكاشف لأهمّ قضايا الحياة وأعقدها. هذا الإنسان لا يحصل على شيءٍ من الخارج، بل يصبح، بالتدريج وعلى مرّ الزمان ومن خلال تواجده في ظروفٍ خاصّة، باستعداداته هو وبإمكاناته الكامنة والخفيّة متفتّحًا ومتبرعمًا ويصل إلى منصّة الظهور والتحقّق. ففيه الاستعداد للنطق، وهذا الاستعداد يتفتّح وينتقل من القوّة إلى الفعليّة، وفيه الاستعداد للإدراك والتفكّر، كما أنّه بذاته يمتلك الاستعداد ليصبح عالمًا. فالإنسان يكون في حال صيرورة مستمرّة على مستوى الكمال، وما كان يفتقده وما لم يكن موجودًا يصبح متحقّقًا؛ لا يكون قويًّا فيصبح كذلك، ولا يكون صاحب عقلٍ فيصبح صاحب عقل، ولا يكون صاحب تجربة وبعدها يصبح من أصحاب التجربة، وغيرها من هذا القبيل.

وفي القضايا المرتبطة بالجسم الظاهريّ للإنسان، ومثلما أدركتم جميعًا هذه القضيّة الآن وتصدّقونها، ترون أنّ الإنسان كان دائمًا في حالٍ من التكامل وهذا يعني أنّه يكون في طور التشكّل والحصول على أشياء لم تكن متوفّرةً له من قبل، أو حاصلةً فيه. هذا الأمر عينه يتحقّق أيضًا في مجال المعنويّات والروحيّات والفضائل الإنسانيّة؛ فهناك عالمٌ كبير من الاستعدادات الخفيّة في الإنسان. يمكن تشبيه الإنسان بمنجم هائلٍ وعميق وغنيّ جدًّا، في حال تمّ التنقيب فيه واستخراج ما فيه من معادن، فإنّنا سنجد أنّه متوافرٌ على الكثير من الأشياء. أمّا لو لم يحصل التنقيب فيه والاستخراج منه، فإنّه يكون موجودًا شبيهًا بأرضٍ خاليةٍ جافّةٍ غير منتجةٍ وفاقدةٍ لأيّ مظهرٍ من مظاهر الجمال في الحياة.

أضرب مثالًا في مثل هذه الموارد عادةً، وأشبّه الإنسان بقطعة من الموزاييك التي يضعونها إلى جانب أحواض المياه وعلى عتبة بعض الأبواب، فهل تلاحظونها؟! في البداية، يضعون هذه القطع من الموزاييك في قوالب، ثمّ يغلقون هذه القوالب لتتحوّل هذه المادّة إلى مادّة مطبوخة وجافّة، وعندما تنظرون إليها فإنّكم لا تشاهدون فيها أيّ مظهرٍ من مظاهر الجمال والدقّة، بل تكون جسمًا مغبّشًا وسخًا فاقدًا للبريق والحسن. وعندما يصل الدور إلى القيام بجلائها وتلميعها سواءٌ بوضعها في أجهزة خاصّة أو من خلال العمل اليدويّ، فإنّه وبعد مرور وقتٍ قليل من مثل هذا العمل (الجلاء والتلميع)، فإنّكم فجأةً ترون أنّ هذا الجِسم لم يصبح على أثر هذا الجلاء والتلميع شفّافًا فحسب - لأنّ هذا الشيء طبيعيّ، فالكثير من الأشياء التي تكون مغبّشة تصبح على أثر هذا الجلاء مغبّشة - كلّا، بل بالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أنّ فيه أشياءً لم تكونوا تعرفون عنها شيئًا؛ حيث ترون بعد جلائه وتلميعه، تلك الأحجار الجميلة الملوّنة ذات النقوشات المختلفة والألوان الجذّابة والمستحسنة قد ظهرت من قلب وداخل هذا الجسم المغبّش؛ والتي ربّما لم تكونوا قادرين على رؤيتها في السابق، أو لم تكونوا قادرين على الاستفادة والاستمتاع بجمالها، وما كان لكم القدرة على جعلها وسيلةً للتجمّل؛ فكلّ هذه الأحجار الجميلة قد ظهرت على أثر الجلاء والتلميع. فعندما يضعون أمامكم قطعةً من الموزاييك الجميلة المجلوّة، ترون نقوشات جميلة ورائعة في واقع الأمر، في حين أنّها لم تكن قبل الجلاء والتلميع شيئًا مذكورًا في هذا المجال؛ يمكنكم تشبيه الاستعدادات الباطنة في الإنسان بمثل هذه القطع البرّاقة الجاذبة الجميلة التي كانت داخل هذا الموازاييك المغبّش.

إنّ هذا الإنسان الذي ترونه، وهذا الكائن الذي لم يصبح مستعدًّا ولم يشذّب أو يقلّم بعد، والذي تشاهدونه في السوق أو في الشارع؛ وهذا الطفل الصغير الذي يعجز عن النطق، والذي لا تكون هذه الرقّة ملحوظة فيه

سوى من قبل أمه وأبيه ولا غير، فلا يظهر منه شيءٌ للآخرين؛ إنّ هذا الصبيّ الذي تشاهدونه هو في الواقع منجمٌ غنيٌّ وفيّاضٌ، ففيه الكثير من الاستعدادات الخفيّة وفي داخله تجلّياتٌ من الجمال هي التي نعبّر عنها بالاستعدادات الإنسانيّة، وقد ذُكرت بلسانٍ شعريٍّ قديم للشاعر سعدي:

طيران مرغ ديدى، توز پاى بند شهوت به در آى تا بينى، طيران آدميت

هل رأيت تحليق الطائر؟ فاعتق نفسك من قيد الشهوات لتشاهد عروج الإنسانيّة

هذا الذي قيل لنا، وحقًّا ما قيل على لسان الشعر وغير الشعر والعرفان، بألسنة مختلفة، وهو صحيحٌ. قالوا إنّ تجليّات الإنسانيّة ترفع الإنسان إلى ماً فوق الملائكة وأعلى من ذلك، فهي تجعل الإنسان منبعًا فيّاضًا من الخيرات والجمالات والاستعدادات التي تصل إلى حدّ الظهور، فتتحقّق تلك الطاقات المدهشة والجذّابة. يصبح الإنسان إنسانًا كاملًا، إنسانًا سويًّا، إنسانًا متكاملًا ومترقّيًا. إنّ الهدف الواقعيّ للأنبياء هو أن يصنعوا مثل هؤلاء البشر؛ ويندرج هذا الأمر بحسب التعبيرات القرآنيّة التي ذكرناها تحت عنوان «التزكية والتعليم». وهكذا، يتمّ تصفية الإنسان وتنقيته من الصفات السيّئة والسلبيّة وإبعاده عن كلّ أنواع الهوس والهوى، وتخليصه من كلّ مظاهر الحياة السبعيّة البهيميّة وقد قيل في الشعر لمولوي:

اى دريده پوستين يوسفان گرگ بر خيزى از اين خواب گران

يا من مزقتم قميص يوسف انهضوا من سباتكم ذئابا ذئاب

فأولئك الذين يتصرّفون تصرّف الذئاب وهم في ظاهر الإنسانيّة، هؤلاء الذين يظهرون بصورة الإنسانيّة السويّة الجميلة لكنّهم يفعلون فعل السباع والكلاب والوحوش والغيلان، لا يمكن أن نسمّيهم أو نضعهم تحت عنوان الإنسان. فذاك الإنسان الذي يكون سفك الدماء بالنسبة له أمرًا لذيذًا وممتعًا، وذاك الإنسان الذي يتسلّى ويستأنس بالقضاء على نفوس غيره من البشر، وذاك الذي لا يشعر بأيّ تألّم عندما يشاهد محن الآخرين ومصائبهم، هذا الإنسان الذي يطّلع على مآسي الآخرين ولا يغتمّ

من ذلك، هو ليس إنسانًا حقيقيًا، كان ما كان على مستوى الظاهر؛ سواءً كان عالمًا كبيرًا، أو ثريًّا إلى حدٍّ فاحش، أو مقتدرًا جدًّا، حتّى لو كان في الظاهر شديد الأناقة وصاحب الثياب المكويّة المرتّبة، فمهما كان؛ إنّ هؤلاء جميعًا لن يكونوا من جنس الإنسان؛ فالأناقة والعلمائيّة والاقتدار شيء، وكون المرء إنسانًا شيءٌ آخر.

إنّ الأنبياء يأتون من أجل تصفية البشر وتزكيتهم وتطهيرهم. فعندما تتأمّلون في بيئة دعوة الأنبياء، فإنّكم لن تروا أثرًا لتلك الحالة السبعيّة، ولن تشاهدوا أيّ مظهر من مظاهر الحياة الحيوانيّة والوحشيّة. كلّما تأمّلتم في بيئة حياة النبوَّة، فهناك لا أثر ولا خبر لتلك الأشياء البشعة، بل لا يوجد هناك سوى نور الصفاء والإنسانيّة. وهذا هو فنّ النبوّة وإعجازها الكبير. نجد الناس يبحثون في إعجاز النبوّة عن الأعمال الخارقة للعادة، تلك الأعمال التي لا يقوم بها أحد عادةً، وفي مجال القضايا الطبيعيّة، كاختراق الجدار الفلانيّ أو الجسم العلّانيّ أو مجيء الشجرة وتحرّكها؛ فكلّ هذه أمور جيّدة وهي موجودةٌ ومتحقّقة ولا كلام في ذلك، لكنّ معجزة النبوّات الكبرى هي عبارة عن صناعة الإنسان الجيّد والمتحلّي بالفضائل، فهذه هي أعظم معاجز النبوّات، ولا مزاح في ذلك.

وعندما يتأمّل الإنسان وينظر سوف يرى أناسًا - رغم كلّ مقتضيات الإجرام والإفساد الموجودة فيهم - فإنّهم وبعد أن يستظلّوا بظلال دعوة الإسلام وتشملهم الأجهزة التي يستعملها الأنبياء بفعاليّة، فإنّهم يتحوّلون فجأةً من ذلك الوحش الذي كان بالأمس، والجاني المجرمِ الذي كان قبلها، والإنسان الذي لم يصلح ولم يتشذّب ولم تكونوا تحسبون له أيّ حساب، يتحوّلون إلى إنسانٍ عظيم جدًّا.

فمن كان أبو ذرٍّ؟ إنّ أبًا ذرّ لم يكن سوى رجلٍ من أهل البادية الأجلاف الذين لا يعتنون بالإنسانيّة ولا خبر لهم عنها؛ فهل كان شيئًا آخر؟ إنّ أبا ذرّ لم يكن سوى رجلٍ، لو شاهدتم عشرة آلاف أمثاله مرّوا أمامكم لما

أوليتموهم أيّ اهتمام، ولما شعرتم بأيّ اهتزاز فيما لو جاءت هزّةٌ أرضيّة وأفنتهم عن بكرة أبيهم، فهؤلاء مثالٌ لمن لا يفهم ولا يريد أن يفهم. عندما يقف أمامكم، أولئك الذين ليس فيهم أيّة ذرّة تدلّ على اللطف الإنسانيّ، ويفتقدون إلى أيّة ذرّةٍ من آثار الارتباط والتعلّق بحالة الحسن والخير، ويسيرون في تلك الصحراء الكبرى حفاةً متّسخين في خشونة وشجوبة العيش، ستتساءلون، وليس أنتم فقط، بل سيتساءل كلّ مصلح كبيرٍ وأيّ إنسانٍ عظيم عن مدى تحرّق قلبه عليه. فالمصلحون الكبار في هذا العالم أو الذين يعدّون أنفسهم كذلك يتألّمون ويشتكون من أشخاص لهم في الواقع شأنٌ أكبر منهم! وذلك لأنّهم لم يعرفوا قدرهم بل لم يتعرّفوا إليهم ولم يفهموهم. فهم يحبّون أن يدور الناس حولهم مثل فراشات الشموع ويضحّوا بأنفسهم من أجلهم، ولأجل أيّ شيء؟ إنّنا لن نتحدّث هنا عن مدى الالتزام أو الرسالة الإنسانيّة التي أدّوها أو لم يؤدّوها، فإنّهم إذا واجهوا مثل أولئك الأفراد ووقفوا أمامهم، فإنّهم لن يولوهم أيّة عناية أو قيمة.

إنّ النبيّ هو الذي يجعل من ذلك الموجود الذي نعبّر عنه بالحجر الأسود، أو تلك الصخرة التي لم تُجلَ أو تُلمّع والتي قد تُسمّى هنا بأبي ذرّ، في ظلّ الوحي وضفاف الدعوة، إنسانًا؛ وذاك الإنسان الذي لم يكن فيه أيّة فضيلة من الفضائل الإنسانيّة. ثم، وعلى أثر ذلك لن يبقى فضيلةٌ من الفضائل الإنسانيّة إلّا وستظهر فيه؛ هذه هي المعجزة الكبرى للنبيّ؛ فهو يصنع منه إنسانًا تصبح كلّ متعلّقاته، وكلّ يرتبط بهذه الأنا والإنّيّة التي تكون بالنسبة للناس العاديّين محور جميع نشاطاتهم وفعاليّاتهم، كلّ شيءٍ من هذه الأنا تنصهر وتذوب وتتحلّل وتصبح فداءً وقربانًا على طريق الوصول إلى الهدف؛ فهل يمكنكم أن تجدوا مثل هذا الإنسان؟ ها نحن نريد أن يكون لنا كلّ شيء، أو أن ترجع جميع الأشياء التي ترتبط بنا، دكّاننا وموقعيّتنا وأبنائنا وذِكرنا الحسن إلينا فقط، ويكون كلّ شيء في النهاية لنا. إنّ أبا ذرّ يفتدي كلّ ما يرجع إلى نفسه في سبيل الله ومن

أجل الأهداف والتوّجهات التي يتحرّك على أساسها. فها هو ذاك الإنسان يتبدّل إلى إنسانٍ على هذه الشاكلة. فما هو هذا الشيء الذي بدلّه وحوّله إلى مثل هذا الإنسان؟ إنّه وحي النبوّة ودعوتها. فهذه النبوّة هي التي تبدّل الحجارة السوداء والمغبّشة إلى مرايا صافية ونقيّة. وهذا هو هدف النبوّة، أي صناعة الإنسان.

وصحيحٌ أنّ تشكيل نظام سليم مرفّه ونظام حرٍّ ومزدهر هو أمرٌ مميّزٌ جدًّا؛ ولكن أريد أن أرى الآنً ما الّذي سيحصلٌ في ظلّ هذا النظام المزدهر والحرّ والمرفّه والمتلازم مع المساواة والعدالة الاجتماعيّة وما الذي سيتحقّق بعد نفي الطبقيّة؟ نتساءل ما هو الشيء الذي سيشكّل اهتمام أفراد هذا المجتمع الجديد العالي والجذّاب؟ وما الذي سيحصل بعد ذلك؟ فما هي أهداف المذاهب المادّيّة على مستوى الإنسان والإنسانيّة بعد بلوغ مرحلة المجتمع المثاليّ الذي يُعدّ غايةً لسعيهم؟ فماذا سيكون هدف الإنسانيّة؟ فإذا ضحّى الناس وتجاوزوا الأنانيّة وسعوا وجاهدوا حتّى يبنوا لأنفسهم بيوتًا عامرةً في هذا العالم، وها هم قد حقّقوا ذلك، فماذا سيكون لهم بعدها؟ وماذا سنفعل بمثل هذه البيوت العامرة؟ حسنٌ، ها نحن قد تعبنا وجاهدنا من أجلِ أن نبني هذا المسجد، وبعد أن تمّ بناء هذا المسجد، ينبغي أن يكون لنا هدفٌ، والهدف هو أن يأتي الناس إلى هذا المكان مثلًا ليصلّوا أو يستمعوا إلى الخطابات أو غير ذلك. لكن لا معنى أنّ نقول إنّنا نريد أن نبني مسجدًا وبعدها نثير الضجّة ونهتف بصوت عالٍ: بنينا مسجدًا ورفعنا أركانه وانتهى. فالآن ماذا سنفعل؟! لا شيءً؟ ولاً يكون لنا هدف بعد ذلك؟ هذه سخرية؛ إنّه كمثل من يكسر رجله في منتصف الطريق، وها هي المذاهب المادّيّة قد كسرت أرجلها وسط الطريق، ولا أستثني أيّ مذهبٍ منها.

تقول المذاهب المادّيّة إنّنا نريد أن نعمّر الدنيا ونقضي على الفقر ونزيل الجهل ونصنع مجتمعًا راقيًا، وأن يكون المجتمع الذي نحقّقه مجتمعًا

إنسانيًّا، ليس فيه أيّ ظلم أو طبقيّة أو استغلال أو تمييز. حسنٌ جدًّا، لقد حقّقنا ذلك. والآن نسأل عن هذا الإنسان، ماذا يريد أن يفعل في مثل هذا المجتمع؟ إنّهم لا يمتلكون الإجابة. وفي هذا المجتمع، نسأل عن الإنسانيّة وأهدافها وإلى أين تريد أن تصل؟ وهنا لا يجيبون. هل أنّ الإنسان يريد أن يأكل وينام؟ هل أنّه يريد أن يعيش براحة دون شيءٍ آخر؟ فلو أنّ الإنسان أراد أن يعيش براحةٍ وهناء فقط، فينتج براحةٍ ويأكل براحةٍ ويعطي براحة وهكذا، فهل عليه أنْ يجاهد من أجل ذلك ويتوجّه نحو هذا الهدف؟ هنا بالذات نجد أنّ المدارس المادّيّة تبقى عاجزةً وناقصة.

تقول المذاهب الإلهيّة، كلّا، هناك هدفٌ بعد هذا، والهدف العالي هو عبارة عن تهذيب الإنسان وتحليته. فالهدف العالي هو جعل بني آدم بمستوى الإنسانيّة. وعندما نقول بني آدم، فإنّنا نقصد الجهة غير الإنسانيّة أي تلك الكائنات التي تسير على قدمين بكلّ هذه المظاهر، هذا هو ابن آدم. لكن صيرورة المرء إنسانًا يعني [التحلّي] بكلّ هذه الفضائل، وتفجرّ ينابيع الاستعدادات وسريانها في وجوده. تقولون: وماذا يحدث بعد ذلك؟ فنقول لا يوجد بعد، فالإنسان غير محدود، وهو غير محدودٍ بقدر قدرة الله، فلا بَعدَ له، ﴿إنّا للّه وإنّا إليه راجعون﴾[٤٧]. فعندما يتحرّك الإنسان على طريق التكامل، فلن يكون له آخر، وهذه هي عقيدة الذين يعبدون الله وأفكار الموحّدين في العالم والأديان الموجودة في هذه الدنيا؛ فهو في حالة تطوّر دائمة، وفي حالة تقدّم دائمة، ويتّجه نحو الأوج دائمًا، ويتكامل ويتسامى دائمًا، فلا آخر ولا نهاية له، وقد جاء الأنبياء من أجل هذا الهدف.

يأتي الأنبياء من أجل خلاص البشريّة من السيّئات وكلّ أشكال الانحطاط والجهل والرذائل الأخلاقيّة ومن كبت الاستعدادات الكامنة ومن إبقائها مخفيّةً؛ يأتون من أجل نجاة الناس وصناعة الإنسان الكامل

---

(٤٧) سورة **البقرة**، الآية ١٥٦.

والمتسامي؛ هذا هو الهدف الأوّلي للأنبياء؛ لهذا ورد في القرآن في عدّة موارد منها ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾[٤٨]. وهذا يعني أنّ التّكية والتحلية وتصفية الرذائل والتحلّي بالفضائل هي هدف الأنبياء؛ لهذا ترون نبيّنا يقول: «إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[٤٩]، وهي الأخلاق الجميلة والفاضلة؛ وهذا هو أوّل الكلام.

أمّا الكلام الأهمّ فهو الكلام الثاني، فالكلام الأوّل هو كلامٌ كثيرًا ما كان يتردّد، وبعضهم يحبّون أن يتكّرر كثيرًا، وذلك لأنّه لو كانت القضيّة منحصرةً بقضيّة التهذيب والتّكية، فإنّ لأحدٍ أن يقول: أيّها السيّد لقد عرفنا طريق ذلك، وفهمنا كيف نتحرّك، فلنترك الضجيج الاجتماعيّ جانبًا ولنبتعد عن حرب الملل الاثنين وسبعين كما يُقال في البيت الشعري[٥٠]، ولنأخذ زاويةً في الصومعة ونشتغل بالرهبانيّة حيث يمكننا أن نعمل على تهذيب أنفسنا وتزكيتها فنصبح بذلك صالحين وننجي أنفسنا من الهلاك. وإذا استطعنا وجاءنا أحدٌ وكان صاحب استعداد وقابليّة، فإنّنا نلقي في أذنه بضعة كلمات فينقلب رأسًا على عقب ويصبح بذلك إنسانًا.

هذا الكلام يمكن أن يصبح من هذه الجهة عذرًا وتبريرًا لكلّ أنواع الكسل والبطالة والدعة والتساهل والمجاملة؛ ولأنّه يصبح مبرّرًا لمثل هذه الصفات فإنّه يُكرّر كثيرًا. في الوقت نفسه، يسرّ الناس ويعجبهم، ومثل هذا الكلام يرضي الحكّام أيضًا، وهذا الكلام يعجب أيضًا أولئك الذين يتحمّلون مسؤوليّات إرشاد الناس وتعليمهم. فإنّ تهذيب الناس وتزكيتهم هو عملٌ ليس فيه أوجاعٌ للرأس، وهو عملٌ لا إشكال عليه، وليس فيه أيّ تهديد أو خطر على بقرة الإنسان ونعجته كما يُقال، فهو عبارة عن جمع

(٤٨) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤.

(٤٩) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ١٦، الصفحة ٢١٠.

(٥٠) جنگ هفتادو دو ملّت همه را عذر بنه   چوندیدند حقیقت ره افسانه زدند (الشاعر حافظ)

مجموعة من الناس وإنشاد بعض نغمات العشق عليهم حيث تُسكرهم هذه العبارات ويكون ذلك من أجل تهذيبهم وتزكيتهم؛ فالأمر عندئذٍ بالنسبة للناس يكون سهلًا. بالطبع، هكذا يبدو؛ إلّا أنّه في الواقع ليس سهلًا أبدًا.

الكلام إلى هذا الحدّ معروفٌ ومقبولٌ. لكن من هنا فصاعدًا، فإنّ الكلام يصبح مستهجنًا لأنّه كلامٌ لا يُقال للناس عادةً. ما هو هذا الكلام الذي يبدأ من هنا؟ إنّه عبارة عن الإجابة عن السؤال التالي وهو: ما هو الطريق الذي يسير عليه الأنبياء من أجل تهذيب الناس وتزكيتهم؟ وماذا يفعل الأنبياء من أجل تحقيق هذا الهدف؟ فهل أنّ الأنبياء يأتون إلى الناس ويأخذون كلّ واحدٍ منهم على حدة ويسمعونه نغمات الدعوة؟ أم أنّهم يأخذون بأيدي الناسٍ فردًا فردًا، ويختلون بكلّ واحد على حدة في زاوية البيت أو المدرسة، ويبدأون بتعليمهم وتربيتهم؟ وهل أنَّ الأنبياء كانوا يجلسون في التكايا كالزهّاد والعرفاء في هذا العالم، من أجل أن يأتيهم الناس ويطّلعوا على أحوالهم المعنويّة ويصبحوا مريدين وتابعين وملازمين لهم؟ هل يشبه الأنبياء فلاسفة هذا العالم الذين فتحوا المدارس ووضعوا يافطات وإعلانات ودعوا الناس قائلين لهم أيّها الناس كلّ من يحبّ فليأتنا ليتعلّم؟ هل كان الأنبياء مثل هؤلاء؟ أم أنّهم لم يكونوا يعتقدون بالتربية الفرديّة ولا يؤمنون ببناء الإنسانية فردًا فردًا؟ وبتعبيرنا، لم يكن الأنبياء يؤمنون بالأعمال النظيفة والمرتّبة؟ فهل إبراهيم خليل الرحمن أو موسى وعيسى أو نبيّنا كانوا يفعلون مثلما نتخيّل أحيانًا أنّ أمثال سقراط وأفلاطون [كانا يفعلان]، حيث يجلسان في المدرسة ويأتي الناس إليهما ليتعلّموا منهما؟ كلّا، لم يكن الأمر كذلك. وبالطبع، إنّ الأولياء مثل الأنبياء، حيث إنّنا سنقول عند الحديث عن الإمامة إنّ إمامنا الصادق أيضًا كان هكذا؛ فمن الخطأ أن يتصوّر أحدٌ أنّ الإمام الصادق كان يجلس على المنبر، وكان يحضر مجلسه أربعة آلاف تلميذ ويتحلّقون حول منبره؛ كما يعبّر بعض الذين يغفلون عن هذه القضيّة بمثل هذه التعبيرات؛ فلأنّ

ابن عقدة الرجاليّ القديم المعروف قد ذكر أنّ للإمام الصادق أربعة آلاف تلميذ - وهو نفسه من تلامذة ورواة حديث الإمام جعفر الصّادق(ع) - فتصوّر البعض أنّ هؤلاء الأربعة آلاف نفر كانوا يأتون ويجلسون على سبيل المثال في قاعةٍ هي أكبر من هذه القاعة التي نجلس فيها بضعفين، وكان الإمام الصادق صلوات الله عليه يقف على المنبر ويتحدّث ويطرح القضايا والأحكام والمواعظ [عليهم].

كلّا، فلم يكن هذا هو نهج الإمام جعفر الصادق، ولا نهج جدّه نبيّ الإسلام، ولا هو نهج جميع أنبياء العالم؛ فإنّ فتح المدارس والاكتفاء بالمواعظ والتربية الفرديّة ليس هو عمل الأنبياء. فلدى الأنبياء جوابٌ واحد عن هذا السؤال: كيف يمكن صناعة الناس، كيف يمكن تربية الناس على أساس القيم الإلهيّة الصحيحة؟ وجوابهم واحد؛ يقول الأنبياء في جوابهم إنّه لأجل صناعة الإنسان يجب أن تتحقّق البيئة المناسبة والمحيط السليم؛ هذه هي البيئة التي يمكن أن يتربّى فيها فقط لا غير. يقول الأنبياء إنّه لا يصّح أن نأخذ كلّ فردٍ على حدة ونصنعه، بل ينبغي أن نوجد المصنع، فلو أردنا أن نصنع الناسَ فردًا فردًا لانقضى الوقت وذهب العمر، وإنّما المطلوب هو المجتمع والنظام السياسيّ، فيجب أن تحصل عمليّة صناعة الإنسان بالصورة المطلوبة ضمن إطار وآلة النظام السياسيّ لا غير، هذا هو الأمر الوحيد دون سواه.

يقول الأنبياء إنّ الإنسان يشبه الشجرة والغرسة. فلو أنّكم أخذتم غرسةً أو شجرة نخل بعين الاعتبار أو غرسة برتقال، فإنّ لنموّ هذه الغرسة شروطًا محدّدة، كما أنّ لها خصائص محدّدة؛ وهذه الخصوصيّات تستلزم أن تكون في أجواءٍ حارّة أو في مناخ مناسب. فلو زرعنا شجرة النخل في جنوب إيران أو في طبس أو في بعضٍ الدول العربيّة، فإنّكم سترون كم تقدّم لنا من تمورٍ لذيذة ذات جودة عالية، فهذا أمرٌ ملفتٌ كما ترون، لماذا؟ لأنّ هذه الغرسة تحتاجُ إلى المناخِ الفلانيّ بدرجات حراريّة معيّنة ورطوبةٍ خاصّة

بنسبة معيّنة في الهواء، وكذلك تحتاج إلى نوعيّة محدّدة من التربة وغيرها من الشروط الأخرى لعلّها تبلغ العشرات. ومثل هذه الظروف تجتمع في طبس أو في خوزستان لكنّها لا تتأمّن في مشهد. فما الذي ينبغي أن نفعله؟ لو أنّكم جلبتم آلاف الشتول من أشجار النخيل، وجئتم بها إلى هذا المكان، وزرعتموها في هذه التربة وسقيتموها وأمّنتم لها المناخ المناسب، هل يمكن ذلك؟

إنّكم لن تقدروا إلّا على عمل واحد في هذه الحالة، وهذا العمل الوحيد الذي يمكنكم أن تقوموا به هو أن تأتوا ببذرة من شجر النخيل وتضعوها في بستانكم، أو أن تأتوا بشجرة برتقال إلى الغرفة وتسهروا عليها وتراقبوها وتؤمّنوا لها الأسمدة والريّ، وتعملوا عليها إلى هذه الدرجة، حتّى يأتي ذلك الوقت الذي كما نقول: يا علي مدد، ها هي تقدّم لنا حبّة أو حبّتين من التمر؛ فتقولون: أجل، لقد جئنا ببعض الشتول من شجر النخيل إلى مشهد، وحصلنا على حبّة أو حبّتين أو ثلاث من التمر؛ فلماذا إذًا نقوم بهذا العمل؟ لماذا فعلنا ذلك؟ فلو كنّا نستطيع أن نزرع وننمّي النخيل في البيئة النخيليّة والتي لا تحتاج إلى كلّ هذه العناية، ولا تحتاج إلى هذه الدرجة من التعب وبذل الجهد والقلق، فهل ستعطينا حبّة واحدة أو حبّتين!؟ إنها ستعطيني الكثير الكثير.. فهل من العقل أن يقوم الإنسان بزراعة شجرة النخيل التي لا تُعطي أكثر من حبّة أو حبّتين من التمور في هذه البيئة غير المناسبة، وهو يستطيع أن يوجد البيئة المناسبة؟ وهو يستطيع أن يصنع بيئةً يمكنها أن تنمّي شجرة النخيل بنفسها؟

بالطبع، من الواضح أنّ التعب والعناء الذي ينبغي أن يتحمّله الإنسان أو يبذله من أجل صناعة البيئة المناسبة، هو أكثر بكثير من التعب الذي ينبغي أن يتحمّله من أجل حبّة تمر أو غرسة نخيل؛ فذلك العناء يفوق بدرجات هذا الأمر؛ لكن احسبوا ثمرته ونتيجته وتصوّروا عوائده. فهنا، أنتم تبذلون الجهد على إنسان وتصنعون إنسانًا، وهناك تصنعون مجتمعًا وتشكّلون

نظامًا يصنع ملايين الناس والأجيال البشريّة، وهذا هو عمل الأنبياء. إنّ ما ذكرته هو من الأمور التي نصرّ ونؤكّد عليها، ونعتقد أنّ على أتباع النبوّات أن يفهموها جيّدًا. هذه هي القضيّة التي ينبغي أن نتفكّر فيها ولا نمرّ عليها مرور الكرام، [كما علينا] أن نراجع الآيات القرآنيّة وتاريخ الأنبياء وتلك الروايات التي وردت بشأن النبوّات؛ فقوموا بمراجعتها والتدقيق والتأمّل والتدبّر فيها ولا تتسرّعوا في قبولها أو رفضها لأنّ الأمر غايةً في الأهميّة. إنّ جميع الإشكالات تنبع من هذه النقطة. إنّ البعض ممّن لم يستطيعوا أن يفهموا ماذا كان يريد الأنبياء من وراء إيجاد البيئة المناسبة والمساعدة، تصوّروا أنّ الأنبياء كانوا يريدون أن يصنعوا الناس فردًا فردًا، في حين أنّ صناعة الأفراد كأفراد هي أمرٌ بعيدٌ عن شأن الأنبياء.

إنّ ما نفهمه نحن من القرآن هو ما يتعلّق بإجابة الأنبياء عن السؤال المتعلّق بكيفيّة صناعة إنسانٍ مشذّب ومهذّب، صافٍ ومتحلٍّ بالأخلاق. فإنّ جوابهم عن هذا السؤال هو أنّه يجب إيجاد المجتمع الإلهيّ التوحيديّ وصناعة البيئة المناسبة لكي يتمكّن الإنسان - لا كفردٍ ولا كعشرات [الأفراد] بل ولا حتّى كألف [فرد] بل جماعات جماعاتٍ - من أن يصنع نفسه بنفسه في مثل هذه البيئة المناسبة وضمن تلك الحرارة الطبيعيّة لنور المعارف الإسلاميّة النيّرة.

﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّه وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دين اللَّه أَفْواجًا﴾[51]. إنّ النبيّ عندما يريد أن يصنع الإنسان في البيئة الجاهليّة لمكّة يكون مجبرًا على صناعة الأشخاص فردًا فردًا، وذلك لأنّه يحتاج إلى عدّة من الخواصّ من أجل أن يوجد ذلك النظام؛ فهؤلاء العدّة هم حجر الزاوية والبنية التحتيّة المطلوبة، فيكون بناؤهم في البداية كأفراد، إلّا أنّ ذلك لا يتنافى مع الخطّة العامّة للأنبياء. لقد كان النبيّ مجبرًا أن يقوم ببناء مجموعة من الأفراد وإعدادهم في مكّة من أجل أن يصنع أحجار

---

(٥١) سورة **النصر**، الآيتان ١ و ٢.

الزاوية للمجتمع المدنيّ؛ كأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود وأمثالهم حتّى يبلغوا مئة أو مئتين؛ فهؤلاء يمكن أن يشكّلوا أحجار الأساس لذلك البناء الذي سيقوم عليه مجتمع المدينة المستقبليّ، أي مجتمع التوحيد والإسلام. لقد قام النبيّ بإعداد أفرادٍ محدّدين مع ما تطلّب ذلك من عناءٍ وألم ومشقّات، حيث كان الآباء يمنعون أبناءهم من أن يفهموا أيّ شيءٍ، وكان الأبناء متعلّقين بالدنيا ولا يأتون إلى النبيّ ليستمعوا إلى كلامه. فلذلك كان إيجاد مستوًى معيّن من التوجّه ولو بمقدارٍ قليل يتطلّب الكثير من الآلام والمتاعب والمشقّات؛ ومثل هذه الأعمال كانت تُنجز كلّها. ولكن عندما وصل الدور إلى المدينة ليتشكّل فيها ذلك المجتمع الإلهيّ والإسلاميّ، حيث يكون النبيّ على رأس ذلك المجتمع ويكون الحاكم بأحكام الله وأوامره، فهناك، حينها يقول الله تعالى مثل هذا الكلام: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، فهذه هي حصيلة المَطلب المرتبط بأهداف الأنبياء.

وأختصر المطلب كالتالي: إنّ للأنبياء هدفين مهمّين: أوّلهما هدفٌ أساسيّ وهو عبارة عن بناء الإنسان وتخليصه من الرذائل وتزكيته وتحليته بالخيرات والفضائل والحسنات، فيُختصر الأمر بصناعة الإنسان وبنائه؛ وهذا هو الهدف الأعلى. لكنّ الهدف الآخر الذي كان للأنبياء - والذي يُعدّ مقدّمة لتحقيق الهدف الأوّل - عبارة عن تشكيل المجتمع التوحيديّ وبناء النظام الإلهيّ، وإقامة الحكومة الإلهيّة، وتأسيس التشكيلات والمؤسّسات التي تُدار على أساس القوانين والمقرّرات الإلهيّة؛ فهذا هو الذي كان هدف جميع الأنبياء. ولو أنّ أحدًا تصوّر أنّ الأنبياء الإلهيّين العظام لم يكونوا يحملون مثل هذا الهدف، فعليه أن يطالع القرآن والأحاديث والتاريخ أكثر.

وها هنا قد أتينا على ذكر آيتين، وبالطبع يوجد آياتٌ كثيرةٌ في كتاب الله العظيم، والتي يُستفاد منها في هذا المطلب. فنحن قد ذكرنا آيتين فقط، وغاية الأمر يجب عليكم أن تتدبّروا فيهما ومن الضروريّ أن تدقّقوا

أكثر وتتأمّلوا.

الآية الأولى التي تعرّضنا لها في سورة **الحديد**؛ سأقوم بترجمتها فقط وأقدّم توضيحًا مختصرًا. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾، وهي إشارة إلى اليقين في القضيّة ﴿بالبيّنات﴾ وهي الدلائل الواضحة والبيّنة. فكلام الأنبياء وحججهم هي حججٌ واضحةٌ بيّنة، وليست أمورًا لا يفهمها الإنسان العاقل والمتفكّر، فالجميع يدركون كلام الأنبياء ويفهمونه. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ فما هو الكتاب؟ لقد ذكرنا مرارًا أنّ الكتاب هو عبارة عن مجموع المعارف والأحكام والمبادئ التي يتشكّل منها أصل الدين. فالمعارف والتعاليم الدينيّة هي هذا الكتاب، وباختصار إنّه جامع أيديولوجيّة الدين. ويمكننا أن نستعمل تعبيرًا بشأن الكتاب - مع شيء من التسامح - ونشبّهه بما يُقال له اليوم في عرف المدارس المعاصرة بـ «الأيديولوجيّة» التي هي عبارة عن الأصول والمعارف البنّاءة، أي الأصول الفكريّة التي لها أثرٌ ملموسٌ وبنّاء في المجالات العمليّة.

لقد أرسلنا معهم الكتاب أوّلًا، و«الميزان» يشير إلى أنّ كلّ نبيٍّ يأتي يحمل إلى جانبه هذا الميزان. فهل يعني ذلك أنّ كلّ نبيٍّ يأتي يحمل إلى جانبه ميزانًا صغيرًا أو كبيرًا؟ كلّا، إنّ الميزان يعني ذلك الجهاز الذي يحقّق التوازن والتعادل الاجتماعيّ. الميزان هو تلك الوسيلة التي يمكن من خلالها تحقيق العدالة والتوازن الاجتماعيّ؛ ومن المعلوم في هذا المجال ضمنًا أنّ المسألة ناظرة إلى المجتمع. فماذا كان النبيّ ليفعل بالميزان لو لم يكن من المقرّر أن يكون على رأس المجتمع وأن يقوم بتشكيل المجتمع؟ فماذا سيفعل بذاك الشيء الذي يمكنه أن يحقّق الاعتدال والتوازن الاجتماعيّ؟ وما هي تلك الوسيلة التي أرسلت مع الأنبياء لكي يوجدوا مثل هذا الاعتدال والتوازن الاجتماعيّ؟ إنّه عبارة عن الأجهزة القضائيّة الإلهيّة، هذا أوّلًا، والمقرّرات القضائيّة ثانيًا، وتنفيذ وتطبيق القانون والضامن لتطبيقه وإجرائه؛ [فهذا] ما يمكن أن ينطبق عليه الميزان:

يوجد مقرّرات ويوجد ضمانة لتنفيذها ويحتاج الأمر إلى شاهدٍ ورقيب على تنفيذ المقرّرات وتطبيقها، وهذا هو الشيء الذي يُعبّر عنه اليوم في عرف الدول الديمقراطيّة بـ«السلطة التنفيذيّة» التي هي بحسب المصطلح «الحكومة». فالسلطة التنفيذيّة هي ذلك الجهاز الذي يمتلك الإشراف والرقابة على تطبيق المقرّرات في المجتمع، في البلاد التي يوجد فيها حكومة ومجلس وتشريع وتنفيذ. فمن الممكن أن تكون السلطة التنفيذيّة عبارة عن هذا الميزان.

وأنا قمت بمراجعة الأحاديث الواردة في ذيل هذه الآية، ورأيت أنّ من الأمور التي فُسّر بها «الميزان» هو قولهم أنّ الميزان هو الإمام، ورأيت أنّ الأمر صحيحٌ تمامًا وهذا التطبيق والانطباق هو ما نستلهمه من هذا الحديث. فالميزان هو الإمام، والإمام هو ذاك الإنسان الذي يجب أن يفصل بين الحقّ والباطل في المجتمع ويشخّص ويميّز الصفوف، وهو الذي ينبغي أن يرسّخ الاعتدال والتوازن الاجتماعيّ، لأنّه هو نفسه حاكم المجتمع. بالتأكيد، هناك تصوّرات واستنتاجات عاميّة خاطئة من هذه الجملة أو ذاك الحديث، لعلّ البعض قد وقع فيها؛ ونحن لا نتعرّض لتلك التصوّرات الآن، بل نقول ما ذكرناه هنا ونأتي على ذكر ما نعتقده في هذا المجال. إنّ الإمام هو الميزان والمعيار وعلى أساسه تُقاس الحسنات والسيّئات، ويتمّ فحص أيّ طريق نريد أن نسلكه بناءً على مسلكه؛ هذا بالإضافة إلى أنّه هو المشرف على الناس والرقيب عليهم الذي لا يسمح لهم بالخروج عن التوازن والاعتدال في المجتمع، كما أنّه يشرف على المقرّرات؛ وتؤيّد الرواية هذا المعنى. فالميزان إذًا هو تلك الوسيلة التي تترسّخ بها حالة الاعتدال والتوازن الاجتماعيّين، وهو ما أُنزل مع النبيّ.

فلماذا كانت مثل هذه الأعمال؟ وماذا كان يريد النبيّ أن يفعل بالكتاب؟ بل نسأل ما هو لزوم الأنبياء من الأساس؟ وما هو دور الميزان في هذا المجال؟ ولأيّ شيءٍ كان الكتاب؟ إنّ السبب الأساسيّ هو ﴿لِيَقُومَ

النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ . ويمكن التعبير عن قوله تعالى بحسب الترجمة الفارسيّة بمعنيين أو نحوين، والتفسير بأيّ نحوٍ من النحوين سيكون له معنًى. فقوله تعالى وهو المعنى الذي اخترناه هنا وفسّرناه. أمّا المعنى الآخر، فأذكره لكم الآن. ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ، قد ذكرنا بين قوسين بشأنه: البيئة العادلة وبيئة المساواة. فالناسَ يقيمون الحياة العادلة، هذا معنًى. والمعنى الآخر هو: لكي يعيش الناس ويقوموا على أساس القسط وعلى أساس المساواة. لقد ذكرت أنّنا هنا نستطيع أن نفسّر الكلام على نحوين، ولو دقّقنا لوجدنا أنّ هنالك تفاوتًا بين النحوين بلحاظ التجزية والتركيب اللغويّين، إلّا أنّ مفاد المعنيين واحدٌ، وهذا ما أردت أن أبيّنه لكي لا يرد أيّ إشكالٍ بنظر البعض على ما يمكن أن يُعبَّر عنه بمثل هذه المفردات.

والحاصل المُستفاد من معنى قوله تعالى ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ هو أنّ الناس يجب أن يعيشوا في بيئة عادلة، وتتفاعل حياتهم ضمن هذا المجتمع أو النظام العادل؛ وإلى هذا المعنىً هدف الأنبياء وجاؤوا من الأساس. فنقول إذًا لقد بُعث الأنبياء من أجل تشكيل النظام والبيئة العادلة، وجاؤوا من أجل أن يجعلوا هذا العالم عادلًا؛ فيتحوّل المجتمع والنظام إلى حالة العدالة؛ ونؤكّد على أنّ هذا هو الأصل الذي قامت عليه رسالة الأنبياء. وممّا لا شكّ فيه أنّه في ظلّ النظام العادل، سيجد الناس الفرصة المناسبة للوصول إلى التكامل والتسامي.

وبعدها يقول تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ ، أجل إنّ الله ينسب إنزال الحديد والمجيء به إلى نفسه، ولهذا نسأل: هل أنّ مجرّد الكلام والوعظ يكفي لأجل أن يأتي الناس ويحقّقوا هذا النظام العادل؟ وهل ستسمح الشياطين والذئاب والناهبون والسباع ببقاء هذا النظام العادل، على فرض تمكّن الناس من إقامته؟ فلهذا أنزلنا الحديد، وهو من أجل أن يتمّ الدفاع عن هذه القيم الأصيلة بواسطته. وقد راجعنا كتب الحديث ها هنا، ووجدنا أنّ الإمام علي (ع) عندما يفسّر هذه الآية ويصل إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا

الْحَدِيدَ ﴾ يقول: «هو هذا السيف»[٥٢]؛ السيف والرمح والأسلحة التي تُصنع من الحديد؛ فالله تعالى يأتي على ذكر السلاح إلى جانب دعوة الأنبياء؛ ذكر الأسلحة والقوّة القاهرة من جانب ربّ العالم، إلى جانب الوعظ الذي يُفترض بالأنبياء أن يقوموا به، وإلى جانب مبدأ تشكيل النظام التوحيديّ والإلهيّ. ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فهذه المتانة والصلابة الشديدة، وأيضًا ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ - حيث إنّ الله يعلم - يعني ها هَنا التشخّص والظهور والتعيّن في الخارج. ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ فالنصر هنا بالغيب يرتبط بالإيمان بعالم الغيب وهو العالم غيرَ المرئيّ، فأولئك الذين لم يروا الله، وبعضهم لم يرَ الأنبياء، يؤمنون به وينصرونه، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فقوّة الله لا تُقهر.

تأمّلوا في هذا الكلام، حيث إنّ تتمّة هذه الآيات حافلةٌ بالمعاني الجليلة. فما ترونه في آخر أيّة آية، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ كلّ هذه ليست على نحو الصدفة، ولَيس الأمر مشابهًا لما يفعله الشاعر في آخر الشعر لأجل مراعاة القافية حيث يلصق ما يريد وما يحلو له، فالأمر ليس كذلك؛ بل كلّ جملة من هذه الجمل الموجودة في آخر الآيات قد وردت بما يتناسب مع مضمون الآية وهي تحمل معها معنًى أو نكتةً خاصّة، فعليكم أن تتوجّهوا وتلتفتوا إليها؛ والأمر ينطبق على هذه الآية الشريفة أيضًا. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾، فلا تتصوّروا أنّ الأنبياء جاؤوا ولا يستطيعون أن يحقّقوا هَذا المجتَمع الذي رسمنا أبعاده وأن يجعلوا الناس يقومون بالقسط. كلّا، لأنّ الله الذي أرسلهم وبعثهم قويّ، فلا تخافوا من أنّ أنبياء الله سيُحاربون ويأتي من يعارضهم لأنّ

---

(٥٢) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة** (قم: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، لا تاريخ)، الجزء ٢٠، الصفحة ٢٠٨.

اللّه عزيز ولا يمكن أن يُهزم. وأنا فسّرت كلمة العزيز في النهاية بمعنى الذي لا يُهزم. وما جاء في المعاجم اللغويّة أنّ معنى العزيز هو الذي لا يُغلب، فهو الذي يغلب ولكن لا يمكن أن نجد من يتغلّب عليه. ووجدنا في اللغة الفارسيّة كلمةً واحدةً وهي جميلة ومختصرة، فإنّ اللّه قويّ ولا يُهزم، هذه آيةٌ. أمّا الآية الأخرى من سورة الأعراف، فقد سبقتها آياتٌ تتحدّث عن موسى عليه السلام، ونحن ها هنا لا ندخل في بحث مقدّمات ما جرى بالنسبة للآية التي جاءت بعدها لأنّنا أردنا أن نفسّر هذه الآية وقد أتينا على آيةٍ تسبقها لكي يتّضح المطلب.

فإنّ الحديث هو عن المؤمن أو المؤمنين الذين يخاطبون اللّه، ونسأل عن الكلام الذي كانوا ينطقون به، فالتفتوا جيّدًا ودقّقوا واستمعوا جيّدًا إلى الآية لكي نصل إلى مورد الشواهد، حيث يقول: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ متوجّهين إلى الرّب المتعال ﴿في هذه الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْك﴾ إشارة إلى أنّهم اهتدوا الطريق إلى اللّه. فقال، (أي أنّ اللّه تعالى يقول في جوابهم): ﴿عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ﴾. بالطبع، إنّ إرادة اللّه ليست اعتباطيّةً أو جُزافيّة - كما يَحصل للناس حيث يفعلون ما يحلو لهم - فيعذّب أو لا يعذّب. كلّا، فإنّ إرادة اللّه تتبع المعايير والملكات التي جعلها اللّه بنفسه. فإنّ اللّه تعالى يريد أن يعذّب الأشرار والسيّئين، ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ﴾، وهنا ينبغي أن لا يختلط علينا الأمر ما بين «أصيب» و«آسيب» - التي تعني بالفارسيّة الضّرر - بل أصيب بمعنى الإصابة، لكنّنا هنا فسّرناها بمعنى الضرر وقلنا إنّ اللّه يوصل هذا الضرر بواسطة عذابه الذي يصيب به من يشاء. ﴿وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فإنّ اللّه قد وسع برحمته جميع الأشياء وظلّلها بها، ﴿فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ﴾[٥٣]. فمن هم هؤلاء الذين يؤمنون بالآيات ويتّقون ويزّكون؟

(٥٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

الجواب يأتي مباشرةً ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾[٥٤]، لقد ترجمنا [كلمة أمّيّ] بنفس الكلمة اَلتي في اللغة الفارسيّة وكتبنا أمّيّ بمعنى غير المتعلّم وبعضهم يقول إنّ الأميّ هو من عوام الناس، ومن السواد الأعظم في المجتمع، والبعض يقول إنّه يرجع إلى الأمّ ولا يكون تحت تأثير الثقافات أو الآراء المختلفة. والبعض يقولون إنّ الأميّ يرجع إلى أمّ القرى أي مكّة؛ ولوجود مثل هذه الاختلافات، فلم أرد أن أقدّم تحقيقًا في هذا المجال، فأبقيت على الكلمة نفسها كما هي، فالأميّ هو هذا النبيّ ﴿الَّذي يَجدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراة وَالْإِنْجِيل﴾ حيث إنّ كلًّا من التوراة والإنجيلَ قد بشّر بمجيء هذا النبيّ. ونَسألَ عن خصائص هذا النبيّ وصفاته، فيأتي الجواب، الذي ينبغي أن ندقّق فيه جيّدًا، ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوف﴾ والمعروف هو الفضائل والحسنات المعروفة بالنسبة للعقل والفطرة الإنسانيّة، ﴿وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَر﴾، والمنكرات هي الأشياء التي يستنكرها العقل والفطرة الإنسانيَّة؛ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبات﴾، حيث تشير إلى التحليل والإمكانيّة والتسهيل. والطيّبات هي تلك الأشياء الجيّدةً والحسنةً في الدين؛ ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾، حيث إنّ الخبائث عبارة عن تلك الأشياء السافلة المنحطّة، فيتَمّ تحريمها وحرمان الناس منها وتقصير أيديهم عن الوصول إليها، وهذا هو ديدن المجتمع الإسلاميّ.

وفي المجتمع الإسلاميّ، إنّ جميع الأشياء التي تكون لصالح الإنسان وفكره وقلبه وروحه وجسمه توضع في متناول أيدي الجميع، كالعلم والمعرفة والتقوى والمال، كلّ شيءٍ يكون مفيدًا ونافعًا للإنسان فإنّه يوضع في متناول الجميع، وأمّا ما يكون سيّئًا للإنسان فلا ينبغي أن يكون في متناول أيّ إنسان، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾ إمّا أن تكون بمعنى منع عرضها أو بمعنى إخراجها من متناولَ الأيديَ من خلال القوانين الإلزاميّة.

---

(٥٤) سورة **الأعراف**، الآية ١٥٧.

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ وهي الأحمال الثقيلة والأوزار، فمن خصائص النبيّ أن يضع أوزار الجهالة وأوزار العادات والأعراف المغلوطة، والأنظمة المنحطّة وغير الإنسانيّة، وأوزار كلّ أنواع الديكتاتوريّة والاستبداد والتسلّط والاستغلال [عن الناس]. ﴿ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم ﴾ تلك القيود والسلاسل التي كانت تقيّد أقدامهم تتفكك وتحلّ. وهل كانت هذه السلاسل والقيود موجودة في الأرجل؟ وهل أنّ النبيّ عندما بُعث جاء إلى أهالي مكّة جميعًا فوجدهم مغلولين، أي كانت الأغلال في أعناقهم؟ وهل كان الجميع سجناء؟ حسنٌ، من الواضح أنّ القضيّة لا ترتبط بالأغلال والسلاسل المعدنيّة. نعم كان هناك أغلال وسلاسل، لكن عليك أن تفكّر بنفسك وتعرف ما هي. إنّها أغلال وسلاسل تأسر الناس من خلال فرض ما ينبغي أن يستمعوا إليه، ومن خلال فرض الأعراف والسنن من قبل الناس أنفسهم. هنا، يأتي النبيّ من أجل أن يحلّها ويضعها عنهم؛ بالطبع، إنّ هذا لا يحدث إلّا في ظلّ تشكيل النظام الإنسانيّ والتوحيديّ. ﴿ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾، المؤمنون هنا يعظّمون النبيّ ويجلّونه، ﴿ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ والنور الساطع المبيّن هنا هو نور القرآن النازل وهم يتّبعونه ويلحقون به، ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾، فلهم الفلاح والنصر والوصول إلى الهدف والمقصد.

الجلسة الثامنة عشر: أوّل ترانيم الدعوة

الأحد، ١٩ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [55].

(٥٥) سورة النحل، الآية ٣٦.

إنّ هدفنا من هذا البحث هو الإجابة عن السؤال الذي يرتبط بماهيّة وطبيعة الترانيم الأولى لدعوة الأنبياء. وفي ظلّ الأبحاث التي سبقت، اتّضحت، لكلّ من كان متوجّهًا ودقّق في هذا المطلب، طبيعة أعمال وأدوار الأنبياء في هذا العالم، وما هو الهدف الذي جاؤوا من أجله، وكيف كانوا يتابعون عملهم، وكيف كانوا يؤمّنون مستلزمات تحقيق أهدافهم.

ففي البداية، يكون الأمر مرتبطًا بالهدف من الدور الذي يقوم به الأنبياء والفائدة المرجوّة من مثل هذا الدور الذي يقومون به وكيفيّة تأمين ما يتطلّبه هذا الدور الذي جاؤوا من أجله.

أمّا البحث في هذه الجلسة، فهو يدور حول سؤال يطرح بعد أن حدّدنا طبيعة العمل والدور الذي يريد الأنبياء الإلهيّون العظام أن يضطلعوا به، أي إيجاد الحكومة والمجتمع والنظام التوحيديّ والقضاء على النظام الجاهليّ والشرك وإيجاد البعثة العظيمة في قلب المجتمع، وهو: من أين تبدأ هذه الأعمال التي تُعدّ هدف الأنبياء؟ إنّ قضيّة نقطة البدء تُعدّ قضيّةً مهمّةً جدًّا. ففي جميع الأنشطة والفعّاليّات التي يقوم بها الإنسان أو أيّة جماعةٍ أو مجتمع - حيث يُطرح العمل الفلانيّ الذي ينبغي أن نقوم به أو ذاك المشروع الذي ينبغي أن يُنفّذ أو ذاك البرنامج الذي ينبغي أن يُطبّق؛ يبرز مثل هذا المطلب بالنسبة لهذه المجموعة، أو غيرهم ممّن تنتمي إلى الفكر الفلانيّ أو المسلك الفلانيّ أو حتّى تلك الأمّة، أو أحيانًا بالنسبة لفردٍ واحد - فإنّهم يتساءلون عن نقطة بدء العمل الذي يرتبط بهذه المبادئ والأعمال المهمّة التي تبرز، ويكون هذا السؤال من أهمّ القضايا المطروحة في البين، فإنّ نقطة الشروع هي قضيّةٌ مهمّةٌ جدًّا.

فلو أنّ نقطة البدء عُيّنت بشكلٍ صحيح واختيرت في محلّها، فإنّ أمل الوصول إلى النتيجة وتحقيق المطلوب من هذا المشروع أو البرنامج يصبح كبيرًا؛ أمّا لو تمّ اختيار النقطة الخاطئة، لا يعني عدم الوصول إلى المقصد، وعدم تحقّق الهدف من هذا العمل. كلا، من الممكن أن يتحقّق

الأمر، ومن الممكن أن يصل إلى هدفه، لكنّ الوصول سيكون صعبًا وشاقًّا. ولهذا، تكون نقطة البدء من هذه الجهة مهمّةً جدًّا، حيث إنّها ستكون متكفّلة وضامنة لنجاح ذلك العمل إلى حدٍّ كبير وبنسبةٍ عالية، أي فيما لو تمّ البدء من النقطة الصحيحة. وبشأن عمل الأنبياء نقول أوّلًا، إنّ التعرّف على قيمة أعمالهم توجب علينا أن نتعرّف على نقطة البداية فيها. فما أجمل أن نتعرّف على هذه القضيّة عن طريق المعرفة الكاملة بمجال عمل الأنبياء. وهو الأمر الذي نودّ أن نحقّقه، ونسأل: من أين بدأ هؤلاء الأنبياء؟ وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الأمر سيكون عبرةً بالنسبة لنا، فلو أنّنا شاهدنا أنّ الأنبياء يتصرّفون وفق نهج خاص وأسلوب معيّن دون استثناء، فإنّ هذا الأمر يمكن أن يكون درسًا لناً، وذلك لأنّنا أتباع الأنبياء والسالكون خطاهم والسائرون على دربهم.

لهذا، فإنّ الأمر مفيدٌ من عدّة زوايا وهذا ما يحتّم علينا أن نتابع القضيّة إلى نهايتها. وقد سبق أن ذكرنا أنّ بدء عمل الأنبياء الإلهيّين العظام هي عبارة عن بيان لبّ وأساس وروح مذهبهم. فالأنبياء لا يجاملون الناس أثناء البدء بالثورة والبعثة الاجتماعيّة والعقائديّة أبدًا. إنّ الأنبياء لا يمكن أن يستعملوا أسلوب المراوغة مع الناس ولو لمدةٍ معيّنة، فيطرحون عليهم كلامًا مختلفًا أو شعارات مغايرة، ثمّ بعد انقضاء هذه المدّة وبعد أن يحقّقوا بعض النجاحات يبدأون بطرح ذلك الشعار الأساسيّ! كلّا، فهم يتصرّفون ومنذ البداية بكلّ صدق ودقّة وصلاح، ويبيّنون أهدافهم الواقعيّة والنهائية؛ فما هي هذه الأهدافٍ؟ إنّ تلك الأهداف هي عبارة عن التوحيد.

وكما بيّنّا، فإنّ التّوحيد هو كلّ شيء في مدرسة الأنبياء عليهم السلام. إنّ التوحيد ومعرفة الله هما أساس التكامل والرقيّ لروح الإنسان وهو الهدف الأعلى والأسمى للأنبياء، بل هو الهدف النهائيّ أيضًا. وقلنا إنّ أطروحة التوحيد هي عبارة عن إيجاد البيئة الإلهيّة وتحقيق المجتمع والنظام الإلهيّ، النظام العادل غير الطبقيّ والنظام الذي لا يوجد فيه

استغلال أو ظلم؛ هذه هي البيئة المناسبة التي تحدّثنا عنها سابقًا كضرورة لتربية هذا الكائن الإنسانيّ.

ففي مدرسة الأنبياء ومنهجهم، يعدّ التوحيد كلّ شيء. التوحيد يؤمّن الهدف النهائيّ والغائيّ للأنبياء؛ إنّه الاعتقاد بتوحيد الله ووجوده ووحدانيّته؛ وقلنا أيضًا إنّ تلك البيئة الضروريّة لبناء الإنسان وصناعته، والمصنع الذي ينبغي إيجاده ليخرّج الإنسان الحقيقيّ، هو عبارة عن التوحيد الذي يُعدّ أفضل وأبلغ شعار؛ وذلك لأنّ المجتمع التوحيديّ هو المجتمع الذي لا يكون فيه سيادة وربوبيّة لأحدٍ إلّا الله. وفي هذا المجتمع، لا يُعبد ولا يُطاع إلّا الله؛ ولا يحقّ لأحدٍ، بل لا يوجد، في هذا المجتمع التوحيديّ من يفرض التشريعات والتكاليف على الآخرين. ففي المجتمع التوحيديّ، لا يوجد من يدعو الناس إلى طاعته حتّى لو كان نبيًّا، حتّى النبيّ الذي هو خليفة الله، ﴿وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوني وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نَفْسي﴾[٥٦]، إلى آخر الآية؛ وهذا الخطاب الذي يتوجّه من قبل الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يشير إلى تنزيه الربّ المتعال عن أيّ تعليم خاطئ أو تربيةٍ غير صحيحة يمكن أن يقع فيها النبيّ تجاه قومه؛ فالنبيّ الذي يعتصم بالله لا يقول إلّا الحقّ، ولا ينطق إلّا بالأمر الصحيح.

ويوجد آيةٌ أخرى في هذا المجال لعلّها أكثر تناسبًا مع ما نحن بصدده، وهي التي تقول بأنّه لم يكن هناك من نبيّ أو لا يوجد نبيّ يحقّ له أن يقول للنّاس كونوا عبادًا لي. ولو أردتم، يمكنكم أن تتعرّفوا عليها من خلال معجم كشف الآيات، فلا يحقّ لأحدٍ من الأنبياء أن يقول للناس إنّ عليكم أن تعبدوني وأن تصبحوا عبيدًا لي. بالطبع، من الواضح جدًّا أنّ النبيّ لا يصرّح أبدًا ولا يقول للناس: أيّها الناس كونوا عبيدًا لي؛ بل المقصود أنّه

---

(٥٦) سورة المائدة، الآية ١١٦

لا يحقّ لأيّ نبيٍّ أن يدعو الناس إلى طاعته بدون قيد أو شرط، وهذا يعني أنّ الحقّ يكون لله فقط. فإذا كان الأمر بالنسبة للنبيّ هو كذلك، فإذا كان العبد الذي اصطفاه الله لا يمتلك الحقّ ليتصرّف في نطاق حكومة الله وملكه، وإذا كان حامل رسالة الوحي الإلهيّ غير قادرٍ على دعوة الناس إلى طاعته بغضّ النظر عن الله، فإنّ حال من سواه سيكون واضحًا ومعروفًا. إنّ القوى السياسيّة والاستبداديّة عبر التاريخ، التي فرضت نفسها بالقوّة على مدى عمر البشريّة وهي الفترة الممتدّة الطويلة وكلّفت الناس وألقت على عاتقهم التكاليف، قد تصرّفت من الناحية العمليّة خلافًا للتوحيد. والتوحيد يرفض كلّ هؤلاء، هذا هو المعنى الدقيق للتوحيد. وأكرّر إنّ معنى التوحيد هو هذا الشيء. وإذا كان هناك من لم يفهم هذا الأمر من التوحيد، فمن المحتّم أنّه لم يُطالع حول هذه القضيّة أو أنّه لا يمتلك الفهم المطلوب، لأنّها تُعدّ من واضحات التوحيد القرآنيّ: التوحيد في العبادة والتوحيد في الطاعة، وهو ما أشرت إليه بصورةٍ مختصرة في بحث التوحيد سابقًا. إنّ الأنبياء عندما يدخلون إلى أيّ مجتمعٍ، فإنّهم بمجرّد أن يقولوا «لا إله إلّا الله» يصبح كلّ صديق أو عدوٍّ مطّلعًا على القضيّة وماهيّتها. التفتوا جيّدًا، إنّ القضيّة غاية في الأهميّة.

إنّ أهميّة القضيّة هي هنا، ونلاحظ وجود حساسيّة وإدراك للناس في زمان الأنبياء لهذه القضيّة واختفاء هذا الإدراك فيمن أتى بعدهم في الأزمنة اللاحقة، كحالنا أنا وأنتم، فما هي علّة هذه القضيّة؟ إنّ الأنبياء بمجرّد أن جاؤوا، ومنذ الخطوة الأولى التي خطوها، تشخّص أصدقاؤهم وأعداؤهم. فنبيّنا، ومنذ اليوم الأوّل الذي جاء فيه من جبل النور وغار حراء ونزل إلى ذلك الوادي غير ذي الزرع، والذي كان بمنزلة مقبرة الفضائل، قرّر أن يذهب إلى [الناس] ويتلو عليهم ترانيم التوحيد العذبة. ومنذ اللحظة الأولى، قرّروا أن يعارضوه ويواجهوه، وقد اتّخذت تلك المعارضات أشكالًا مختلفة. لقد تمّ تشخيص أعداءه منذ البداية ومنذ

اليوم الأوّل. لقد عرف أولئك الذي كانوا يريدون أن يقمعوا الرسول أنّ عليهم أن يفعلوا ذلك ولم يكن الأمر مخفيًّا على أحد. وفي المقابل، فإنّ كلّ من كان من تلك الشريحة التي يجب أن تؤمن - حيث كان إدراكهم وشعورهم وفهمهم وتوفيقهم أكثر - كان إدراكه منذ البداية وفهمه على أوّل الطريق لما كان يقوله النبيّ أو يدعو إليه أسرع من غيره. بناءً عليه، فمنذ بداية بعثة نبيّنا، كان الأصدقاء والأتباع وأولئك الذين كان يحيطهم ويعمل من أجلهم معروفين؛ وكذلك الأمر بالنسبة للأعداء، أي أولئك الذين كان على النبيّ أن يواجههم، فقد كانت كلّ طائفة منهم تدرك جيّدًا ماذا كان يقول النبيّ في هذا العالم وماذا أراد أن يقول. إنّ هذا الكلام الذي لا أفهمه أنا وأنت يا صاحب الجناب العالي بعد كلّ هذه الفترة - بحيث يجب علينا أن نجلس سويًّا، وأقوم أنا بشقّ النفس والصراخ من أجل أن أبيّنه لكم، وهو من الواضحات الإسلاميّة؛ وأنا لا أقول إنّ هذه المطالب والمسائل [تُطرح] لأوّل مرّة، ولكن على كلّ حال هي جديدة وغير مسبوقة أو أنّها لدرجةٍ ما غير مسبوقة مقارنةً بالكثير من المطالب الأخرى - إنّ هذا المطلب الذي يجب علينا الآن أن نتوقّف عنده ونتحدّث معكم بشأنه من أجل أن نثبته ونستدلّ عليه ونوضحه، لقد كان مطلبًا يفهمه ذلك الأعرابيّ الذي يعيش في الصحراء، أو ذاك الذي يعيش في المدينة أو في الحضر في زمان بعثة النبيّ من أوّل جملة.

ها نحن اليوم نحتاج لأن نتحدّث إليكم ونقول إنّ روح التوحيد هي عبارة عن نفي كلّ نوع من أنواع القوى، أو كلّ سلطة إلّا سلطة الربّ. لقد فهم أبو لهب هذا المطلب منذ بداية البداية، وكذلك أدركه كلٌّ من الوليد بن المغيرة المخزوميّ سيّد قريش، وأبو جهل(٥٧)، الذي يُعدّ أيضًا من سادة قريش، كذلك أميّة بن خلف(٥٨) وغيرهم وغيرهم، وكلّ سادة قريش أدركوا ذلك

(٥٧) أبو الحكم عمرو بن هشام والذي سمّاه النبيّ أبو جهل، كان له الكثير من الأفعال من أجل منع انتشار الإسلام ومنها مؤامرة قتل النبيّ الأكرم وتوزيع دمه على القبائل. وقد قُتل مع مجموعة من زعماء الشرك في معركة بدر.

(٥٨) أميّة بن خلف رئيس عشيرة بني جُمح من قبيلة قُريش، ومن أصحاب النفوذ في هذه القبيلة. دعا الناس لمواجهة

منذ البداية وفهموا أنّ القول بأنّ «لا معبود سوى الله» لم يكن مجرّد دعوة إلى قضيّة اعتقاديّة بحتة، بل هو دعوةٌ إلى مسألة اجتماعيّة. ممّا يعني بالنسبة لهم أنّ أميّةً بن خلف لن يكون كما كان، وكذلك الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل[٥٩]، وفلان وفلان وفلان. وكلّ زعماء قريش. هذا ما فهموه وأدركوه منذ البداية؛ ولأنّهم عرفوه، فقد انبروا إلى معارضته ومواجهته.

فهل كنتم تتصوّرون أنّ علّة مخالفة كفّار قريش وزعماء الكفر والضلال للنبيّ، هي أمرٌ آخر غير أنّهم كانوا يرون مقاماتهم وموقعيّتم الاجتماعيّة في خطر؟ هل أنّ قلوبهم كانت تتحرّق لتلك الأصنام!؟ هل كانوا مؤمنين بتلك الأوثان لهذه الدرجة؟ نحن لم نرَ ولا حتّى مرّةً واحدة في الطبقات الاجتماعيّة العليا، وفي أيّ زمنٍ من الأزمنة، أشخاصًا مؤمنين واقعيّين تتحرّق قلوبهم من أجل الدين وهم مستعدّون لأن يضحّوا من أجله ومن أجل المقدّسات، مهما كان هذا الدين ومهما كانت هذه المقدّسات؛ وأيّ شخص كان قد قال ذلك على مرّ الزمن، فإنّه يكون قد قال هذا الكلام عن غير وعيٍ، لأنّ التجربة قد أثبتت بأنّ قوله غير صحيح. ففي تلك الطبقة التي كان أمثال العاص بن فلان، وأميّة بن فلان، والوليد بن فلان من أبنائها، لا معنى من الأساس وجود أشخاص متعلّقين ومنتمين ومتمسّكين بدينهم إلى هذا الحدّ بحيث يعارضون النبيّ ويتمرّدون عليه ويخالفونه ويواجهونه بسبب قيامه بالتجرّؤ على أصنامهم؛ لأنّهم لا يمتلكون مثل هذا الإيمان القويّ من الأساس ولا يمكن أن يمتلكوه. بالطبع، كان هناك نوعٌ من الاعتقاد أو التعصّب، إلّا أنّ القضايا الاجتماعيّة كانت بالنسبة لهم أهمّ من كلّ شيء وأعلى. لقد شاهدوا أنّ التوحيد سوف يدّمر قصر سيادتهم

النبيّ في بداية دعوته وأذيّته وتعذيبه وتعذيب المسلمين. وهو الذي قام بتعذيب بلال الحبشيّ غلام أميّة بعد أن أسلم، وقد قُتل مع أحد أبنائه في معركة بدر.

(٥٩) العاص بن وائل بن هشام السهمي، من بني سهم القريشيّين، وهو من المخالفين الأشدّاء والمعادين لنبيّ الإسلام، وهو الذي قال عن رسول الله (ص) عندما تُوفّي ابنه القاسم بأنّه الأبتر، وقد أنزل الله به تعالى سورة الكوثر، وذُكر أنّه والد عمرو بن العاص وزير معاوية.

ورئاستهم؛ ورأوا أنّ نفي الآلهة والأرباب، أي إيجاد المجتمع التوحيديّ، يعني أن تكون الحكومة منحصرةً بالله، وكذلك أن تكون الطاعة منحصرةً بالله.

لقد شاهدوا أنّ التوحيد يعني المساواة بين الناس مقابل ربّ العالمين؛ وكانوا يدركون أنّه لو أقيم المجتمع والنظام والأفراد على أساس التوحيد فلن يكون في ذلك المجتمع أيّ تمييزٍ أو اختلاف طبقيّ أو ظلم؛ ولأنّهم فهموا كلّ ذلك وأدركوه، فلم يكونوا مستعدّين أبدًا أن يتقبّلوا هذا النظام أو ينسجموا معه، وقاموا بمعارضته ومخالفته؛ وكان فرعون يمثّل أحد هؤلاء، وكذلك نمرود الذي يشبههم، وكذلك كان زعماء بني إسرائيل في زمن عيسى، وهو ما جرى أيضًا في عاد وثمود. وفي المقابل، جرى ذلك كلّه مع جميع الأنبياء الذين ذكرهم القرآن وتحدّث عنهم وصار وثيقةً متقنةً ومحكمةً. فعندما كان النبيّ يدخل إلى المجتمع ويقول إنّه لا ربّ ولا معبود إلّا الله، وكانت تلك كلمته الأولى، فبمجرّد ما كان ينطق بهذه الكلمة حتّى كان يتقرّر أن يحصل الاصطفاف وتتشكّل الصفوف المتقابلة وتبدأ المخالفة والمعاداة حتّى ولو استلزم ذلك القضاء عليه وإبادته، وقد انجرّ الأمر في بعض الموارد إلى إعدام النبيّ والقضاء عليه.

فأوّل ترانيم دعوة الأنبياء ونقطة بدء أعمالهم، إذًا، هي إعلان التوحيد، أي الإعلان عن الكلام الأخير. وقد كانوا ينطقون بآخر كلمة منذ البداية. أمّا المذاهب والأحزاب السياسيّة في العالم وكلّ أولئك الذين ليس لهم أيّ ارتباط بالله وبالدين، فإنّه ليس لديهم حرج من أن يجمعوا الناس حولهم لفترات زمنيّة ويشغلونهم طوال تلك المدّة بشعارات جوفاء ويلهونهم بها، ويمنّونهم لسنوات طويلة بتلك الأماني العريضة، ثمّ بعد ذلك نرى في النهاية أنّهم لم يكونوا، ومنذ البداية يقصدون ما أعلنوه، وأنّ كلّ ما كانوا يدّعونه كان يدور حول أمورٍ ليس لهم دخلٌ بها. أمّا الأنبياء في المقابل، فقد كانوا يبيّنون ما يريدون بكلّ صدقٍ وصفاءٍ وحسن نيّة، وكانوا يطرحون

على الناس ومنذ البداية ما هو مقصودهم الحقيقيّ، وكانوا يوصلون ما يريدونه إلى تلك الطبقات العليا مثلما أنّهم كانوا يوجّهون خطابهم إلى الطبقات الدنيا؛ كانوا يقولون ومنذ البداية: يا فلان إنّنا نريد أن ننزل أولئك الذين استعلوا إلى الأسفل وأن نرفع من كانوا في الأسفل إلى الأعلى لنجعلهم متساوين، لقد كانوا يقولون كلّ ذلك منذ البداية.

فما هي الفائدة المرجوّة من مثل هذا النوع من الخطاب يا أيّها السيّد؟ فما هو العيب في أن يؤخّر الأنبياء الناس ويؤجّلوهم في البداية، ويشغلوهم بأمورٍ وكلمات جوفاء لمدّة معيّنة، ويظهروا للناس أمورًا لا يريدونها في الواقع، حتّى إذا تحقّق ما يريدون وتمّ ضمانة وصولهم إلى الهدف [بيّنوا لهم حقيقة ما يريدون]، فما المانع من ذلك؟ إنّ المانع في هذا الأمر هو أنّ الدين يتلازم مع الوعي والبصيرة. فلو أنّ الإيمان الدينيّ كان إيمانًا أعمى وبعيدًا عن الوعي فلا فائدة منه؛ يريد الدين لكلّ من يتّبعه ولكلّ من يريد أن يدخل ساحته وبيئته أن يعلم منذ البداية ما هو طريقه الذي يسلكه وإلى أين ينبغي أن يسعى العربيّ الذي كان يعيش في الصحراء والبعيد تمامًا عن كلّ ما يحدث حوله، عندما كان يأتي إلى النبيّ ويسلم بين يديه، فإنّه كان يعلم منذ الساعة الأولى ماذا سيكون، وأنّه لا يسير وراء شيءٍ مجهولٍ مطلقًا، وكان يفهم من النبيّ ماذا يريد منه، وهذا ما كان يجعله قادرًا على أن يصبر ويتحمّل ذلك المستوى بعدها. فبسبب ذلك الوعي والإدراك ولعلمه بما كان يفعل، كان قادرًا على تحمّل كلّ تلك العذابات والآلام والصعاب. وهكذا، كان الأمر دائمًا في كلّ الصراعات والمواجهات والنزاعات وعلى مرّ التاريخ وفي كلّ أماكن العالم، فعندما يقدم أيّ شخص على أمرٍ ما، وهو لا يمتلك الوعي الكافي بشأنه، ولا يعلم ماذا يريد، ويجهل الهدف أو المعشوق الذي يسعى نحوه، فإنّه سيُصاب بالإحباط أو التعب منذ اللحظات الأولى؛ وهذا أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا.

يوجد هنا مجموعةٌ من الناس يركضون بكلّ حماسٍ وشوقٍ، وأنت يا

صاحب الجناب العالي تمشي في الشارع دون هوادة أو قصد وتراهم يركضون فتركض. حسنٌ، فبعد أن تمشي عدّة خطوات، يحقّ لك أن تسأل نفسك، وبالتأكيد سوف تفعل: حسنٌ، لماذا أركض معهم؟ وإلى أين أسير؟ لقد ركضت ربّما لمدّة ساعة حتّى تعالى لهاثي، فما هي نهاية هذا الأمر؟ ولا شكّ بأنّ مثل هذا التفكير سيوجد في نفسك وهنًا، بينما هم يعلمون إلى أين يتّجهون. فافرضوا، على سبيل المثال، أنّهم كانوا مسافرين وقد انطلقت حافلتهم قبلهم وهم الآن يركضون خلفها، أو أنّهم يركضون من أجل الوصول إلى تلك البضاعة الموجودة في الدكّان الفلانيّ، فالهدف بالنسبة لهم واضحٌ، فهؤلاء لن يتعبوا ما داموا لم يصلوا إلى ذلك الهدف، وإذا شعروا بالتعب، فإنّهم سوف يجبرون أنفسهم على تحمّل المشقّات حتّى يصلوا. وهذا، بالطبع، يرتبط بأهميّة الهدف بالنسبة لهم. أمّا أنت الذي لا تعرف لماذا تركض، ولا تعرف ما هو هدف أولئك الراكضين، وإنّما بدأت بالركض معهم جُزافًا وعبثًا، فإنّك وبعد مدّةٍ من الركض ستتوقّف فجأةً وتفكّر في نفسك، وفي حال لم تفكّر في ذلك، فهناك من سيأتي ويلقي في ذهنك وروعك مثل هذه الأفكار التي تتساءل حولها: لماذا؟ ولأيّ هدف؟ ومن أجل أيّ إنسان؟ وعندها، وفي مثل هذه الحالات، سيهمد الإنسان؛ اللّهم، إلّا إذا كان عالمًا ويتحرّك على أساس البصيرة.

وهذا هو الشيء الذي بسببه نرى شابًّا يركل بقدمه كلّ الاشياء التي لها كلّ هذه الأهميّة والشأنيّة عند الشباب، نراه وقد أعرض عن كلّ راحة وهناء وكلّ ما يجلب له الدعة ولا يأسف على شيء. ها هما ياسر وسمّية، ذلك الرجل وتلك المرأة، ذلك الأب وتلك الأمّ، هذان المسلمان النموذجيّان اللذان قد ضحّيا بكلّ تلك الأشياء الجميلة في الحياة وقدّما النفس - والد عمّار ووالدته - فما أعلى وما أسمى مثل هذه الحياة! وسبب ذلك أنّهما في هذا الأمر كانا على بصيرة.

وأنا قد قرأت مؤلّفًا فارسيًّا قبل مدّة بشأن عمّار وياسر لمؤلّفٍ مصريّ،

وأظنّ أنّه كان قبل سنتين أو ثلاث، ووجدتُ في هذا الكتاب خطئين، لكنّ الكتاب جاذبٌ جدًّا وجميل؛ اسمه **الوعد الصادق**؛ وهو كتابٌ في سيرة عمّار بن ياسر وأبيه وأمّه، ياسر وسميّة، وأظّن أنّه من تأليف طه حسين[٦٠]، أو من تأليف أحد الكتّاب المصريّين وقد ترجمه السيّد أحمد آرام[٦١] إلى الفارسيّة وكانت ترجمته جميلةً جدًّا. أيّها السّادة، اقرأوا هذا الكتاب لتروَا كيف نفذ هذا الإيمان في قلوبهم على أساس البصيرة والإدراك والشعور. لقد تغلغل الإيمان على أساس ذلك إلى أعماق قلوبهم؛ ويصف [الكتاب] أحوالهم بصورةٍ رائعة وكيف أنّ إيمان ياسر أوصله إلى ما وصل إليه، وما وصل إليه عمّار، وكيف كان جهادهم، وكيف أنّ المرأة آمنت في البداية ثمّ جعلت زوجها يؤمن، ولم يحدث في نفوسهم أيّ نوع من الاضطراب والتزلزل. بالتّأكيد لو لم يكن الأمر عن بصيرة لما تحمّلوا.

إنّ السبب الذي يجعل الأديان تعلن منذ البداية عن الكلام الأخير وتبيّنه، فتعلن منذ البداية عن أهدافها وسبب نزولها ولا تقوم بالتعمية والتغطية على ذلك، هو من أجل هذا الأمر: وهو أن يدخل الناس المندفعين والمنتمين إلى الدين، إلى الدين عن بصيرةٍ ووعيٍ فلا يتلهّوا بأمورٍ عبثيّة. وهذا هو الذي يمثّل النقطة المقابلة تمامًا لما يُعمل عليه اليوم في عالم الدين. ففي عالم الدين، تُعدّ البصيرة والوعي جريمة [على مستوى] الإنسان المتديّن والإنسان المعادي للدين؛ والعجيب كيف أنّ هاتين الجماعتين، المتديّنة والمعادية، يصلان في بعض القضايا الدينيّة إلى نتيجةٍ واحدة. فكأنّ الإنسان المتديّن والإنسان المعادي للدّين آمنا معًا بأنّ الدين

---

(٦٠) أديب وكاتب ومثقّف مصري، رغم إصابته بالعمى في طفولته نجح في أخذ شهادة الدكتورة من الجامعة الوطنيّة في القاهرة وجامعة السوربون، في فرنسا. ألّف العديد من الكتب، منها حول سيرة حياته تحت عنوان **الأيّام**.

(٦١) السيّد أحمد آرام (١٢٨٣ – ١٣٧٧ ش.) أحد روّاد فنّ الترجمة الذي كان له دورٌ كبير في تقديم ترجمات أمينةٍ ومتقنة وقد درس الحقوق بعد تخرّجه من دار الفنون ولكنّه أعرض عن الحقوق واشتغل بدراسة الطبّ، ثمّ ترك دراسة الطبّ في السنة الأخيرة وشارك في الأنشطة الثقافيّة، كان من أوائل مؤلّفي الكتب الدراسيّة والتعليميّة وله حوالي ١٤٠ عنوان كتاب من اللغة الإنكليزيّة والفرنسيّة والعربيّة، ترجمها إلى اللغة الفارسيّة، ومنها المجموعة الروائيّة **الحياة**، **تاريخ العلم**، **التفسير في ظلال القرآن** وغيرها من المؤلّفات.

هو عدم الفهم، وأنّه يعني إغلاق العين والأذن وعدم التفكير من الأساس. فبالظاهر نقول ويقولون «متديّنين»، حيث إنّ أصول الدين استدلاليّة، وفيها لا ينبغي لأحد أن يقلّد أحدًا، ولكن هل لديك الجرأة لأن لا تقلّد؟ وهل لديك الجرأة لأن تبتعد قليلًا عن التقليد فيما يتعلّق بزاوية من أمور الدين، حتّى ترى مباشرةً كيف أنّك ستتلقّى ضربةً قاضيةً؟ لقد صدّقنا جميعًا أنّ الدين يعني عدم البصيرة وعدم الوعي وفقدان الإدراك وإغلاق العين والتعبّد أثناء السير على الطريق، لأنّنا سمعنا ونعلم أنّ علينا أن نرجع في فروع الدين إلى المتخصّص، وأنّ علينا أن نحدّد المتخصّص ونتّبعه، فتصوّرنا أنّ الدين يكون في جميع قضاياه على هذا المنوال؛ في حين أنّ الأمر على العكس تمامًا من ذلك، والفرق بين هذين الأمرين هو زاوية تبلغ مئة وثمانين درجة.

إنّ الدين هو الوعي والبصيرة من الأساس؛ وهو لا يقول لأيّ أحد إنّ عليك أن تقبل فورًا ثمّ بعد ذلك اذهب وابدأ التحقيق. كلّا وأبدًا، ففي عالم الدين، لا يوجد مثل هذا الكلام. ولو فرضنا أنّك قد قبلت وسلّمت، فما لم يتحقّق هذا الأمر في قلبك، وما لم يكن عن وعي، فإنّك في الواقع لم تكن مسلّمًا أو مصدّقًا. ولو أنّك قبلت الدين، فإنّ الدين ها هنا لا يكون قد قبلك ما لم يحصل الأمر عن بصيرة ووعي؛ وذلك لأنّ الدين قد جاء من أجل إحداث الوعي، وهو يولي هذا الأمر أهميّةً ويعتبره قيمةً. فالبصيرة قيمةٌ أساسيّة في الدين. ولهذا، فإنّ الدين يجعل الإنسان البصير في مقام أعلى وأسمى، وذلك لأنّه يريد للجميع أن يكونوا ومنذ بداية توجّههم إلى الله متوجّهين إليه تعالى عن وعي وبصيرة؛ ولأجل ذلك ومن أجل هذه الأهداف، كان الأنبياء يتطلّعون إلى هذا الهدف ويبيّنونه منذ البداية.

والمطلب الآخر الذي يمكننا أن نستنبطه ونستنتجه في هذا المجال، هو هذا: فما نستنتجه من هذا البحث هما موردان، أو ثلاثة موارد، أحدهما هو هذا الذي ذكرته وهو أنّ الدين يعتبر الوعي والبصيرة أصلًا ولا يتقبّل

المسلم غير الواعي؛ والنكتة الثانية تتعلّق بأتباع الأولياء، أي أولئك الذين يعتبرون أنفسهم وارثي النبوّات لا العلماء فحسب - وإن كان العلماء ورثة الأنبياء حتمًا، لأنّ كلّ ربّانيّي العالم يُعتبرون بأحد المعاني ورثة الأنبياء، وكلّ من يسير على طريق التوحيد، وقد جعل التوحيد معادلةً أساسيّة، يكون هذا الإنسان تابعًا لإبراهيم وموسى وعيسى ومتّبعًا لجميع الأنبياء الأعزّاء والعظماء الآخرين عند الله - فإنّنا نسأل هنا عن الطريق الذي يريد أتباع الأنبياء أن يسلكوه، فما هي تلك النقطة التي يريدون أن يبدأوا منها والتي هي [بنظرهم] أفضل وأكثر قاطعيّة ونتيجة من تلك النقطة التي بدأ منها الأنبياء؟

لماذا لا نعرض عندما نتحدّث اليوم عن الدين هذا التوحيد من البداية؟ لماذا؟ إنّ هذا سؤالٌ يجب أن يُطرح. وهل يوجد شيءٌ آخر؟ هناك حيثما يجري الحديث عن الدين، نتساءل ما هي نسبة التوحيد من هذا الحديث؟ ولماذا عندما نريد أن نجعل الناس متديّنين أو أن نجعل مجتمعنا أو عالمنا متديّنًا لا نبدأ من حيثما بدأ الأنبياء؟ نحن نريد أن نجعل أهل العالم يعتقدون بالإسلام، لكنّنا نسلك الطريق الذي لم يسلكه الأنبياء. يجب علينا أن نطرح التوحيد كما طرحه الأنبياء؛ وإذا لم نتمكّن من طرحه على مستوى العالم والدول، وإذا لم نتمكّن من إيجاد تلك البعثة - بالطبع إنّ الأمر لا يمكن أن يتحقّق بالسهولة - فعلى الأقلّ يمكننا أن نقول للناس على مستوى الدول وعلى مستوى العالم إنّ هدف الأنبياء ومقصدهم هو إيجاد تلك البعثة، فهذا ما يمكن أن نقوله، فلماذا لا نطرحه؟

لماذا نجد المتحدّثين عن الدين يقومون بطرح القضايا الفرعيّة وقضايا الدرجة الثانية والثالثة، عوضًا من أن يبدأوا بالتوحيد فكرًا وعملًا؟ إنّ هذه القضيّة تستحقّ الكثير من الاهتمام والتوّجه. غالبًا ما يُقال لنا: أيّها السيّد! إذا كان لديك اعتراضٌ على بعض الإعلام الدينيّ والتبليغ الدينيّ، فلماذا لا تطرح هذا الأمر مع المبلّغين أنفسهم؟ ونحن نجيب قائلين: أين

يمكننا أن نجد المبلّغين؟ وأين يمكننا أن نجد أولئك الذين نطرح حولهم الإشكالات في كيفيّة الإلقاء والبيان؟ وما هي الضمانة التنفيذيّة لنصيحتنا الصادقة والخيّرة؟

وبالطبع إنّني أقول لكم هذا أيّها السادة الذين تشاركوننا في هذا المجلس، لأنّكم في الأغلب تعرفونني وأنتم مطّلعون على أفكاري وأبحاثي على نحو العموم، ومن الممكن أن يبدو الأمر جديدًا لعدد قليلٍ منكم في محفلنا هذا؛ وإلّا فإنّ أغلب الحاضرين هنا كانوا قد شاركوا لفترات طويلة في أبحاثنا في ذاك المسجد، وفي هذا المسجد. إنّني أعتقد بشدّة بأصالة التبليغ الدينيّ وبأصالة ولزوم وجود قادة الدين وهم علماء الشيعة العظماء؛ وأنا أحبّ العلماء كثيرًا وأعتقد بضرورة وجودهم، وأنّه لو لم يكن العلماء - بالطبع إنّ استخدام كلمة الروحانيّة أو الروحانيّين هو تعبيرٌ خاطئ لكنّه شائعٌ ومتداول، وأنا أقول إنّ مقصدي من كلمة الروحانيّين هو المجتمع العلميّ والدينيّ للشيعة أي روحانيّونا الأعزّاء الذين هم اليوم في هذا السلك وفي هذه الشريحة والطبقة - وإنّني أعتقد أنّهم لو لم يكونوا ولو لم يكن هذا المجتمع العلميّ والمذهبيّ للشيعة لما كان اليوم من الإسلام خبر، ولكان حال المسلمين في أيّامنا هذه أسوأ من ذلك بكثير. وفي النهاية، من الضروريّ أن يكون هناك مجموعة عازمة على إدراك المعارف الإسلاميّة وبيانها، وهذا هو المجتمع العلميّ والدينيّ. فالشاب الفلانيّ، أو التاجر الفلانيّ، أو ذاك المتخصّص في فرع من الفروع التي لا دخل لها بالأمور الدينيّة، بالطبع من الممكن أن يكون أحيانًا قد توجّه إلى هذا الفكر وقام بالتحقيقات وهو يقوم بعرضها وبيانها من خلال الكتابة، والله تعالى يؤيّد ويحفظ كلّ من يقدّم مثل هذه الخدمات للإسلام؛ لكنّه قد لا يكون عملًا مستمرًّا بالنسبة له، فهو هنا يكون هاويًا في هذا العمل بينما المطلوب أن يكون هناك شخصٌ محترف؛ من الضروريّ أن يكون هناك أشخاصٌ محترفون متخصّصون في هذا المجال، وعملهم متمركز في هذه النقطة، هؤلاء هم المجتمع العلميّ

والدينيّ للشيعة أي (ما نسمّيه في إيران) الروحانيّون.

وبناءً على وجود هؤلاء وأصالتهم وضرورتهم، فبالنسبة لكم أيّها السادة الذين تشاركوننا هنا، يا أصدقائي الشباب، أنتم تعلمون أنّني لا أتحدّث انطلاقًا من العصبيّة، وإنّما انطلاقًا من رؤية الواقع، فلا ينبغي أن يكون هناك أدنى شكّ. إنّ وجود وحدة معيّنة (شريحة) باسم الروحانيّين (العلماء) أمرٌ ضروريّ بل من أكثر الأمور ضرورةً؛ لكنّنا نمتلك الحقّ، ونعطي لأنفسنا الحقّ، أن نقول هذا المطلب لأولئك الذين سلكوا هذا الصراط وتلبّسوا بهذا اللباس، مع أنّنا ضمنًا نذعن أنّ هناك مجموعةً منهم تعمل كما نريد. هناك مجموعة من الروحانيّين والمبلّغين هم في الواقع يعملون هكذا مثلما يجب وينبغي، وهناك مجموعةٌ أخرى موجودةٌ في مجال التبليغ لكنّها لا تلتفت من الأساس، وبأيّ نحو من الأنحاء، أنّها في نقطة انطلاقتها في العمل لا تبدأ من حيث بدأ عمل الأنبياء؛ وبالنسبة لهم تكون القضايا التي هي من الدرجة العاشرة أو الدرجة الثامنة أو الدرجة الخامسة أكثر أهميّة وقيمة من قضيّة التوحيد ومن بيان القرآن وأصول الدين والمعارف الإسلاميّة السامية.

نجدهم مستعدّين للبحث لساعات في الصورة والحقيقة التي يكون عليها منكر ونكير عند دخول الإنسان إلى القبر، وهل أنّهما يأتيان من جهة اليمين أم من جهة اليسار بالنسبة للمتوفّى؟! أم أنّهم يأتونه من الأمام؟! وما هي حقيقة هؤلاء؟ علمًا بأنّ قضيّة معرفة هذه الأشياء أو عدم معرفتها ليس لها ذرّة تأثير في كون الإنسان مسلمًا، وليس لها أيّ تأثير في العمل أو في تطبيق الالتزامات الإسلاميّة الموجودة عندنا، فها هنا لا يوجد أدنى تأثير؛ ومع ذلك يطرحون العديد من مثل هذه القضايا! ونجدهم أيضًا يطرحون هذه القضايا في عداد ضروريّات الدين وكأنّها من القضايا التي تُصنّف من الدرجة الأولى في الدين، لكنّهم ليسوا مستعدّين أبدًا أن يتفكّروا في هذه القضيّة المرتبطة بالتوحيد وما يقترحه التوحيد كأصلٍ عقائديّ بالنسبة

لشكل المجتمع والنظام الاجتماعيّ! وهل أنّ هناك أطروحة للتوحيد في هذا المجال أم لا؟ إنّ كلامنا ها هنا هو: أنّه يجب أن نجعل مثل هذه الأمور في الدرجة الأولى.

إنّ من الدّروس التي نستفيدها من عمل الأنبياء ومن نقطة شروع دعوة الأنبياء هو أنّ علينا أن نجعل نقطة شروعنا هي تلك النقطة التي بدأ منها الأنبياء. فلو لم نتمكّن من إنجاز بعثة الأنبياء فعلى الأقلّ يمكننا أن نقول إنّ بعثة الأنبياء هي هذه، وإنّ هدف الأنبياء هو هذا، وإنّ طريقه هو هذا، ونبدأ بالشرح؛ ونشرح الأمر لأنّه عملٌ نقدر على القيام به. فإذا جرى البحث حول نبيّ آخر الزمان، نجدهم يفضّلون تناول القضايا التي هي في عداد الدرجة الرابعة والخامسة من حياته الشريفة، مثل قضيّة عدم وجود ظلّ للسيّد رسول الله؛ أو يأتون بروايةٍ كما في خصال الصدوق أنّ رسول الله (ص) عندما كان يمشي كان يرى من خلفه؛ وبالطبع إنّ المرحوم الصدوق عندما يذكر [هذه الرواية] يقول في تعليقاته: إنّ المقصود هو أنّ رسول الله كان شديد الذكاء والحذر والانتباه، مثل ذلك الإنسان الذي يرى دائمًا كلّ ما حوله. هناك البعض يسيرون خبط عشواء في الشارع ولو لحقهم إنسانٌ وبدأ يسير خلفهم بطريقةٍ استهزائيّة ويقلّدهم ولو لساعةٍ فإنّهم لا يلتفتون؛ فالبعض يعانون في هذا المجال ولا يدركون ما يجري خلفهم. أمّا الإنسان الذكيّ واليقظ، فإنّه يلتفت ويراقب كلّ ما يحيط به وينتبه لأدنى إشارة أو حركة تحدث خلفه ويلتفت إليها، فالصدوق يقول إنّ النّبيّ كان إنسانًا يقظًا جدًّا ورجلًا كيّسًا. هذا هو كلام الشيخ الصدوق، أي كلام عليّ بن بابويه القمّيّ، المحدّث الذي عاش قبل ألف ومئة سنة وكان من أكابر علماء الشيعة، والذي ما زالت كتبه منذ أكثر من ألف سنة وإلى اليوم في أوج الشهرة، فها هي **عيون أخبار الرضا وإكمال الدين ومن لا يحضره الفقيه، والخصال والأمالي** وعشرات الكتب التي طُبعت لهذا العالم الجليل لحدّ الآن، كلّها موجودة وتُعتبر من المصادر الشيعيّة

المعتبرة. هذا الإنسان يقدّم وجهة نظره على هذا النحو. وهنا لا حاجة لي أن أبيّن إذا كان هذا الرأي صحيحًا أم لا، لكنّ أولئك مستعدّون لأن يتعرّضوا لهذا المطلب ولهذا الرأي ولنقده وللإتيان بالآراء الأخرى بشأنه والتعرّض لآراء المحدّثين الآخرين حوله والقيام بالبحث والتفصيل بشأن هذه القضيّة؛ لكنّهم غير مستعدّين للحديث عن الهدف الذي جاء النبيّ الأكرم لأجله من الأساس؛ وما هي أطروحته بشأن شكل المجتمع الإنسانيّ؟ وما هي أقواله بشأن الحكومة؟ وما هو رأيه بشأن كيفيّة تربية البشر؟ وهل أنّ التربية الفرديّة كانت كافيةً بالنسبة إليه؟ أم كان يرى ضرورة تحقّق التربية الجمعيّة؟ فبالنسبة لهم إنّ ما لا يُطرح من الأساس هو هذه الأمور.

إنّ زماننا هو زمانٌ لا يتحمّل فيه العالم الإسلاميّ أي تأخير بشأن طرح هذه القضايا؛ فنحن لا نمتلك الكثير من الوقت في يومنا هذا؛ وفرصتنا محدودة في هذا المجال. فمريضنا اليوم يحتضر وقد حانت ساعته، وعلينا أن نقدّم كلّ ما هو أولى وأن نؤخّر كلّ ما كان أقلّ أولويّة ولو لذرّةٍ واحدة، فنؤخّره بهذا المقدار، إنّ الوقت والزمان بالنسبة لنا في هذا العصر شديد الأهميّة والأولويّة والحساسيّة.

أجل، اتركوا تلك الأبحاث المفصّلة والمسهبة في علم الكلام، بشأن خصائص المعارف التي تندرج ضمن المرتبة الثانية والثالثة والرابعة على مستوى القضايا الإسلاميّة واجعلوها لذلك الزمان الذي لا يكون لدينا فيه أعمال أخرى؛ وعلى الأقلّ بعد أن تكون تلك الأعمال الأساسيّة والأولويّات قد عولجت أوّلًا؛ وكلامنا الأخير هو أنّك إذا لم تتقبّل نصيحتنا فعلى الأقلّ لا تنزعج من أنّنا قد نصحناك، فهذا أمرٌ آخر ها هنا. وإنّ أفضل الناس هو الذي لا ينزعج إذا ما نُصح.

بناءً عليه، فإنّ نقطة شروع دعوة الأنبياء هي التوحيد. وأذكر لكم ها هنا شاهدًا على هذه القضيّة من القرآن وأكتفي به لأنّني لا أريد أن أفصّل ها هنا، والشاهد هو من سورة **النحل** وآيته هي ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ

رَسُولًا ﴾[62] وعلينا أن نتساءل: ماذا كان كلام هذا النبيّ أو دعوة هذا الرسول؟ إنّ رسالته وكلامه كانت عبارة عن ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فهذا هو أوّل كلام الأنبياء. فبمجرّد ما كان الأنبياء يُبعثون، ومن قبل أن يستريحوا من عناء الطريق، كان أوّل كلامهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

إنَّ الطاغوت هو الذي يكون في عداد الأنداد والمنافسين لله. فالطاغوت هو الذي يقف مقابل الله وأوامره مهما كانت هذه الأوامر وكأنّه يناطح ويواجه. وقد يكون الطاغوت في بعض الأحيان هو نفسك، كما جاء: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[63]؛ وأحيانًا يكون الطاغوت هو قلبك الذي فيه كلّ تمريج وسخط؛ وأحيانًا يكون الطاغوت هو هوسك في الليل والنهار، وفي بعض الأحيان، يكون طلب الجاه وحبّ الرئاسة عند الإنسان طاغوته، أو يكون تكبّر الإنسان طاغوته؛ كذا يكون الطاغوت هو تلك القوى الخارجة عن وجود الإنسان، تلك القوى التي نجدها تشمخ وتتسّع وتتمدّد. وعلى كلّ حال، فإنّ الأنبياء بمجرّد أن يُبعثوا يقولون: الله لا الطاغوت. فأوّل جملة كانوا ينطقون بها هي: أن اعبدوا الله وابتعدوا عن الطاغوت ولا تكترثوا به.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أولئك الذين كُتب عليهم الضلالة وكذّبوا الأنبياء لا يمكن أن يتقبّلوا أيّة هداية منه؛ ولهذا نسأل عن عاقبتهم ومصيرهم. فانظروا إلى تلك الحضارات التي انقرضت وبادت، وانظروا إلى تلك الدول والقرى التي أُهلكت، وانظروا إلى بابل وآشور وكلدان[64]، كيف أنّها أبيدت ولم يبقَ منها سوى الاسم يُذكر في صفحات التاريخ؛ وانظروا إلى قدرة

---

(٦٢) سورة **النحل**، الآية ٣٦.

(٦٣) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ)، الجزء٣، الصفحة ١٨٤٨.

(٦٤) بابل وآشور من الحضارات القديمة والتي وُجدت قبل الميلاد في منطقة ما بين النهرين. ومع أفول الحضارة البابليّة ظهرت الحضارة الكلدانيّة محلّها.

فراعنة مصر كيف أنّهم ذهبوا بالمجتمع المصريّ كطيّ السجل للكتب! هذا ما يحدّثنا **القرآن** عنه. فانظروا إلى تلك الأمم والبلدان التي لم تستمع إلى دعوة النبيّ أو تتّبعه كيف كانت عاقبتها، فلقد حُكم عليها بالزوال. والكلام لا يجري ها هنا عن معجزة، بالتأكيد كان هناك معجزات في الزمن الأوّل، لأنّه كان المطلوب أن يزولوا بسرعة، فلم يكن يصحّ أن يُتركوا على مرّ الدهور والأيّام حتّى يصلوا إلى الجحيم والهلاك مثل قوم عاد؛ فهناك كان ينزل العذاب عليهم كريحٍ عاصفٍ أو زلزالٍ أو طوفان أو أيّ شيءٍ يقضي عليهم ويبيدهم.

ولكنّ الأمر عمومًا سيبقى هكذا إلى آخر العالم، فأيّ مجتمع أو أمّة لا تتحرّك على منهج الدين ولا تسير وفق تعاليمه سوف تزول أو تهلك؛ ولا يعني ذلك أنّ كلّ فردٍ من هذه الأمّة ينبغي أن يموت، كلّا، فإنّ هلاك الأمم يأتي بمعنى القضاء على تشكيلاتهم القوميّة؛ فقد تجذبهم قوّة أخرى، فيذوبون فيها ويتحوّلون إلى أجزاء في شعوب ثانية، وتزول ملّتهم من الأساس؛ فهل يمكنكم اليوم أن تحدّدوا أين هي ملّة كلدة؟ وهل يمكنكم أن تحدّدوا أين هي ملّة الآشوريّين أو ملّة بابل؟ فنحن نتساءل أين هي تلك الحضارات التاريخيّة الكبرى والتي ترجع الحضارات البشريّة الأولى إليها؟ أين أصبحت؟ وما هي أخبارها؟ ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. كانت هذه الآية من سورة **النحل**، والآن ننتقل إلى سورة **الأعراف**.

لقد طرحت سورة **النحل** المسألة على نحو كلّي ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾. ففي هذه الآية، يُذكر أنّ جميع الأمم قد تكرّمت في بعثة رسول. أمّا في سورة **الأعراف**، فيُذكر الرسل واحدًا تلو الآخر، وتبدأ من نوح حيث يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إلى قَوْمِه فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[٦٥] فانظروا كيف يدعوهم في أوّل الكلام إلى عبادة الله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إله غَيْرُهُ﴾، لأنّه هو المعبود الحقيقيّ ولا يجوز لكم أن تعبدوا سواه، ﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ

---

(٦٥) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

عَذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ﴾؛ لكنّ قومه أجابوه قائلين إنّنا لا نؤمن بما تقول، وكذا وكذا، وما جرى عليهم من الطوفان؛ وكلّ هذه ليست محلّ بحثنا الآن، إلى أن يصل الدور إلى قوم عاد.

﴿وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُودًا﴾[٦٦]، يُعتبر قوم عاد من القوميّات القديمةَ والغابرةَ، ولعلّهم يرجعون إلى عصر ما قبل التاريخ، لأنّه لم يتمّ الكشف عنهم بنحوٍ صحيح ولم يتّضح ما هو الزمان الذي وُجدوا فيه سوى أنّهم كانوا بعد طوفان نوح؛ وهم يرجعون إلى أقدم الأزمنة والعصور. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتًا فارِهِينَ﴾[٦٧] يبدو أنّهم كانوا يصنعون بيوتهم داخل الجبال، ولا يستبعد المرءَ أن يكون ذلك راجعًا إلى نهايات العصر الحجريّ الذي تحدّث عنه بعض العلماء المادّيّين وأشاروا إلى أبعاده. فالمقصود ها هنا هو أنّهم من الأمم التي عاشت في قديم الأزمان؛ وكان لهم نبيّ يُدعى «هود» وقد قال لهم أيضًا: ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ ، فتراه يحذّرهم من الله ويأمرهم بعبادته لأنّهم ليس لهم من إله سواه.

ولا بأس أن نرى ضمن هذا السياق مدى خطأ وبطلان فرضيّة أولئك الذين يقولون إنّ التوحيد أو الدين عمومًا إنّما يظهر على أثر الوضع الطبيعيّ للبشر، ويتشكّل على أساس الجهل الموجود عندهم، وأنّ الدين قد وصل بالتدريج إلى التوحيد؛ فيقولون إنّ أوّل الأقوام الذين ظهروا على الأرض كانوا مشركين وهذا كلام بعض علماء الاجتماع الذين يذكرون هذا الأمر جزافًا من دون تحقيق. فما أسوأ أن يتحدّث الإنسان دون تحقيق ودون بصيرة، كمثل ذلك الذي يريد على سبيل المثال أن يصف بناء مسجد الإمام الحسن المجتبى، لكنّه لم يقترب منه مرّةً واحدة في حياته، فيقرّر أن يصف ويقول: أجل، إنّني أرى مسجد الإمام الحسن بهذا النحو، وها هي

---

(٦٦) سورة **الأعراف**، الآية ٦٥.

(٦٧) سورة **الشعراء**، الآية ١٤٩.

الأحجار الرخاميّة تغطّي كلّ إيوانه، ويصف الثريّات والمصابيح بنحو ما، ويستحسن جمال تلك الجدران من حيث النقوشات والخطوط؛ وهو لم يرَ مسجد الإمام الحسن ولكنّه سمع أنّ النّاس يأتون إليه كثيرًا فيفترضه أو يتخيّله بناءً على أحداثه؛ في حين أنّه عندما يدخل إلى المسجد سيرى أنّ الأمر خلاف ذلك، فهذا المسجد لا سقف له ولا جدار.

وفي القضايا المرتبطة بعلم الاجتماع، فإنّ أيّ إنسانٍ يتحدّث دون أن يتبصّر أو يطالع فحديثه سيخرج بهذه الطريقة وسيكون مدعاة للاستهزاء والسخرية. نجدهم يتحدّثون فيما يتعلّق بالقضايا المرتبطة بظهور الدين والمذهب وأمثاله من القضايا، ويتحدّثون عن التاريخ دون الالتفات إلى الأديان. حسنٌ، لعلّ هذا هو الدين الذي كان قبل عشرات آلاف السنين، هذا إذا اعتبرنا ذلك التاريخ المعروف في الروايات صحيحًا ومعتبرًا وحجّةً، لأنّه قد مرّ على هبوط آدم سبعة آلاف أو ثمانية آلاف عام، ولعلّ هذه القضيّة قد حدثت قبل ستّ أو سبع آلاف سنة على سبيل الفرض. ثمّ تجدهم يجعلون مثل هذا التاريخ بكلّ هذه التزيينات ويقولون إنّ الأمر كان في البداية على نحو الشرك والوثنيّة ثمّ ظهر التوحيد فيما بعد، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّنا نرى ومنذ قديم الأزمان ومنذ العصور الأولى بأنّ التوحيد كان موجودًا.

على كلّ حال، يقول تعالى لهم: ﴿أَفَلا تَتَّقُون﴾، فهو يريد لهم أن يفهموا التوحيد ويؤمنوا به. وهنا، ذكر ذلك الحوار والمحادثة التي جرت بين النبيّ هود وقومه؛ وسوف أقرأها هنا من القرآن وأترجمها بنحوٍ مختصر. ﴿قالَ الْمَلَأُ الَّذينَ كَفَرُوا منْ قَوْمه﴾، لقد كان وجهاء قومه من الكفّار يقولون له: ﴿إِنَّا لَنَراكَ في سَفَاهَة﴾ فيستسخفّون عقله، ثمّ يقولون: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ منَ الْكاذبينَ﴾. وقد كانت هذه ضمن التهم والأباطيل والظنون الكاذبة التي تُلصق بدعاة الحقّ على مرّ الزمان؛ وأنا سوف أعرض ضمن أبحاثي حول النبوّة في آخر الفصول، ونتساءل حول التهم التي ألصقت

بالأنبياء وعن نوعيّتها وماذا كانت تتضمّن. ولا شكّ بأنّ هذا بحثٌ جانبيّ وهامشيّ. يقولون إنّك رجلٌ سفيهٌ ويتّهمونه بالجهل.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فها هو يكرّر كلامه الحقّ مقابل اتّهاماتهم وحديثهم البعيد عن اللياقة والأدب، ويقول لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾. فالبليغ هنا يقتضي الإيصال وأنا لكم ناصحٌ أمين، فإنّني لم أطلب لكم سوى الخير، وما أريده هو كمالكم وتقدّمكم؛ لذلك فأنا أدعوكم إلى الله وإلى التوحيد. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ فهم يتعجّبون من أنَّ مقام النبوّة قد أعطي لشخص عاديّ يلبس لباسهم ويعيش بينهم. ﴿وَاذْكُرُوا﴾، ها هو يأتي على قضيّة تاريخيّة ويلفت أنظارهم إليها، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ فقد جاؤوا من بعد قوم نوح الذين عصوا، ثمّ يقول: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦٨]، فهذه نعمٌ، منها ما يرتبط بالخلقة والهيئة والقدرة الإضافيّة والتي قد يكون ذكرها سببًا للتوفيق والنجاح والنصر.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ - وهنا انظروا كيف أنّ العدوّ يدرك مباشرةً ماذا تعني العبادة المنحصرة بالله - ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ هل تريدنا أن نترك تلك الأصنام، سواء كانت أصنامًا فاقدةً للروح أو أصنامًا حيّة؛ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، وهم يطلبون أن يأتيهم ذلك الوعد والوعيد الذي كان يحذّرهم منه ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾، فالرجس يكون في وجودكم، والغضب يكون من ناحية ربّكم، فيحيط بكم وينزل عليكم فتصبحوا نادمين. ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ فهي أسماءٌ مجعولة وموضوعة لتلك الموجودات التي اصطنعتموها ومنحتموها

(٦٨) سورة **الأعراف**، الآية ٦٩.

القدرة، ﴿ما نَزَّلَ اللَّهُ بها منْ سُلْطان﴾ ، فإنّ الله تعالى لم ينزل عليها أيّ سلطانٍ، بمعنى أيّة قدَرة أو أيّة حجّة؛ فالحجّة تعني الدليل والبرهان، والسلطان يعني القدرة. فيمكن أن يكون المقصود من السلطان كلا المعنيين؛ فأحد المعاني هو أن نقول إنّ الله تعالى لم يجعل أيّة حجّة أو دليل على صحّة وصدق وثبات هذه الآلهة المعبودة من قبلكم، ولم يرسل لكم تلك الأرباب التي اصطنعتموها؛ والكلام الآخر هو أن نقول كلّا، إنّ الله لم يمنح تلك المعبودات أيّة قدرة، وها أنتم تجعلون هذه الموجودات العاجزة الضعيفة الذليلة التي لا تمتلك أيّة قدرة من جانب الله، تجعلونها إلى جانب الله، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِين﴾ ، فقال لهم ما قال ثمّ أنزل عذاب الله عليهم.

الجلسة التاسعة عشر: الجماعات المعارضة

الاثنين، ٢٠ رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكَذلكَ جَعَلْنا لكُلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً شَياطينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغى إلَيْه أَفْئِدَةُ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخرَة وَليَرْضَوْهُ وَليَقْتَرفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾[٦٩].

(٦٩) سورة **الأنعام**، الآيتان ١١٢ و ١١٣.

ذكرنا أنّ النبوّة هي بعثةٌ اجتماعيّة، وقلنا إنّ من أصول هذه البعثة هو ما يمكن أن نعبّر عنه بنفي الطبقيّة الاجتماعيّة، بمعنى أنّه في البيئة التي تصنعها وتهيّئها نبوّة رسول الله لا وجود لطبقات الضعفاء والعبيد والمساكين والمحرومين من جهة، ولطبقة أصحاب الأموال والمستبدّين والانتهازيّين من جهة أخرى.

فبحسب اطّلاعنا على الإسلام، وكذلك على باقي الأديان السماويّة، فإنّه لا يمكن أن يُتصوّر أو يُفرض أن يكون هناك حالةٌ في الإسلام، يكون فيها شخصٌ غير قادرٍ على أخذ حقّه المشروع لكونه ضعيفًا أو لأنّه عاجزٌ وغير مقتدرٍ؛ فمثل هذا الفرض ليس من فرضيّات وجود الحكومة الإسلاميّة والتشكيلات التوحيديّة والإلهيّة؛ لذلك يقول النبيّ محمّد (ص): «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ»[٧٠]. فلو أنّكم شاهدتم إنسانًا ضعيفًا في مجتمع من المجتمعات - لا يكون فيه ذلك الإنسان على رأس قدرةٍ ما أو سلطةٍ أو في أيّ منصبٍ من المناصب السياسيّة والاجتماعيّة - يكون فيه هذا الإنسان غير قادرٍ على أخذ حقّه من دون تعتعةٍ أو تردّد في لسانه، فاعلموا أنّ مثل هذا المجتمع لن يكون مجتمعًا صالحًا وناجحًا وعزيزًا؛ بل لو تمكّن الضعيف من أخذ حقّه ولكن أخذه بتعتعة اللسان أي أصابه في لسانه تعتعةٌ أو احمرّت وجنتيه بدرجةٍ ما عندما ذهب إلى صاحب ذلك المنصب، فإنّ مثل هذا المجتمع غير نافعٍ. هل تتصوّرون أنّه لو أراد شخصٌ ما أن يأخذ نصيبه من الطعام، وكان فردًا من أفراد أسرةٍ ما، أو طفلًا في بيتٍ، فذهب إلى المطبخ أو اتّجه نحو الغذاء أو الطعام أو محلّ الأغذية، هل تتصوّرون بأنّه سيشعر بالخجل أو الحقارة أو الثقل؟ من المسلّم أنّه لن يشعر بذلك. وكذلك الأمر في ذلك المجتمع، فإنّ الوضع يكون على هذا المنوال أيضًا، هكذا يعلّمنا الإسلام ويذكّرنا فهو يريد للعمل أن يكون على هذا الأساس. إنّ الجميع [في مثل هذا المجتمع]

(٧٠) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٢٤٢٠.

يكونون بمثابة الأبناء في أسرة واحدة، أو كالأعضاء لجسد واحد، من دون أن يكون هناك أي نوع من التفاوت والتمايز؛ أي أنّ في المجتمع الإسلاميّ، يكون للحاكم الإسلاميّ كأمير المؤمنين صلوات الله عليه من الحقوق ما يكون لأيّ فرد من أفراد الرعيّة وبنفس المقدار والدرجة.

إنّ أعظم المقامات في المجتمع الإسلاميّ لا يمكن أن تمنح أيّ إنسان عاديّ القوّة والسلطة وجهوريّة الصوت. حتّى في ذلك الزمان الذي تغيّرت فيه مسيرة المجتمع الإسلاميّ، وبحسب عقيدتنا انحرفت عن محور الخلافة الإلهيّة والأساسيّة، أي ابتعدت عن محور إمامة أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، لو قام ابن والٍ أو أيّ شخص صاحب سلطة - [لا الوالي أو الشخص] بنفسه - بضرب أعرابيٍّ في الصحراء في منطقة بعيدة عن العاصمة الإسلاميّة، كان ذلك الأعرابيّ ينهض بكلّ همّة ويقطع تلك المسافة الطويلة ويأتي إلى المدينة من أجل الشكاية والتظّلم؛ وكان الخليفة يكتب إلى الوالي أن يأتي هو وابنه معًا، فلا يقول له ارسل لي ابنك حتّى يكون له العذر في الإجابة، فيقول إنّني في الواقع مريض؛ كلّا، فكان على الوالي وابنه أن يأتيا معًا، وعندما كان الخليفة يسألهما: لماذا ضربتما الأعرابيّ بالسياط وعذّبتماه؟ كان ابن الوالي يقول: يا أمير المؤمنين، أيّها الخليفة، قل له أن يأتي بالشاهد؛ فينهض [الأعرابيّ] ويقول إنّ شاهده هو أنّه تكبّد كلّ هذا العناء ليأتي من مصر إلى المدينة. فمن أين له أن يأتي بشاهد من الصحراء؟ وكيف له أن يجد أربعة شهود عدول يشهدون على أنّك ضربته بالسياط في الصحراء؟ فعندما تضربه في الصحراء الخالية، ماذا يفعل؟ ولو أنّك لم تضربه، لما وُجد فيه هذا الدافع ليقطع كلّ هذا الطريق من مصر ويأتي ماشيًا إلى المدينة من أجل أن يشتكي إليّ. فاطرحوه أرضًا. وهنا، يطرحون ابن الوالي في المسجد على الأرض ويصدر القرار بأن يُضرب بالسياط؛ وبعد أن يقف هذا الابن، يقول الخليفة اطرحوا أبيه أرضًا أيضًا، وهنا يعلو صراخ عمرو بن العاص وضجيجه - لأنّه كان

هو الوالي المقصود هنا - لماذا أنا؟ أنتم تقولون إنّه يجب أن تضربوا ابني، فلماذا تضربونني أنا؟ يقول: لأجل أنّ ابنك قد ضرب بسياطك واعتمد على سلطتك، فلو لم تكن أباه ولو لم تكن السلطة بيدك ولو لم تكن الحامي والداعم له، لكان ضرب رأسه بالحجر قبل أن يضرب هذا الأعرابيّ في الصحراء؛ فاطرحوه أرضًا. فمتى حصل هذا الأمر؟! لقد حصل عندما كان الإسلام قد انحرف في مسيره عن المسار الذي أراده الله تعالى، ولم يكن في ذلك الزمان الذي كان فيه أمير المؤمنين عليه السلام ممسكًا بزمام السلطة؛ بل وقع في زمان أولئك الذين نقول عنهم إنّه لا حقّ لهم بالخلافة، ومع ذلك كان الأمر على هذا المنوال.

حسنٌ، هذا هو المجتمع الإسلاميّ. ولم يكن قصدي من ذكر هؤلاء الذين ذكرتهم من أجل أن أقوم أنا بالاستنتاج من البحث الذي أطرحه اليوم، بل أن تقوموا أنتم بهذا الاستنتاج؛ أريدكم أن تصلوا إلى نتيجة ما هو مقرّرٌ أن أتحدّث عنه في بحثي - الذي سوف أذكره - قبل أن أتحدّث عنه. إذًا، هذا هو المجتمع الذي أراده الإسلام وغيره من الأديان التوحيديّة التي وُجدت في العالم؛ أي ذلك المجتمع الذي لا يكون فيه الاستقواء والتسلّط وجمع الثروات إلى جانب كلّ أنواع الحرمان والمسكنة لطبقات المساكين. فأمير المؤمنين الذي يرتبط بهذا الدين وهذا المذهب يقول: «ما رأيت نعمةً موفورةً إلّا وإلى جانبها حقٌّ مضيّع»[71]. فلو كان الأمر قائمًا على تقسيم الثروات بصورةٍ عادلة، لما وصل السيّد راكفيلر[72] إلى هذا الثراء الفاحش، فما ترونه عنده من هذه الثروة الهائلة إنّما كان لأنّه أخذ حصّة الملايين العشرة من الناس أو العشرين مليونًا بالإضافة إلى حصّته، وكدّسها وجمّعها فوق بعضها البعض.

---

(71) محمّد مهدي شمس الدين، **دراسات في نهج البلاغة** (بيروت: دار الزهراء، الطبعة ٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)، الصفحة ٤٠.

(72) جون راكفيلر، من كبار رأسماليّي أمريكا. أسّس مركزًا حمل اسمه، وكان له تأثيرًا كبيرًا في أحداث العالم من خلال نفوذ التيّارات الصهيونيّة، وكان له ارتباط قريب بالشاه محمّد رضا.

المجتمع الإسلاميّ، من منظار منطق الأديان التوحيديّة، هو مجتمع مثاليّ، مجتمعٌ لا يكون فيه إعمالٌ للقوّة والاستبداد واستخدامٌ لمنطق القوّة، [مجتمعٌ] لا يُسمح لأيّ فردٍ فيه أن يستخدم هذه القوّة أو منطقها. لو أنّ أحدًا أراد أن يحدث اختلافًا طبقيًّا في مجتمع بُني على أساس النظام الإسلاميّ، فإنّهم لا يسمحون له، لماذا؟ لأنّ هذا النظام هو نظامٌ قد أسّسه النبيّ. لعلّكم شاهدتم كيف أنّ الخيّاط الماهر عندما يخيط ثوبًا، وإن تمزّق هذا اللباس وأصبح في معظمه عبارة عن ثقوب، فإنّ درازته وخياطته لا تتمزّق ويبقى هيكل الثوب كما كان عليه، وهكذا هو الحال بالنسبة للمجتمع الإسلاميّ، فلقد قاموا بثقبه وخرقه من كلّ الجوانب، إلّا أنّ هيكله لم يتبدّل ولم ينقرض، لأنّ الذي خاط هذا المجتمع هو النبيّ نفسه. فيد رسول الله المقتدرة هي التي بنت هذا المجتمع وصاغته. فهو النظام الذي بناه النبيّ وصنعه الله كما يريد. النظام الإسلاميّ هو هكذا؛ لا يكون فيه الاستقواء والاستغلال والهيمنة؛ ولا يوجد فيه لأيّ إنسانٍ أو جماعةٍ حكومةٌ مطلقةٌ على غيرها من الناس. ففي مثل هذا المجتمع الذي يريده الله، والذي يقول فيه إنّ على الجميع أن يجتمعوا على أساس هذه الهيئة؛ لا يكون للجهل أو عدم الوعي أو عبادة الخُرافات [وجود]؛ وفي هذا المجتمع، يكون الجميع مجبورين وملزمين أن يفكّروا ويستخدموا عقولهم ويجدوا طريقهم كجماعة، وعندما يجدون الطريق، يجب عليهم أن يسيروا عليه.

وفي مثل هذا المجتمع، يكون الجميع مكلّفين بالدفاع عن حقوق الضعفاء والمحرومين والمظلومين؛ ولا يحقّ لأيّ شخصٍ أن يقول: إنّني لا أكترث سوى لمصالحي، ولا أهتمّ إلّا بشؤوني، ولا أقوم إلّا بأعمالي، ولست مكلّفًا بأن أقوم أو أهتمّ بشؤون الآخرين، لأنّ الجميع في هذا المجتمع يمثّلون معًا أجزاء وأعضاء جسدٍ وهيكلٍ واحد، فهل يمكن لأيّ أحد أن يقول مثل ذاك الكلام اللامبالي؟ وفي مثل هذا المجتمع، لا يوجد كسلٌ، ولا يوجد تفرّقٌ ولا اختلافٌ، ولا يوجد تعبّدٌ وتحرّكٌ أعمى وراء زيدٍ وعمرو وبكر؛ هذا

هو المجتمع الذي أراد النبيّ أن يبنيه، فالتفتوا جيّدًا وتذكّروا خصائص المجتمع الذي أراد النبيّ أن يصنعه بيده المقتدرة وبوحيٍ وإلهامٍ وتعليمٍ من الله. والخصائص الكبرى والخطوط الأساسيّة لهذا المجتمع هي: وجود العلم والوعي، ووجود العدل والقضاء والطبقة الواحدة، ونفي الطبقيّة الاجتماعيّة، وإلغاء الاستغلال وتكديس الثروات، والقضاء على الاستبداد والحكومة المطلقة، ونفي حماية الباطل، والإلزام والإجبار باتّباع الحقّ والدفاع عن الحقيقة، هذه هي مشخّصات هذا المجتمع.

إنّ النقطة الأساسيّة في كلامي هنا، والتي ترتبط ببحثنا، هي أنّه لو جاء نبيٌّ، رسولٌ إلى مجتمعٍ جاهليٍّ وبلّغ دعوته، وأعلن عن أهدافه، وقال إنّني أريد صناعة هكذا مجتمعٍ وهكذا عالم، وقال إنّني أريد أن أصيغ النظام الاجتماعيّ على هذا النحو، فمن هم الذين سينهضون في هذا المجتمع الجاهليّ لمواجهة الرسول ومحاربته عندما ينطق بمثل هذا الكلام؟

لقد تحدّثت عن شكل المجتمع الذي يريد الرسول أن يصنعه. ومن الواضح جدًّا مَن هم أولئك الذين سيقومون بمعارضة الرسول ومحاربته؛ فأوّل من سينهض لمواجهته هم أولئك الذين يعتاشون من الاختلاف الطبقيّ، والذين يشكّل تمزيق وتفريق الناس أساس عيشهم، والذين يقومون باستغلال من يستطيعون بفعل ذلك، والذين يستفيدون من طاقات الأبرياء دون حقٍّ؛ فلو تقرّر أن يكونوا في صفٍّ واحد وطبقةٍ واحدة مع أولئك المحرومين، لما تمكّنوا من استغلال أحد؛ فمن ذا الذي سيتمكّنون من استغلاله بعد ذلك؟ هؤلاء هم الذين يتحوّلون إلى معارضة. فأولئك الذين سيخالفون دعوة النبيّ ويعارضون إقامة مثل هذا المجتمع والنظام، هم الذين يكدّسون الثروات ويجمعون الأموال، إنّهم أولئك الذين يريدون أن يملأوا خزائنهم بالأموال من كيس فلان وجيب علّان، ومن محفظة تلك العجوز المحرومة، ومن صميم دخل البقّال الفلانيّ الذي هو في الحدّ الأدنى؛ إنّهم يسحبون أموال هؤلاء ويضعونها في أكياسهم وخزائنهم الكبرى التي لا حدّ لها. ألا

يوجد مثل هؤلاء الذين يرغبون بتأسيس المؤسّسات الربويّة وبإيجاد النظام الربويّ وتحقيق الأرباح الماليّة، ويريدون أن يجعلوا كلّ التجارات الموجودة والفعاليّات الاقتصاديّة في نهاية الأمر لمصالحهم ومنافعهم؟ يا صاحب الجناب العالي، ما هو عملك؟ فها أنت تاجرٌ في هذا السوق، ومهما تاجرت وكسبت، فلو قلت إنّ هناك نسبةً مئويّة لك، ونسبةً مئويّة لبنك فلان وبهمان وبهمدان، فلنرَ كم تكون قد استفدت من تلك العوائد؟! ولتنظر كم ربحت! فانظر جيّدًا لمن تعمل وتنحت!

فعندما يكون النظام نظامًا ربويًّا، مبنيًّا على أن يدفع الجميع أموال الربا وتكون هناك جماعةٌ مستفيدةٌ من أخذ الربا وأكله؛ ستكون كلّ التجارات والمعاملات بناءً على ذلك لمنفعة المؤسّسات الربويّة. فلو حدث أن جاء نبيٌّ أو مصلحٌ إلى مثل هذا المجتمع - حيث تكون الثروة وجمعها عملًا شريفًا ومشروعًا لمجموعةٍ من الناس الذين يأكلون ويبيعون بكلّ شرف - فإذا جاء هذا النبيّ أو المصلح وقال: يا فلان إنّ تكديس الثروة [عملٌ] غير مشروع؛ حسنٌ، فمن البديهيّ والطبيعيّ أنّه سوف يعارض هذا النبيّ. هذه هي الجماعة الأولى.

وهناك مجموعةٌ لا همّ لها سوى تكديس الثروات وهي التي سوف تواجه هذا النبيّ، وجماعةٌ أخرى هم الحكّام المستبدّون الذي سيحاربون هذه الدعوة النبويّة والرسالة الإلهيّة، لأنّ كلمة «لا إله إلّا الله» وبمجرّد أن تدخل إلى أيّ مجتمع بصورةٍ واقعيّة، فهذا يعني أنّ فرعون ذلك المجتمع سوف يُقتلع ويزول؛ فإمّا أن يزول وإمّا أن يصبح فردًا عاديًّا من أبناء الشعب، هذا هو معنى «لا إله إلّا الله» حتمًا. فلو تقرّر أن تكون كلمة «لا إله إلّا الله» أساس بناء المجتمع بصورته الواقعيّة، فإنّ هذا المجتمع سيتشكّل على أساس التوحيد وسيكون الله على رأس هيكله (مخروطه) وليس فرعون. إنّ الله سيكون على رأس هذا المجتمع وليس فرعون ولا هامان ولا نمرود ولا

شدّاد[٧٣] ولا معاوية، فإذًا سيكون واضحًا جدًّا أنّ فرعون ونمرود وغيرهما من القوى المستبدّة عبر التاريخ، سيحارب بشدّة دعوة الأنبياء التي تدور حول تشكيل مثل هذا المجتمع. فهذه إذن طبقةٌ من المخالفين والمعارضين للنبوّات.

والطبقة الأخرى هي طبقة الأحبار والرهبان وهم أولئك الأشخاص الذين يتعاملون مع عقول الناس وقلوبهم. فذاك الذي [يريد] الحفاظ على موقعيّته الاجتماعيّة من خلال ما يقدّمه للناس من تعليم، فإذا كان هذا التعليم تعليمًا صحيحًا، وتعليمًا بنّاءً يحيي القلوب، وتعليمًا يمنح الوعي والبصيرة والوضوح؛ فلن يعود بإمكانه أو بإمكان طبقته الحفاظ على تلك الوجاهة، وتلك الرئاسة المعنويّة، وتلك الامتيازات المادّيّة والشأنيّة؛ لهذا سعت طبقة الأحبار والرهبان عبر التاريخ لمنع تحقّق وعي الناس وإدراكهم.

لأجل هذا، كان عيسى بن مريم يواجه الأحبار والرهبان قبل أن يصل الدور إلى إمبراطور الروم، فلم يصل إلى هذا الإمبراطور في زمانه. فمن هم أولئك الذين ما كانوا يريدون للدعوة العيسويّة والمسيحيّة أن تستقرّ في المجتمع اليهوديّ المنحطّ في ذلك الزمان؟ إنّهم أحبار اليهود وعلماؤهم، بالرغم من أنّهم كانوا يعرفون عيسى جيّدًا.

وفي زمن ظهور الإسلام، نسأل عن أولئك الذين لم يكونوا يرغبون بتثبيت وتجذّر النهضة النبويّة أو النهضة المحمّديّة والبعثة الإسلاميّة؛ أولئك الذين لن يبقى لهم أيّ مجالٍ للزعامة والبقاء فيما لو جاءهم الرسول وأتتهم التعاليم الصحيحة وجاءهم الإسلام الذي يمثّل ذلك النبع الزلال العذب الذي يزيل العطش ويروي الأذهان ويفتح العيون ويقضي على كلّ الإبهامات والجهالات. من المعلوم، أنّه إذا وُجد الإسلام، فلن يبقى

---

(٧٣) ابن عاد الذي تولّى زعامة قومه بعد أن مات أبوه، وقد عزم على أن يبني جنّةً على الأرض لأجل معارضة النبيّ هود في حديثه عن الجنّة. بنى قصرًا عظيمًا من الذهب والفضّة، وبساتين كبيرة جدًّا مع جواهر كثيرة، وكان له ينابيع العسل والحليب والمرجان واللؤلؤ، وبمجرّد أن أنهى قصره وحدائقه وأراد أن يدخل هذا القصر سقط عن فرسه ومات.

لاختراعات كعب الأحبار[٧٤] وعبد الله بن سلّام[٧٥] أي رونق أو جاذبيّة. من الواضح، أنّه عندما تشعّ شمس الحقيقة على مناطق الأدمغة والأفكار الإنسانيّة ستزول كلّ تلك الخُرافات والظلمات التي يحفظونها، من تلقاء نفسها ولن يبقى لها أيّ أثر. لذلك فإنّ الجماعات التي ستشعر بالخطر قبل غيرها بمجرّد أن يأتيها النبيّ وبمجرّد أن تصدح دعوات وترانيم مثل هذا المجتمع؛ هذا المجتمع النبويّ الذي سيُبنى على أساس الوعي وعلى أساس المعرفة والعلم والرؤية الصحيحة والحريّة الفكريّة والتنوّر الفكريّ، أي المجتمع الإلهيّ التوحيديّ، هي جماعات الأحبار والرهبان. أولئك الذي سيكون تفتّح بصيرة الناس لغير صالحهم، وسيكون الوعي الذي ينتشر بين الناس سببًا لضررهم وضرر كلّ تلك القوى التي تتحالف معهم، فسيُصابون بالضرر مثل تلك القوى التي تحالفت معهم وإن لم تكن قوى دينيّة، بل كانت مجرّد قوى سياسيّة، فهؤلاء جميعًا سيستشعرون الخطر المحدق بهم من جرّاء مجيء النبوّة.

وكما قرأنا في تلك الرسالة التي أرسلها الإمام زين العابدين صلوات الله عليه إلى محمّد بن شهاب الزهريّ، والتي يصوّره فيها الإمام بطريقة لو أنّنا نحن الذين نعيش اليوم في القرن العشرين، لو أنّنا رجعنا إلى التاريخ ولاحظنا كيفيّة تحالف القوى الدينيّة والسياسيّة من أجل قمع الشعوب والقضاء على الوعي والاستعدادات والدوس على حقوق عامّة الشعب؛ فإنّنا سنفهم اليوم أيضًا ذاك الشيء الذي كان الإمام السجّاد يشرحه في ذلك الزمان في تلك الرسالة: «واعلم أنّ أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت أن

---

(٧٤) أبو إسحاق كعب بن ماتع الحميري من علماء اليهود في اليمن. توجّه إلى الإسلام في زمن خلافة الثاني، ودخل إلى المدينة، تعلّم **القرآن** من الصحابة، ولأنّه كان مطّلعًا على كتب علماء اليهود اشتُهر بكعب الأحبار، وقد نقل الكثير من الروايات الكاذبة مدّعيًا أنّها من التوراة ولذلك عُرفت بالإسرائيليّات.

(٧٥) عبد الله بن سلّام ابن الحارث الإسرائيليّ من الأحبار ومن كبار يهود بني قينقاع، وبناءً على أحد المنقولات أسلم في السنة الأولى للهجرة، وكان مع كعب الأحبار من المقرّبين والمستشارين عند الخليفة الثالث، وهو الأمر الذي أدّى إلى إيجاد الانحرافات الكثيرة في حكومة المجتمع الإسلاميّ. وكان عبد الله من المقرّبين في زمان معاوية وامتنع عن بيعة أمير المؤمنين.

آنست وحشة الظالم وسهّلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت وإجابتك له حين دُعيت»[٧٦]؛ هذه الرسالة موجودة في كتاب **تُحف العقول**، ولو أردنا شرحها وتفسيرها لاحتاج ذلك إلى الوقت الكثير. ومحمّد بن مسلم ومحمّد بن شهاب هما شخصٌ واحدٌ، وقد سُمّي باسم أبيه مسلم، وباسم جدّه شهاب، ولكتاب **تُحف العقول** عدّة ترجمات لحدّ الآن يمكنكم مراجعتها.

أجل، إنّ من الجماعات التي تستوحش أو تخاف من مجيء النبيّ هي تلك الجماعة التي نسمّيها زعماء الدين؛ ذلك الدين المخالف للواقع، وهو الدين الخُرافيّ؛ وهؤلاء كانوا أشخاصًا يواجهون بعثة الأنبياء، ويواجهون دعوات التحرّر بصورةٍ قويّة ويحاربونها بشدّة؛ وأحد نماذجها تبرز في قضيّة دعوة الإسلام. وفي الحادثة التي جرت مع النبيّ إبراهيم، خليل الرحمن، حيث شاهده جميع خدمة معبد الأصنام كيف قام بتحطيم كلّ أصنامهم؛ فقالوا: من الذي فعل ذلك بآلهتنا وقاموا بإطلاق الضجيج والصراخ، وهم الذين حملوا نمرود على أن يرمي بإبراهيم في النيران؛ أمّا عامّة الناس، فلم يكن لهم خبرٌ عمّا جرى في المعبد، لقد كان الكهنة هم الذين يخدمون في المعابد، وهم الذين كانوا يثبّتون قلب فرعون وقت ظهور موسى بن عمران في المجتمع الفرعونيّ، ويمنحونه المعنويّات ويقولون له: إنّنا بسحرنا سوف نبطل سحره، وبكهانتنا طبعًا سوف نبطل سحره؛ هؤلاء هم الذين كانوا أكبر المعارضين لدعوة عيسى عليه السلام والذين شكّلوا تلك الجبهة الواسعة لمواجهته والوقوف أمام دعوته. فانظروا إلى هذا الإنجيل العاديّ أي إلى تلك الأناجيل التي بمتناول الأيدي، فإنّها رغم كلّ التحريفات وكلّ هذه الأمور، فإنّ تلك الأجزاء التاريخيّة الموجودة فيها يمكنها أن تبيّن لنا قضيّة الوقائع التاريخيّة في ذلك الزمان. فإذًا، هؤلاء هم الذين كانوا في الدعوة الإسلاميّة أصحاب القصص الكثيرة التي ظهرت

(٧٦) ابن شعبة الحراني، **تحف العقول**، تحقيق علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة ٢، ١٤٠٤ – ١٣٦٣ هـ. ش)، الصفحة ٢٧٥.

فيها اعتراضاتهم واختباراتهم وحثّهم الناس على مواجهة النبيّ وقتله، وهم الذين كانوا وراء قضيّة مباهلة نصارى نجران، ومن هذا القبيل الكثير. لقد كانوا يسعون لإبقاء معنويّات الناس وإيمانهم بتلك الأشياء التي كانت قد تعفّنت ومضى عليها الزمن من أجل تثبيتهم وإيناسهم بذلك.

وعندما يتمّ طرح فكر جديد في مجتمع ما، ويكون من المقرّر أن يتحرّك مسير أفكار الناس نحو الإدراك والشعور والمزيد من الوعي، فمن الطبيعيّ أن يكون الأمر هكذا. إنّ من طبيعة البشر - شبابًا كانوا أو شيوخًا - أن يتحرّكوا وراء أيّ تيّار فكريٍّ جديد، وقد كانوا يتحرّكون. يريد الناس المزيد من الكلام الجديد، وها هم يتقبّلون أكثر فأكثر ذلك الكلام الذي يكون منسجمًا مع أذهانهم وقابلًا للتصديق، هذا بالإضافة إلى أنّ حبل الكذب قصير؛ أو كما يُقال بالفارسيّة: إنّ مصباح الكذب لا يشعّ. فالخُرافات أكاذيب، والتحريفات والألاعيب الدينيّة أكاذيب، فبمجرّد أن ينهض البيان الواضح والذهن الاستدلاليّ ويثبت بطلان هذه الخُرافات ووهن تلك الخُزعبلات، فإنّ الناس سيصدقون بسهولة.

لكنّ طبقة الأحبار والرهبان كانت تقف بالمرصاد وعلى مرّ التاريخ، وتمنع الناس من الإقبال على الأنبياء رغم وجود هذا البيان النبويّ الواضح والمفسّر. فرغم أنّ الأنبياء قد جاؤوا بالحجج الواضحة والسلطان المبين، وكانوا أينما تحرّكوا يتحرّك النور معهم، وكانوا أينما وجدوا إنسانًا يوضحون له السبيل؛ ورغم أنّهم لم يستعملوا الأساليب المغلقة، وتلك المصطلحات المتفلسفة مع الناس، ولم يستخدموا التفلسف وتصنّع الفلسفة مقابل الناس بل كانوا يتحدّثون بصفاءٍ وصدقٍ وصراحةٍ معهم؛ ومع وجود مثل هذه الأمور، لا شكّ بأنّ الناس سيقبلون ذلك بسرعة، ومن الطبيعيّ أن يدرك الناس بسرعة صحّة وإتقان كلام رسل الله. فإذًا، ما هو السبب الذي حمل هؤلاء أن يبرزوا بكلّ هذا العناد والتعصّب والتمرّد ولم يتقبّلوا دعوات الأنبياء بسرعةٍ وسهولةٍ؟ إنّ من كان يمنع من تحقّق هذا الأمر هم

أولئك الكهنة والأحبار والرهبان، وتلك الطبقة التي ذكرها القرآن تحت عنوان الأحبار والرهبان؛ الذين كانوا يدعون الناس إلى التمسّك بكلّ قوّة بالعادات والتقاليد الفكريّة الخاطئة والتصوّرات الخُرافيّة الموروثة؛ إنّهم أولئك الذين كانوا يستوحشون من مجيء الرسول لأنّهم كانوا يعلمون أنّ الرسول لو جاء، وأنّ النبيّ لو بُعث، وأنّ ذلك المجتمع لو تحقّق، فإنّه سيكون فيه الوعي والنور والرشد الفكريّ، وسيكون الناس جميعًا في ذلك المجتمع إمّا علماء أو متعلّمين، ولن يبقى هناك أيّ مكانٍ للجهلة، أو لمن يمكن أن نعبّر عنهم بالذين يرضون بما هم عليه، أو للمتعزّزين دون سبب، أو لأولئك الذين يرغبون بإبقاء الناس في مستنقع الظلام والخُرافة؛ فإنّه لن يبقى لهم أيّ مكانٍ في مثل هذا المجتمع؛ وهذا هو الذي جعلهم يحاربون هؤلاء الأنبياء ويواجهون دعواتهم الإلهيّة ويقفون مقابل بعثاتهم التاريخيّة، بكلّ قوّة وشدّة.

هكذا، يكون لدينا أربع طبقات، ولو أنّكم راجعتم القرآن للاحظتم ذلك. وأنا لم أستند إلى القرآن في هذا الحديث لحدّ الآن، وإنّما اكتفيت بهذا المقدار من الشرح المتعلّق بمجيء الأنبياء وكيفيّة صناعتهم لهذا العالم، وفصّلت لكم في هذا العالم وكيفيّته وأوضاعه الاجتماعيّة؛ وبعدها تحدّثت إليكم عن أولئك الذين يخافون من مثل هذا المجتمع. ومن الواضح أنّ الذين يسعون لتكديس الثروة، سيخافون من المجتمع الذي سيمنع ذلك. ولا شكّ بأنّ الطبقات العليا ستخاف من ذلك المجتمع أو النظام الذي يُعتبر الاختلاف الطبقيّ فيه معصيةً ويكون ممنوعًا وباطلًا. فبالنسبة للذي اعتاد على العيش وسط الطبقات العليا، فإنّه لو شاهد نظامًا يُراد له أن يهيمن على كلّ الأوضاع ويفرض عليه أن يتنازل أو يصبح بنفس مستوى الذين يمكن أن نسمّيهم بالترابيّين، أو يُراد فيه لهؤلاء الترابيّين أن يكونوا معه في نفس المستوى، فلا يبقى وجيهًا وزعيمًا؛ إلّا إذا كان هناك عبيد.. أمّا لو كان الجميع سادة، فإنّه لن يبقى زعيمًا - فسيادة وزعامة الزعماء

هي في أن يكونوا هم السادة والكبراء والزعماء والباقون عبيدًا، وإلّا لو تحوّل العبيد إلى سادة، فإنّ السادة سيكثرون وستصبح السيادة والزعامة رخيصة، لأنّ ارتفاع سعر السيادة ناجم عن أنّها قليلة - فلو تحقّق مثل هذا المجتمع أو وُجد، فإمّا أن ينزله من عليائه ويجعله في مستوى العبيد، وإمّا أن يرتقي بالعبيد ليجلعهم بمستواه، وبتعبيرنا يكثر الوجهاء والسادة والزعماء. ولهذا، فإنّه سوف يسقط من تلك العزّة غير المبرّرة، وهنا سوف نجده ينهض للمخالفة.

إنّ تلك القدرة الاستبداديّة المطلقة التي ترغب في أن تكون، بحسب تعبير المرحوم الميرزا النائيني[٧٧] رضوان الله تعالى عليه في مقدّمة كتابه **تنبيه الأمّة**، «فعّال ما يشاء وحاكم ما يريد»؛ هؤلاء الذين يريدون أن يكونوا بحسب التعبير القرآنيّ ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ فإنّهم لن يكونوا راضين أو متقبّلين لدعوة الأنبياء وحكومة أيّ نبيٍّ، لأنّهم يعلمون أنّ النبيّ لو جاء فإنّهم أوّل من سيتلقّى الضربة؛ ولقد فصّلنا الحديث في طبقة الأحبار والرهبان أيضًا.

هذه هي الطبقات الأربع التي حاولنا أن نبلورها ونحدّدها لكم من خلال هذه العمليّة التحليليّة الذهنيّة، مذكورة أيضًا بالاسم في **القرآن**. غاية الأمر أنّ أولئك الأفراد الذين ذكرناهم بعنوان طبقة الزعماء والرؤساء والدهّاقين والمسؤولين وأصحاب السلطة والنظام، أي أولئك الذين لهم مثل هذه المناصب، قد ذُكروا في **القرآن** بعنوان الملأ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾[٧٨]. فالملأ كلمةٌ تُطلق على هؤلاء لأنّهم يملأون العين، هؤلاء الذين لهم كلّ ذلك الجاه والجلال، وحينما يسيرون فإنّ كلّ تلك البهارج

---

(٧٧) الميرزا محمد حسين النائيني (١٢٧٧ - ١٣٥٥ ق.) وُلد في مدينة نائين، وبعد أن تتلمذ على يد علماء أصفهان توجّه إلى النجف الأشرف وحضر دروس الميرزا الشيرازي، أعلن تأييده لتشكيل نهضة المشروطة في إيران وألّف كتاب **تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة**، وقد أثبت في هذا الكتاب الولاية المطلقة للفقيه في عصر الغيبة. كان للمرحوم النائيني تأثيرًا كبيرًا في مواجهة الاستعمار الإنكليزيّ في العراق، بالإضافة إلى دوره المؤثّر في نهضة المشروطة في إيران.

(٧٨) سورة **الأعراف**، الآية ٦٦.

والزخارف التي تعمي وتصمّ ستجعل كلّ من يقف مقابلهم خاضعًا وصغيرًا؛ إنّ الملأ هم الذين يشكّلون تلك الطبقة من المعارضين الذين يقفون مقابل الأنبياء. فمن يمكن أن نذكر هنا من باب المثال؟ إنّهم مثل هامان في ذلك النظام الفرعونيّ الجاهليّ، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾[79]. فهو كان غلامًا عند فرعون ولأنّه خدم فرعون وعبده فقد صار سيّدًا على كلّ من عدا فرعون. كما قال الشاعر سعدي:

مگسی را كه تو پرواز دهی شاهین است

إنّ الذبابة التي تطير بإذنك تصبح نسرًا

فهامان هو تلك الذبابة التي منحها فرعون قدرة التحليق فصارت تقوم بأعمال النسور؛ فهو إنسانٌ ضعيفٌ وسيّئ الحظّ ووحيد، وعلاجه - بمعنى معالجته وحلّ أمره - يكون من شخص واحد؛ لكنّه عندما يعتمد على فرعون، فإنّه يصبح صاحب الصلاحيّات، لهذا فإنّه إذا سار في الشوارع ونظرتم إليه تجدونه وكأنّه محاطٌ بالبريق من جميع الجهات بحيث لا يمكن للإنسان أن يتحمّل النظر إليه؛ فالعمى والصمم والتخبّط في الذهاب والإياب هو بسبب قدوم هامان.

وكما في النظام الجاهليّ لمعاوية، فيكون المغيرة بن شعبة[80] مثلًا، أو زياد ابن أبيه[81]، من الملأ؛ فهؤلاء يحيطون بعرش معاوية من كلّ الجهات، ويحفظونه ويثبّتونه بحيث إنّه إذا نظر معاوية إلى أيّ مكان فلن يرى سوى صديقٍ ومشاورٍ يلازمه وخيّرٍ ينصحه!!. وفي القرآن، عُبّر عن هذه الطبقة

---

(٧٩) سورة غافر، الآية ٣٦.

(٨٠) المغيرة بن شعبة من أهل الطائف، جاء إلى المدينة في السنة الخامسة للهجرة وأسلم. وبعد رحيل النبيّ الأكرم، كان من الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وكان له دورٌ أساسيّ فيها. وبعد شهادة أمير المؤمنين، صار في بلاط معاوية وهو الذي اقترح عليه أن يولّي يزيد من بعده.

(٨١) زياد بن أبيه هو من كبار المجرمين في صدر الإسلام، عُرفت أمّه باسم سميّة ولكن لم يُعرف أبوه، لهذا سُمّي بزياد بن أبيه، وقد نسبه أبو سفيان في زمان الخليفة الثاني إلى نفسه، لكنّه ووجه بتوبيخ مباشر من الإمام عليّ. بايع زياد أمير المؤمنين، وبعد معركة الجمل ولّاه الإمام لمدّة على البصرة، لكنّ معاوية نسبه إلى نفسه باعتبار أنّه أخيه من خلال دسيسة وعزله عن الإمام. وبعد صلح الإمام الحسن، أمسك بزمام ولاية البصرة والكوفة، وابنه عبيد الله من قتل الإمام الحسين في صحراء كربلاء.

بالملأ، وعن طبقة الأشراف والنبلاء بالمترفين، أي أولئك الذين ابتُلوا بالترف والأرستقراطيّة وكانت ثرواتهم الهائلة سببًا لتعاستهم وارتكابهم الجرائم، ودوسهم على الحقوق. وتشير الآية إلى أنّه أينما أرسلنا في أمّة رسولًا فإنّ المترفين، والأشراف كما يُقال، سيكونون أوّل من يُعارض، فهؤلاءِ هم أوّل من يطلق ألحان المخالفة، وهذه هي طبقةٌ أخرى.

إنّ تلك الطبقة من الزعماء الفكريّين المسمّاة بالأحبار والرهبان يذكرها **القرآن** بنفس الاسم، ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾[٨٢] تلك الطبقة من أصحاب السلطة الاستبداديّة – بظنّي – أنّ **القرآن** يذكرها تحت عنوان الطاغوت. هذا، وإن كان الطاغوت يمثّل كلمةً عامّة؛ فالطاغوت هو تلك القدرة التي تطغى مقابل الله، ومن الممكن أن تكون أنت نفسك طاغوتًا، حيث قرأت لكم هذا الحديث: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[٨٣]، أي أنّ نفسك وأهواءك وهوسك وابنك وامرأتك وصديقك المحبوب يمكن أن يكونوا طاغوتك؛ ومن الممكن أيضًا أن يكون تلك القوى الكبرى؛ لهذا فإنّ «الطّاغوت» هو معنًى عام. ولكن بما أنّنا نرى في **القرآن الكريم** كيف أنّ الطاغوت هو الذي يُعتبر أي شيء يقف مقابل الله في أيّ مكان، ويقوم بأعمال وشؤون مهمّة جدًّا، نفهم أنّ الطاغوت هو أعلى المقامات الموجودة في النظام الجاهليّ. ففي بعض المواضع يقول الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾[٨٤]. فالمؤمن يقاتل ويجاهد ويساعد على طريق الله، أمّا الكافر، فإنّ سعيه وقتاله يكون على طريق الطاغوت. وفي موضع آخر، يقول الله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٨٥]، وأظنّ أنّ كلمة «الطاغوت» قد استُعملت في **القرآن** من أوّله

---

(٨٢) سورة **التوبة**، الآية ٣٤.

(٨٣) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء٣، الصفحة ١٨٤٨.

(٨٤) سورة **النساء**، الآية ٧٦

(٨٥) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.

إلى آخره في حوالي ثمانية موارد؛ ونجد أنّ استعمال هذه الكلمة في سبعة من هذه الموارد القرآنيّة جاء في سياق، إذا تأمّل فيه الإنسان، سيبدو له أنّ المراد من هذا اللفظ هو تلك القوى الاستبداديّة المستعلية التي تتزعّم أو تقف على رأس الأمور.

أجل، هذه هي الشرائح الأربع المعارضة للأنبياء؛ فلم تكن هذه المعارضة منحصرةً في زمان موسى أو زمان الرسول أو في زمان إبراهيم، بل كانت على مرّ العصور التاريخيّة. فأينما ظهر كلام حقّ، وأينما وُجد داعٍ أو نغمات دعوة لاتّباع أنبياء الله والكتب السماويّة، كانت الشرائح الأربع تقف صفًّا واحدًا في المقابل؛ إمّا متزامنة، وإمّا واحدةً تلو الأخرى؛ هذه هي القاعدة الكليّة. وهنا، يوجد نكتةٌ تعليميّةٌ مستفادةٌ من هذه الآيات الكريمة.

أوّلًا، يقول في القسم الأوّل من الآية الأولى، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا﴾[86]، ويمكننا أن نفسّر لفظ «كذلك» باللغة الفارسيّة وهي تشير إلى وجود مثليّة أي «مثلك» أو كما هو حالك أيّها الرسول؛ فكما ترى لقد جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوًّا مخاصمًا من شياطين الإنس والجنّ. وقد ذكرنا سابقًا معنى الشيطان، وهذه الآية تؤيّد ذلك المعنى والتفسير؛ وهو تلك القوى التي تنتج الشرّ من خارج وجود الإنسان. وأحد أنواعه هو إبليس الذي لم يسجد لآدم أبو البشر عليه السلام. إنّ ذلك الشيطان هو أسوأ شياطين العالم، وكلّ [الشياطين] الأخرى إنّما كانت بسببه؛ وكلّ فسادٍ أو خطإ يرتكبه شيطانٌ، سواء كان من الإنس أو الجنّ، في هذا العالم، يعتبر الناسً أنّ جرمه ولعنته راجعةً لذلك المسمّى بإبليس؛ في حين أنّ بعض هذه الشياطين هي بمنزلة الأستاذ لذلك الشيطان.

﴿عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فهنا يوجد علاقة إلهام وتعليم بين هذه الشياطين التي تعادي الرسولً. ففي بعض الأحيان، تقدّم شريحة الأحبار والرهبان الدروس إلى شريحة الملأ. وفي بعض

(٨٦) سورة **الأنعام**، الآية ١١٢.

الأحيان، تقوم طبقة الملأ بتعليم الأحبار والرهبان. وفي أحيانٍ أخرى، يتصدّى المترفون لهذا التعليم تجاه الشرائح الأخرى. وفي الأغلب، نجد أنّ الشرائح الثلاث هذه تستلهم من الطاغوت، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾. فعمليّة الإيحاء والإلهام والتعليم تجري بأسلوب الكلامٍ الجميل والمزَخرف والحسن الظاهر. وأنا سوف أتعرّض لمعنى القول المزخرف في أحد الفصول المرتبطة ببحث النبوّة في المستقبل. وقد وصل هذا الظاهر المزخرف إلى حدٍّ جعل فرعون يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾[87]، فلماذا قال ذلك؟ ولماذا يريد أن يقتله؟ ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ يريد أن يتصّدى لمنع موسى من تخريب دينهم! هذا هو كلام فرعون؛ فتصوّروا أنّ فرعون يخاف أو يخشى على دين الناس من موسى، هذا هو نموذج القول المزخرف المرتبط بالغرور، ﴿غُرُورًا﴾، فيخدع من يخدع من الناس ومن الشرائح الأخرى بالغرور والجهالة.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ فبمشيئة الله نال أولئك تلك الإمكانات ليفعلوا ما فعلوا، ولو شاء الله لجعل كلّ هذه الشرائح المعارضة كرمادٍ في الهواء بلحظة واحدة؛ ولكن، حسنًا، إنّ السنّة الإلهيّة لا تجري على هذا الأساس، وقانون الله لا يكون هكذا. فالقانون الإلهيّ يقتضي أن يُظهر هؤلاء عداواتهم من أجل أن يتميّز المؤمن عن غير المؤمن. فالطريق لا يكون معبّدًا بنسبةٍ ما لكي يتّضح أمر أولئك الذين تكون أرجلهم وسيقانهم قويّةً ويتمكّنون من العدو والسّير ويُعرفوا. أمّا في الجادّة المعبّدة، فمن الواضح أنّه يمكن للجميع أن يسيروا لبضع خطوات على هذه الطريق، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾. إذًا، لقد أظهر هؤلاء عداواتهم بمشيئة الله، ويعني ذلك أنّ مشيئة الله اقتضت أن تكون هذه هي السنّة، فإرادته تعالى لا يمكن أن تكون خلاف السنّة التي جعلها هو سبحانه في هذا العالم. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا

(٨٧) سورة غافر، الآية ٢٦.

يَفْتَرُون﴾ ، فماذا يعني قوله تعالى: «فَذَرْهُم»، إنّه يعني أن لا يغتمّ الرسول من مقولاتهم الكاذبة والافترائيّة ولا يضعف أو يفقد طريقه ويضلّ.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [88] ونتيجة كلّ هذه الكلمات هي أنّ القلوب التي لا تؤمن بالآخرة سوف تقع تحت تأثير هذا القول المزخرف والخادع والذي يبعث الغرور وإعلامه الكاذب. فكلّ هذه التبليغات والدعايات التي تُبثّ ضدّ دعوة الأنبياء، أي هذه الدعايات التي توضع بوجه كلام الحقّ ونغمات التوحيد الصادقة، فإنّها لا تخدع سوى تلك القلوب التي لا تؤمن بالآخرة فتنجذب إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ . وعليه، فكلّ من يؤمن بالآخرة، فإنّه لن يصبح أسير هذا الإعلام الكاذب بهذه السرعة؛ والآية تشير إلى تلك القلوب التي ترضى بمثل هذا القول. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُون﴾ ، فليرتكبوا وليفعلوا ما يفعلون. لاحظوا كيف أنّه قد أشير في هذه الآية، على نحو الإجمال، إلى أنّ لجميع الأنبياء أعداء من الجنّ والإنس، من الأعداء الظاهريّين والأعداء المتستّرين؛ وكلّ هؤلاء الأعداء يلهمون بعضهم بعضًا، ويعلّمون بعضهم بعضًا، ويذكّرون بعضهم بعضًا. أكتفي من هذه الآيات بهذه فقط.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا﴾ [89]، هذه الآيات هنا هي العلائم التي ترجع إلى الله، ﴿وَسُلْطانٍ مُبِين﴾ وهي الحجّة أو القدرة الواضحة. فما هو المقصود من القدرة أو الحجّة أو الدليل الواضح؟ وماذا كانت هذه الأمور؟ إنّها ذلك المنطق القويّ وكلام الحقّ الذي نطق به موسى بالإضافة إلى عصاه ويده البيضاء. أرسل الله موسى بهذه المسائل التي تجعل أيّ إنسان، عاديًّا كان أم غير عاديّ، يؤمن بكلامه؛ ولمن أرسلناه؟ أي لمحاربة من قد

(٨٨) سورة **الأنعام**، الآية ١١٣.

(٨٩) سورة **غافر**، الآية ٢٣.

أرسلناه؟ ومن الذي كان إلى جانب موسى في هذا المجتمع؟ فلو تأمّلنا هذه الآيات وتدبّرنا فيها بقدرٍ ما أثناء قراءتها، للاحظنا كيف يخرج هذا الأمر بصورة واضحة، وستبرز القضايا الاجتماعيّة المهمّة في محكمات الآيات وفي ظواهرها بصورةٍ واضحة أيضًا. فنسأل عن هذه الحرب مع من وضدّ من؟ ﴿إلى فِرْعَوْن﴾، ومن هناك أيضًا؟ ﴿وَهامان﴾، هامان الذي كان وزير فرعون ومن رؤوس مملكة فرعون، ومن أولئك الذين يُسمّون بالأشراف ويملأون العين أي الملأ؛ ومن كان معهما؟ ﴿وَقارُون﴾، فمن هو قارون؟ إنّه باختصار ذلك الثريّ الذي نعبّر عنه بصاحب المال، ولكنّه لم يكن رئيسًا أو زعيمًا ولم يكن يمتلك السلطان على المجتمع، فلم يكن فرعونًا. وفي الأساس، فإن قارون جاء فيما بعد؛ ولكن في نفس الوقت، تقول هذه الآية إنّنا قد أرسلناه إليه أيضًا، وأرسلناه لكي يواجهه. فبالنسبة لموسى، فإنّ فرعون وقارون متساويان.. وكما أنّه سيحارب فرعون، فإنّه سينهض لقتال هامان وقارون كذلك.

إنّ قارون، وإن كان جرمه أنّه اكتنز الثروات وجمع أموال الناس إلى نفسه، وكان يضع على مائدته من الطعام ما كان يكفي لإشباع خمسين شخصًا، بل ويبقى الكثير منه أيضًا؛ فهذا الوجيه ضرب أربع ركاب أو فتح أرجله وجعل أمامه طعامًا يكفي لتسعة وأربعين شخصًا، ومن الواضح أنّه لا يمكن لشخص واحد أن يتناول كلّ هذا الطعام، لكنّه لم يكن يسمح لغيره بأن يأكله؛ فنجد أنّ تسعةً وأربعين شخصًا يتناولون في الخارج غذاء شخص واحد، أمّا هذا الشخص فيحبس لنفسه غذاءً يكفي لتسعة وأربعين شخصًا آخرَ، ويا ليته تناول السمّ؛ بل كان يحبس هذا الطعام؛ هكذا كان يفعل قارون بحبسه واحتجازه للثروات العامّة؛ لهذا كان يأتي موسى إلى محاربته.

والعجيب هو أنّ فرعون رغم أنّه كان على رأس الحكومة فقد كان يمثّل طبقةً، وكان هامان إلى جانبه يمثّل طبقةً أخرى، وقارون الذي لم يكن

على ارتباط بهما من الأساس، كان يمثّل الثراء والاكتناز، فقد كان في طبقة أخرى. إذًا، رغم أنّ هؤلاء كانوا ثلاث طبقات، إلّا أنّ ردّهم كان ردًّا واحدًا، واتخّذوا جميعًا موقفًا واحدًا وقالوا كلامًا واحدًا في مقابل موسى عليه السلام، ﴿فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا﴾[٩٠]، نجدهم لم يسكتوا مقابل ما جاءهم به موسى وبيّنه ولم يدعوا موسى يأتي ويقتلع غرسة وجودهم الفاسدة وشجرة حياتهم العقيمة من جذورها. كلّا، فمثلما كان موسى في نظامه المقترح يوجّه إلى حياتهم قبضةً، كانوا هم في المقابل قد رفعوا في قبال وجه موسى قبضة. فماذا قالوا؟ ﴿قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾؛ يريدون أن يقتلوا أبناء الذين آمنوا بهذا الفكر الجديد الذي جاء به هذا النبيّ، وهو الفكر الواضح والذي يبني هذه الحياة ويعمّرها، فاقتلوهم كي لا يبقوا إلى الغدّ ويهدّدوا وجودنا، واقتلوهم كي لا يخرجوا من وجودهم تلك الشعلة، واقتلوا شبابهم.

﴿وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ﴾، وهنا نتساءل عن السبب الذي جعلهم يريدون إبقاء نسائهم أحياء، يوجد تفسيرٌ هنا: يُقال إنّ ذلك من أجل اختلاط النسل، ومن أجل أن ينجرّوا إلى الفحشاء، ومن أجل جعلهم محلًّا لإشباع الغرائز، ومن أجل أن يذلّوا رجالهم، فهنا يوجد عدّة وجوه في الكلام.

ولكنّه يقول فيما بعد ﴿وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ فكلّ تلك المخطّطات والدسائس التي حاكها الكفّار هي في ضلالة، أي لن تصل إلى نتيجة؛ إنّها كذلك الرمح الذي تطلقه باتّجاه العدوّ أو شخص ما وتريد به هدفًا فيأتي سهمٌ ويحرفه عن مسيره. أنت تطلق هذا السهم لكنّ رياح سنّة الله تأتي وتجعل هذه السهام بعيدةً عن أهدافها، فدعهم يحيكون المؤامرات ويضعون الخطط ضدّ موسى. ولعلّكم لاحظتم ها هنا أنّ تلك الطبقات الثلاث قد ذُكرت في هذه الآية وهي: طبقة فرعون، وطبقة هامان، وطبقة قارون. وقد ذُكروا معًا في سورة واحدة.

---

(٩٠) سورة غافر، الآيتان ٢٤ و ٢٥.

وفي آية أخرى، يوجد ذكرٌ للمترفين أيضًا وهي طبقة قارون بالخصوص حيث يقول: ﴿وَما أَرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ﴾[91] فالنذير هو الرسول، ﴿إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها﴾ وهم تلك الطبقة الأرستقراطيّة الثريّة التي تكتنز الأموالَ، ﴿إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾؛ وماذا كان دليلهم على رفض ما أرسل به النذير؟ ﴿وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً﴾، فانظروا أيّ مستوًى فكريٍّ كان عليه هؤلاء، وإلى أيّ درجة تنزّلوا في أفكارهم، ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، ينفون عن أنفسهم العذاب. وأمّا الآية الأخيرة فهي من سورة **التوبة** والتي ترتبط بطبقة الأحبار والرهبان حيث يقول الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ﴾[92]، وهنا إشارة إلى الكثير من العلماء والزهّاد، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فبالإضافة إلى أكلهم أموال الناس، فإنّهم يمنعونهم من سلوك طريق الله، ﴿وَالَّذِينَ﴾، وهنا يأتي ذكر طبقة المترفين مجدّدًا وهي طبقة الذين يجمعون الأموال ويكتنزونها حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾.

بناءً عليه، فقد لاحظنا في هذه الآيات وفي غيرها من عشرات الآيات الأخرى في **القرآن** علامة هذه الطبقات الأربع وتعرّفنا على عداواتهم.

---

(٩١) سورة **سبأ**، الآية ٣٤.

(٩٢) سورة **التوبة**، الآية ٣٤.

الجلسة العشرون: عاقبة النبوّة (١)

الثلاثاء، ٢١ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ﴾ [٩٣].

---

(٩٣) سورة الرعد، الآية ١٧.

يتحرّك الأنبياء نحو ذلك الهدف العالي والراقي الذي ليس هناك أعلى وأرقى منه؛ وكما بيّنّا في الأيّام السابقة وشرحنا، فبحسب المعايير الثقافيّة لعصر النور وعصر الوعي الإنسانيّ، أي القرن العشرين، فإنّ ذلك الهدف يُعتبر أرقى الأهداف؛ وهذا الهدف هو عبارة عن جعل جميع الناس طبقةً واحدةً يعيشون في المساواة، ولذلك أيضًا يجب القضاء على الجهل والفقر والظلم والاستغلال والاختلاف الطبقيّ. بهذا الهدف العظيم والراقي والسامي يُبعث الرسل ويتحرّكون داخل المجتمعات البشريّة.

فإذا نظرنا إلى حياة رسل الله، فإنّنا سنجد حصيلة هذه الحياة وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الفعّاليّات والمساعي والجهاد المستمرّ؛ فتراهم قد طووا فراش الراحة والنوم الهنيء منذ بداية البعثة، وأغمضوا العين عن اللهو واللغو والراحة والدعة، وقاموا بجعل حياتهم كلّها عبارة عن جهادٍ مستمرّ؛ هذه هي عصارة سيرة الرسل الإلهيّين. ثمّ نجد أنّ حياتهم تُختتم، بحسب ما علمناه من الآثار الدينيّة، بأن يُفصل رأس أحد هؤلاء الأنبياء عن جسده في مواجهة المتجبّرين وطغاة زمانه، ويُهدى هذا الرأس لطاغية زمانه؛ وقد قُدّ جسد أحدهم قدًّا داخل شجرةٍ وصار نصفين، وقد خرج بعضهم من هذه الدنيا في غربةٍ وألم؛ ولم يجمع أيّ واحد منهم ثروةً ولو كانت قليلةً، ولم يكن لأيّ واحدٍ منهمٌ في آخر حياته القصور والتشكيلات والثروات الطائلة مثل زعماء العالم وأهل الدنيا. هذه هي عصارة حياة الأنبياء والسفراء الإلهيّين، هؤلاء الذين كانوا عاملين بما أمرهم الله؛ وهذا ما عرفناه.

وهنا يبرز هذا السؤال، فنقول: أيّها السيّد، بحسب ما هو موجودٌ في أذهاننا وبحسب ما نقرأ في تاريخ النبّوات فإنّ الرسل قد أمضوا حياتهم في السعي المستمرّ والجهاد، والكثير منهم قد شربوا من كأس الشهادة فقُتلوا في سبيل الله، فهل أنّ أعمالهم كانت فاقدةً للثمرة والفائدة في النهاية؟ وهل أنّ هؤلاء الرسل الذين مرّوا على تاريخ البشريّة قد فشلوا أو هُزموا؟

وهل أنّ الأمر كان كما يتصوّر أصحاب الأذهان أو أصحاب التفكير الساذج في هذا العالم، حيث يُقال إنّ مساعي الأنبياء لم تصل إلى نتيجتها المثمرة، وأنّ الظلم والعدوان والطغيان والكفر كان مهيمنًا دومًا من فجر التاريخ - وكما نعلم فإنّ كلّ هذه القوى التي وقفت في مقابل الأنبياء لا يسوؤهم حتمًا أن تكون الفكرة كذلك في أذهان عامّة الناس - فهل أنّ الأمر كان كذلك؟ إنّنا نعتقد أنّ الأمر لم يكن على هذا النحو، بل نؤمن بأنّ هؤلاء المأمورين الأعزّاء عند الله، التي تبدأ سلالتهم من آدم ونوح وإبراهيم، والذين هم زبدة عالم الخلق في هذه السلسلة، قد جاؤوا ولم يفشل أيّ واحدٍ منهم، ولم يتعرّض كلامهم وإرادتهم في هذا العالم وفي التاريخ وفي المجتمع للفشل، بل لم يكن لأيّ إنسانٍ من بين كلّ هذه البشريّة، ومن بين جميع أولئك الذين كانوا يسعون ويتّجهون نحو الهدف والمقصد، لم يكن لأيّ واحدٍ مثل هذا الحظّ والنجاح الذي كان للأنبياء. هذه هي عقيدتنا. نحن نعتقد أنّ عاقبة النبوّة ونهاية عمل الرسل كانت طوال التاريخ وعلى مرّ الأزمان وفق ما أرادوا، وستكون كذلك في المستقبل؛ وسوف نثبت هذا الأمر.

يوجد هنا مطلبان ومبحثان. أحدهما هو: ماذا حقّقت هذه السلالة المعروفة بالنبوّة والرسالة، أي قافلة الأنبياء والرسل من آدم؟ فلنا أن نتساءل عن الإنجاز الذي حقّقوه بالمجموع، فهل أنّهم تقدّموا أم أفلسوا؟ هذا مطلبٌ. والمطلب الآخر هو: هل أنّ كلًّا من الأنبياء الإلهيّين العظام قد نجح أو هُزم في زمانه؟ فهنا مسألتان وإنّني أرغب أن أتعرّض لهاتين المسألتين في هذا اليوم وأتمّهما إن شاء الله؛ وبحسب قولكم فإنّكم لو راجعتم لرأيتم أنّكم تحبّون أن تدركوا هذه القضيّة؛ فهذا أمرٌ تُعدّ معرفته بالنسبة لنا مفيدة على أساس ذلك المعيار الذي قدّمته لكم دائمًا. إنّ الأمر المفيد ليس ما يزيد من معلومات الإنسان فقط، إنّ الكثير من الكلام ممّا يزيد من معلومات الإنسان ولكن لا يكون مفيدًا له. فلا عيب أبدًا أن يتعرّف الجميع على العناصر التي تتكوّن منها تلك القطعة الصغيرة للأحجار التي

تشكّل الجبال البركانيّة للقمر، ولكن هل تعلمون إذا كان هذا العلم سيّئًا أم مفيدًا؟ فإنّ الكثير من المعلومات التي يجعلوننا نسعى لتحصيلها هي من هذا القبيل، حتّى إذا خلونا بأنفسنا واستمعنا وتكلّمنا وطالعنا وقمنا بالتحقيقات المناسبة وكتبنا وأشرفت أعمارنا على الانتهاء، نجد بنظرة واحدة أنّ كلّ هذا الركام الهائل من المعلومات كان هباءً. لقد كانت معلوماتٍ غير مفيدة ولم تقرّبنا خطوةً واحدةً نحو الجنّة، ونحو رضوان الله؛ إنّ ما نراه عندئذ هو أنّنا لم نتقدّم خطوةً واحدةً في هذه الدنيا نحو المجتمع الإسلاميّ الصحيح والأصيل، فلم تفعل تلك المعلومات أيّ شيء. لماذا؟ فالفائدة الوحيدة ها هنا هي أنّنا كنّا نستطيع أن نعتدّ بأنفسنا ونتصوّر أنّنا أصحاب معلومات كثيرة ولدينا الكثير من العلم؛ وبذلك أغلقنا نافذةً واسعةً فُتحت أمامنا، ولم نتعلّم شيئًا من أحد؛ أجل، كانت هذه هي الفائدة الوحيدة.

إنّ هذا المطلب الذي أقوم الآن باستعراضه مفيدٌ بكلّ ما للكلمة من معنًى، وهو لا يقدّم لنا الاطّلاع فحسب، بل الاطّلاع وتحمّل المسؤوليّة؛ من قبيل كلّ أنواع الإيمان التي شرحتها لكم وذكرتها في جلسات سابقة من اليوم الثالث والرابع والخامس من شهر رمضان. إنّ القضيّة الأولى هي ما هو الأكليل الذي وضعته هذه السلالة التي نُطلق عليها كلمة النبوّة على رأس البشريّة من أوّل مجيئها وإلى نهايته؟ والجواب هو أنّ الأنبياء قد جاؤوا ليجعلوا من هذا الموجود - الذي لم يكن قادرًا على أن يميّز بين الطريق والبئر كما يفعل الحيوان، هذا الموجود الذي كانت الغريزة فيه بدرجة من القوّة لكن دون أن تكون هادية - موجودًا بمستوًى تحتاج معه ملائكة السماء لأن تأتي إليه وتتعلّم منه؛ لقد أخذوا بيد البشر من حضيض التوحّش والجهالة ليصلوا إلى حدّ الإنسان المتحضّر الذي لو أراد أن يعمل على أساس تعاليمهم لبرزت فيه أعلى وأجمل وأفضل تجلّيات الخلقة في الحياة. فالناس يشبهون تلميذ المدرسة - سأسعى أن أبيّن هذا المطلب

بأبسط ما يكون وأنزله إلى أدنى مستوًى - الذي لا يعرف شيئًا، حتّى الألف باء، فيتمّ العمل عليه على مدى سنة حتّى ينتقل إلى الصفّ الثاني؛ لكن المعلّم أثناء الصفّ الأوّل وإلى أن يكون التلميذ قد وصل إلى الصفّ الثاني، يكون هذا المعلّم قد بذل مهجته في هذا العمل - وهكذا هم الأنبياء - وفي العصر التالي، يتحمّل [التلميذ] كلّ المتاعب حتّى ينتقل إلى الصفّ الثالث، لكن يكون المعلّم الذي أوصله إلى هذا الصفّ قد بذل نفسه على هذا الطريق؛ ثمّ يأتي عصرٌ آخر، ويبدأ بذل جهدٍ جديد حتّى يصل التلميذ إلى الصفّ الرابع، ونرى المعلّم هنا، كالأب العطوف والمرشد الحكيم، الذي كان يبذل نفسه طوال هذه المدّة التي كان يرتقي بها التلميذ إلى صفٍّ أعلى ورتبة أعلى، وينتقل من هذا العالم وهو يقاسي كلّ المشقّات في هذا العالم. وهكذا يرتقي [المعلّمون] بهذا الطفل الصغير صفًّا بعد صفّ، وخطوةً بعد خطوة، ومرحلةً بعد مرحلة، ويرتقون به ويرفعونه؛ وإذا نظرتم أنتم إليه الآن سترون أنّ مستواه الثقافيّ والمعرفيّ ومستوى إدراكه ومشاعره قد أصبح عاليًا جدًّا، أعلى بكثير من ذلك الزمان الذي كان فيه قبل مرحلتين، وها هو قد وصل إلى أوج الترقّي والسموّ والإدراك والفهم والفكر.

وعندما تنظرون هنا وهناك، لن تجدوا المعلّمين! فتتساءلون أين ذهبوا؟ فأحدهم قد بذل نفسه أثناء الصفّ الأوّل بينما كان يرتقي بذهن هذا التّلميذ البطيء على سبيل المثال ويرفعه، وذاك الآخر الذي كان يعلّم التّلاميذ قد هجموا عليه وقتلوه في آخر العام بسبب خلاف أو شجار؛ وقد حصل الأمر نفسه مع معلّم الصفّ الثالث ولكن بطريقة أُخرى، ومع معلّم الصفّ الرابع بطريقة مختلفة أيضًا؛ فلم يعد المعلّمون موجودين، لأنّ كلّ معلّم قد أدّى رسالته وبحسب الظاهر قد مات وارتحل عن هذا العالم ولم ينجز شيئًا، ولكن هل يمكن أن نقول أنّه فشل؟ فكّروا جيّدًا وسترون إذا ما كان هذا المعلّم قد فشل أم لا. فنسأل نحن: ماذا كان هدف المعلّم؟ ألم يكن هذا المعلّم الحريص يبتغي ما حصل؟ ألم يحدث ما كان يريد

وهو أن يوصل هذا التلميذ إلى أوج قمّة الثقافة والمعرفة بعد أن كان في تراب المذلّة والجهل. فالمعلّمون إذن لم يموتوا فاشلين. صحيحٌ أنّهم ماتوا، وصحيحٌ أنّهم لم يصلوا إلى الحياة المرفّهة في هذا العالم، وصحيحٌ أنّهم لم يشاهدوا بأعينهم وصول هذا الفسيل أو الغرسة إلى الثمرة، ولكن نسأل: هل أنّهم فشلوا؟ كلّا، لم يفشلوا، لقد كان هذا هو هدفهم، أي أن تطوي البشريّة هذا الصفّ الأوّل والثاني، وأن يتقدّم هذا التلميذ الجاهل وغير الواعي على هذا الطريق، بكلّ صعوبةٍ وشدّةٍ وتعبٍ، إلى أنّ يصل إلى أوج القمم؛ وها قد وصل.

هكذا كان الأنبياء جميعًا؛ فمنذ آدم النبيّ، ونوح، وهود، وصالح، وشُعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وعيسى، وآلاف الأنبياء الآخرين على مرّ التاريخ؛ لقد كانوا جميعًا على هذا المنوال، [لقد بذلوا مهجهم] من أجل أن يرتقوا بالبشريّة ويعلّموها ويفتحوا لها أبواب العلم والمعرفة، وكذلك من أجل أن يهيّئوها للتوجّه نحو الحياة الآخرة ويمنحوها كلّ ما تحتاج إليه في هذا المجال، وقد أنجزوا هذا العمل؛ هذا وإن أدّى ذلك إلى أنّ يُقتل بعض هؤلاء الأنبياء بتلك الطريقة المفجعة وبذاك النحو الذي تهتزّ له القلوب أثناء طيّ الطريق، وارتحلوا من هذا العالم دون أن يشهدوا تلك النتائج؛ إلّا أنّ البشريّة كانت وما زالت معهم في حالٍ من التّقدّم الدائم.

إنّ عالمنا اليوم هو أكثر استعدادًا لسماع كلام الحقّ الذي ينطق به الإسلام مقارنةً بما كان عليه قبل ألف سنة. إنّ البشرية اليوم، أصبحت أكثر استعدادًا لتقبّل الحكومة الإلهيّة مقارنةً بما كانت عليه قبل ١٢٠٠ سنة أو ١٠٠٠ سنة بل قبل ٣٠٠ سنة، وسوف تكون أيضًا أكثر استعدادًا في الألف سنة المقبلة. ففي ذلك العصر الذي غاب فيه إمام الزمان (عج) عن الأنظار ولم يتمكّن من أن يبسط للناس ذلك البساط، الذي هو بساط الإمامة كما نقول، ففي ذلك اليوم لم يكن البشر مستعدّين لتقبّل إمام ثوريٍّ مصلحٍ يحمل السيف بيده، فلو أراد ذلك الجليل أن ينهض ويثورَ

ويقلب أوضاع المجتمع ليصنع مجتمعًا كما كان يدّعي، فمن المحتّم أنّه ما كان ليستطيع ذلك في ظلّ ظروف ذلك العصر غير المساعدة.

إنّ تجربة الأئمّة العظام من عترة النبيّ، كانت قد توصّلت إلى أنّ المجتمع قد أصابه الفساد بحيث لم يعد بالإمكان أن ينبت فيه أيّ نوعٍ من النباتات الصحّيّة، ويمكننا أن نشبّه الوضع الذي حصل بفعل الأيادي الظالمة والجائرة للقوى الطاغوتيّة من بني أميّة وبني العبّاس بالسموم والمفاسد التي كانوا يبثّونها في ذلك المجتمع. لهذا اختفى الإمام عليه السلام عن الأنظار، فماذا سيحصل عندما يأتي ذلك اليوم الذي سيظهر فيه؟ ونحن لا نعلم متى سيكون، بعد عشر سنوات أو ألف سنة أو أكثر أو أقلّ؟ فليس معلومًا البتّة، لكن في اليوم الذي سيظهر فيه الإمام ستكون البشريّة قد وصلت إلى حالةٍ من الاستعداد لتستمع إلى الكلام الحقّ وتتقبّله، وستكون مستعدّةً لحمل المجتمع الإسلاميّ الرفيع والمرتفع على أكتافها، وستكون مستعدّةً لتطبيق القرآن وإقامته، هكذا ستكون البشريّة في ذلك الزمان؛ في حين أنّ البشريّة لم تكن مهيّئةً في زمن إمام الزمان، فمن الذي حقّق ذلك؟ إنّ الذي قام بهذا الدور هو تعاليم الأنبياء والأئمّة الذين اتّبعوا هؤلاء الأنبياء.

وأنا سأبيّن في بحث الإمامة فلسفة الإمامة، وسأقوم بشرح فلسفة وجود الإمام عليه السلام، وأوضّح الأمر جيّدًا. فالأنبياء، بناءً على هذا التفسير، لم يكونوا فاشلين في أيّة حقبة من التاريخ. ونحن نرى أنّه كلّما تقدّمت البشريّة وزاد عمرها، فإنّها تصبح أكثر قربًا من أوج الرقيّ والتكامل والسموّ، فماذا نريد غير هذا؟ وماذا يريد الأنبياء؟ إنّ ربّ العالمين يريد لهذه الاستعدادات الخامّ التي لم تنضج بعد، أن تصل إلى المقصد الطبيعيّ والفطريّ من خلال تلك الحركة الطبيعيّة وهو التكامل والترقّي. هذا ما أراده ربّ العالمين؛ ومن المسلّم أنّ البشريّة سوف تصل إلى تلك النقطة من الكمال النهائيّ، وهذا هو جبر التاريخ.. فالجبر التاريخيّ هو هذا؛ وهذا

أفضل تعبير عنه.

إنّ هذه الأبحاث أبحاثٌ دقيقة، فأرجو منكم أن تدقّقوا في الألفاظ والكلمات وتعتنوا بها. إنّ مسيرة البشريّة تتّجه نحو العلوّ والتكامل، نحو الجنّة الموعودة في هذا العالم، وسوف تشهد الإنسانيّة بنفسها ذلك العصر الذي يضمحلّ فيه الظلم، ولا يكون فيه القبح والسوء، وسوف يكون كلّ شيء مطابقًا لما تريده الإنسانيّة، هذه هي كيفيّة خلقة الإنسان وخلقة العالم؛ وهذا يعني أنّ هذا الموجود سوف يصل في مسيره إلى مثل هذا المقصد في نهاية المطاف، ويجب أن يصل؛ وهو ذلك العصر الذي تستعدّ فيه البشريّة لكلّ ما يلزمها من أجل تكاملها، هناك ستحقّق تلك البيئة والمهد اللازم للرقيّ والتكامل والسموّ وستسير بسرعةٍ وعلى أفضل ما يكون إلى الله، أي إلى الكمال المطلق. فمنذ بداية التاريخ البشريّ وإلى زماننا هذا، ونحن نتقدّم، ونقترب أكثر فأكثر من المنزل المقصود؛ هذا هو جبر التاريخ؛ ونقول مجدّدًا هذا هو مقتضى خلقة الإنسان وخلقة العالم؛ فهذا ما اقتضاه الله لخلقه، أن يتحرّك الناس نحو الرقيّ والتعالي شاؤوا أم أبوا. وبالطبع، ينبغي أن تعرفوا معنى قولنا «شاؤوا أم أبوا»، ضمن سلسلةٍ من الأفكار؛ وفي البحث الآتي سيتّضح معنى «شاؤوا أم أبوا». إنّ إرادة النّاس لها مدخليّة كبرى، ولا شكّ أنّ هذا الترقّي الذي ستحقّقه البشريّة وتصل إليه سيكون بناءً على إرادتها.

فأن تكون عاقبة البشريّة حسنة هي أحد الأصول الإسلاميّة، التي تُعدّ من المسلّمات في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة. لماذا؟ لأنّ الله تعالى قد خلق السماء والأرض على أساس الحقّ. والإنسان قد خُلق بفطرةٍ باحثة عن الحقّ، ولأنّ للإنسان إرادة فينبغي أن يتحرّك على الطريق الّذي يتطابق مع فطرته حتّى يصل إلى ذلك المقصد. فمن هو الشخص الذي يمكنه أن يبيّن له هذا الطريق ويخبره ما هو العمل الذي إذا قام به، فإنّه يكون قد عمل وفق الفطرة؟ إنّهم الأنبياء، والأنبياء قد جاؤوا من أجل هذا؛

من أجل أن يظهروا للإنسان طريق الفطرة أي أنّهم يقومون بتسريع سيره وتسهيله للوصول إلى تلك العاقبة الحسنة. وبناءً عليه، فإنّ الناس في حالة من التقدّم، وها هي البشريّة تسير يومًا بعد يوم وتقترب من السعادةً والمقصد الحسن، كلّ ذلك بسبب تلك الحركة التي حقّقها لهم الأنبياء؛ فالأنبياء هم الذين حرّكوا هذه الإنسانيّة، وأيّ تأخيرٍ كان قد حصل عبر التاريخ أو في أيّ مقطعٍ، أو مرحلة من مراحله، فقد كان بسبب الابتعاد النسبيّ عن تعاليمهم؛ إلّا أنّ البشريّة كانت في النهاية تسير على هذا الخطّ، وهذا هو أحد المطالب التي سنبيّنها بنحو كلّيّ.

وهكذا، نستنتج في القضيّة الأولى ونقول: إنّ الأنبياء الإلهيّين العظام، وإن واجه كلّ واحدٍ منهم كلّ أنواع الحرمان وعدم التوفيق، لكنّهم على نحو المجموع كانوا يحرّكون مسير البشريّة نحو الرقيّ والتعالي؛ وقد مثّلوا العامل الأصليّ وراء ذلك. فالأنبياء هم الذين كانوا يوجّهون هذا الإنسان ليصل إلى ذلك المقصد النهائيّ ويتحرّك نحو غاية العاقبة الإنسانيّة، وكانوا يمنحون هذا التحرّك كلّ ما يحتاج إليه لكي يكمل عمله على هذا الطريق، هذه هي القضيّة الأولى.

أمّا القضيّة الثانية، وهي التي يلتفت إليها أكثر الناس ويعتنون بها أكثر من غيرهم، فهي القضيّة الثانية التي سوف أوضحّها لكم. وهي التي ترتبط بسؤالنا حول مجيء الرسول إلى العالم وقيامه بتلك النهضة وتفعيله للثورة والبعثة؛ فهل يمكن أن نقول إنّ هذه الثورة قد آتت أكلها ووصلت إلى عاقبةٍ حسنة أم لا؟ وهل يمكن أن يؤمل بأنّ نهاية وخاتمة هذا العمل كانت حسنة، أم أنّه لا يصحّ أن يكون هناك أمل؟ فما هي القاعدة الكليّة في هذا المجال؟

البعض يقولون إنّه أينما جلنا سنجد أنّه أينما صدر كلام حقّ من لسان، ومن أيّ جانبٍ وصلت نغمة الحقيقة إلى الأسماع، فإنّها لم تصل إلى أيّة نتيجة أو ثمرةٍ في النهاية، بل تمّ خنقها؛ ولقد صنعوا من هذه القضيّة تجربةً وقالوا: إنّ تجربة التاريخ البشريّ تدلّنا دائمًا على أنّ الأنبياء لم يوفّقوا

أبدًا؛ ويقولون: وإن قلتم أنّهم ظفروا على نحوٍ كلّيّ، لكنّهم لم يتمكّنوا في نهاية المطاف من إيصال هذه الثورة التي صنعوها إلى غايتها، فهناك لم يتمكّنوا من إيصال الحقّ إلى الحكم والقضاء على الباطل. حسنٌ، وبناءً عليه، ماذا نفعل نحن؟ فلا ينبغي لنا بعدها أن نرفع يدًا، أو أن نخرج ذراعًا من الأكمام، أو أن نتّبع طريق الأنبياء؛ لأنّه إذا كان الأنبياء الإلهيّون العظام أنفسهم لم يتمكّنوا من أن يقوموا بأيّ عمل، وكانت الغلبة للباطل على الحقّ دائمًا - وإن كان على نحوٍ موسميٍّ أو مرحليّ - فماذا سيستفيد أصحاب الحقّ والناطقون بالحقّ؟ فليُعلم أنّه لن يحصل شيءٌ ذو فائدة، وليقوموا بوضع سيوفهم في الأغماد ويأخذوا استراحةً أو يناموا؛ إلى أن تخرج يدٌ مقتدرةٌ وتكون هذه اليد يد الغيب وتفعل ما ينبغي؛ هذا هو منطق الكثير من الناس، وهو ذاك المنطق الذي تحدّثت عنه، وهو المنطق الذي يعجب جبابرة التاريخ كثيرًا، إنّه ذلك المنطق الذي كان يعشق المستبدّون على مرّ التاريخ أن يكون الناس على اعتقادٍ به؛ أي أن يعتقد الناس أنّه لا يمكن لأيّة فاعليّة أو سعي أو مجاهدة أن تثمر على طريق الحقّ. هذا ما كان يريده جبابرة العالم على الدوام.

إنّ الخدع السياسيّة لزعماء دول العالم، والتي تطالعون أخبارها كثيرًا في الجرائد التي تذكر أوضاع العالم، هي من أجل هذا الهدف. فذلك الرجل الذي لم يبقَ له سوى ساعاتٍ قليلة أو عدّة أيّام حتّى يتهاوى عرش حكومته، وعمّا قريب سيصبح رجلًا عاديًّا ويتنزّل من أوج رئاسته للجمهوريّة، نجده قبل هذه الأيّام القليلة يمارس الخداع، ويقول: إنّنا سوف نقمع أعداءنا، وسوف نقضي على معارضينا، وسوف نستمرّ بالحكم؛ مثلما أنّكم قد شاهدتم في هذه الأيّام الأخيرة في العالم، وعلى مستوًى عظيم جدًّا في العالم، لقد رأيتم بأعينكم كيف أنّ قدرةً، مع كلّ ما فيها من عظَمة، تتهاوى دفعةً واحدة ويتحوّل صاحبها إلى رجلٍ عاديّ؛ لكنّه قبيل هذا الفعل والانفعال، والتحويل والتحوّل، يقول إنّهم لن يقدروا ولن يستطيعوا، إنّهم لن

يتمكّنوا من أن يفعلوا شيئًا معنا، وإنّ رئاستنا لا يمكن أن تزول، ثمّ نرى بعد ذلك أنّها تهاوت وزالت؛ هذه هي الخدع التي تُمارس من أجل هذا الهدف. إنّهم يرغبون دائمًا بإشعار الناس بمثل هذا الأمر أنّهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا، وذلك لأنّ قدرتنا هي قدرة لا يمكن لكم أن تتخيّلوها، فنحن لدينا جميع الإمكانات والوسائل، وأنتم لا تملكون شيئًا منها.

فهل تتصوّرون أنّ هؤلاء لم يوجدوا في هذا العالم إلى اليوم؟ كلّا، لقد كانوا عبر التاريخ وفي كلّ الأزمنة. ففي مورد النبيّ موسى يقول فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[94] فها هو يقول: لن أدع موسى، ولن أسمح له أن يفعل ما يريد، بل إنّني سوف أقتل أبناء كلّ أتباعه وأبقي على نسائهم؛ وهذه هي الخطّة الجديدة. وبعد أن مارس فرعون كلّ ما يمكن أن يمارسه من ضغوط تجاه موسى، ولم يدع شيئًا إلّا وواجهه به، وكان يظنّ أنّ موسى سوف يُقضى عليه، ها هو الآن يصل إلى نتيجة وهي أنّ السحرة قد آمنوا به، ولم يقدر السحر على مواجهة المعجزة، فتجده يقرّر أن يمارس عنفًا شديدًا. فالمطروح هو التعامل بشدّة وعنف، ويقول إنّه يجب علينا أن نبذل كلّ ما بوسعنا؛ فماذا نفعل؟ يجب علينا أن نقتل كلّ الذين اتّبعوا موسى وأن نبقي على نسائهم أحياءً، ﴿نَسْتَحْيِي﴾ يعني نبقيهنّ أحياءً، ولا بدّ أنّه كان من أجل الفحشاء أو من أجل إفساد نسلهم أو أشياء من هذا القبيل. وهنا، لا شكّ أنّ الأمر قد وصل إلى صعوبة شديدة، فها هو حزب موسى يقف مقابل خطّة جهاز فرعون التي تريد أن ترفع من مستوى العنف بشكل غير مسبوق. فنجد أنّ الفرائص ترتعد، وأنّ القلوب القويّة والثابتة تتزلزل، فهل أنّ في هذا الأمر مزاح؟ فهذا الشخص هو فرعون، وحين يقول إنّني سأفعل بهم ما أفعل، وقد أعددت خطّةً من أجل أن لا أترك لهم أيّ ولد، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يأتي الزمن الذي يجب أن يُشحن الموسويّون ويعبّأوا، ويجب أن لا يشعروا في مثل هذه اللحظات الحسّاسة والخطرة بأيّ

(٩٤) سورة **الأعراف**، الآية ١٢٧.

نوع من الهزيمة.

وقد تذكّرت هنا قولًا لأحد عظماء تاريخنا - وهي ترتبط بقرننا الأخير عمومًا، وقد نُقلت عنه هذه الجملة منذ قبل خمسين أو ستين سنة في هذه المواجهات التي دارت حول الملكيّة الدستوريّة (المشروطة) وأمثالها، وقد صار اسمه على جميع الألسن - حيث يُقال إنّه قال لأنصاره وحلفائه: حاربوا وواجهوا، وعندما تجدون أنّ الأمور قد وصلت إلى الشدّة والصعوبة فاستمرّوا بالمواجهة، حتّى إذا رأيتم أنّكم ستُهزمون حتمًا واجهوا، فهناك سوف تنتصرون؛ وهذا كلامٌ صحيحٌ. فإنّ أيّ شعبٍ أو جماعةٍ أو حتّى الفرد الواحد، إذا أراد أن يسعى للوصول إلى صلاحه ونجاته، يجبُ عليه أن يكون في مرحلة زمنيّة ما مؤمنًا أنّ سعيه سوف يثمر. وعندما تشتدّ المواجهة ويبدأ بفقدان أمله، فإنّه إذا تخلّى عن السعي، فلا شكّ أنّ سعيه لن يصل إلى النتيجة المطلوبة؛ ولكنّه في حال استمرّ في هذا السعي في تلك اللحظات الحسّاسة، واستقام على الطريق، ولم يتوقّف، حتّى لو شاهد بأنّ سعيه سوف يُحبط حتمًا، فإنّه لو استمرّ في سعيه، فإنّه سيصل حتمًا إلى التوفيق والنجاح.

وهنا، نجد أنّ موسى قد استفاد من هذه الخطّة الفرعونيّة من أجل تعبئة بني إسرائيل. فعندما شاهد بنو إسرائيل [أنفسهم] بأنّهم سيُهزمون حتمًا، وعزم فرعون على قتل جميع أبنائهم، قام موسى بعرض خطّته الجديدة مقابل خطّة فرعون الجديدة، فماذا قال لهم؟ نجده يقول لقومه عندما أصبح مقابل هذا الاستحقاق والتّهديد الفرعونيّ، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾[٩٥]، معلنًا عن موقفه في مواجهة إعلان فرعون لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ فهو يدعوهم إلى الاستمرار والمقاومة وعدم التوقّف عن السير وسط الطريق، فهو يبثّ فيهم الأمل، لماذا؟ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، فنحن عباد الله، وموسى يقول لبني إسرائيل إنّكم

(٩٥) سورة **الأعراف**، الآية ١٢٨.

عباد الله، وإنّ عباد فرعون لن يصلوا في سعيهم وكيدهم إلى أيّة نتيجة لأنّ الأرض لعباد الله، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فإنّ نهاية الأمر وعاقبته ستكون للذين يسلكون سبيل التقوى.

هذا هو القرآن، وهذه هي الوقائع التاريخيّة التي توصلنا إلى هذه النتيجة وتدلّنا عليها. وها هو إبراهيم نفسه، نجده في يوم أرادوا أن يلقوه في النيران، وفي يوم آخر نجده في مكّة يبني بيت الله من أجل تشكيل المجتمع التوحيديّ، ومن أجل أن يبقى هذا المجتمع لقرونٍ آتية بعده. وها هو موسى يومًا نجده يواجه فرعون بهذا النحو، وقومه من بني إسرائيل يعيشون كلّ الضغوط، ويومًا نجده يدخل تلك الأرض المقدّسة، ﴿يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾[96]. فاذهبوا إلى تلك الأرض وأنشئوا المجتمع الإلهيّ والتوحيديّ فيها. وها هو عيسى بن مريم في تلك المدّة القصيرة من إقامته على هذه الأرض وبين الناس، ورغم أنّ سعيه وفاعليّته لم تعطِ ثمرةً ظاهرةً، لكنّه بعد أن عرج من هذه الأرض ولم يبقَ بين الناس، وبعد قرنين من الزمن تصبح أعظم القوى العالميّة في ذلك الزمان تحت تأثير الفكر المسيحيّ وهي الإمبراطويّة الرومانيّة. فمع كلّ عظمة هذه الإمبراطوريّة الرومانيّة، تصبح متّبعةً للفكر المسيحيّ، ويتحوّل إمبراطورها إلى المسيحيّة ويؤمن بدين المسيح.

وها هو نبيّنا الذي كان يعاني في مكّة من كلّ تلك الضغوط، حيث مارسوا عليه، وعلى مدى ثلاث عشرة سنة، أشدّ أنواع العذابات والأوضاع الشديدة، وما إن يصل إلى المدينة حتّى يشكّل فيها حكومة، ويوجد ذلك المجتمع، ويثبّت نظامًا، ويسوق الناس نحو الكمال، ويشتّت أعداءه العنيدين ويصرعهم أرضًا؛ وكلّ ذلك إنّما يتحقّق في ظلّ الإيمان والصبر. فأينما وُجد الإيمان وُجد الصبر ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾[97]. فلو وُجدت التقوى

---

(٩٦) سورة **المائدة**، الآية ٢١.

(٩٧) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٥.

في الإيمان المتلازم مع العمل والصبر، فحينها سوف يأتي النصر؛ وهذه السنّة هي من سنن عالم التكوين، وهي سنّة الله في التاريخ. لقد كان الأمر هكذا في الأمس، وسوف يكون الأمر على هذا النحو اليوم، وسيكون كذلك في الغدّ. فإذا استطاعت جميع القوى الدينيّة أن تصبح قادرةً أو بقيت، فإنّ ذلك كان بفعل الإيمان والصبر. وفي يومنا هذا، فإنّ أولئك الذين يحبّون أن يسود القرآن والإسلام والتوحيد والنبوّة وأصول الإسلام المقدّسة، وهؤلاء الذين يرغبون بأن تتمكّن هذه الأصول من أن تصبح راسخةً في العالم وتأخذ بزمام حياة البشر، وهؤلاء الذين يرغبون بمشاهدة الله حاكمًا في العالم؛ فعليهم أن يرفعوا من مستوى قوّة الاستعدادين الأساسيّين في أنفسهم، هما: استعداد الإيمان واستعداد الصبر. فلو أنّنا رفعنا من مستوى الإيمان وخميرة الصبر في أنفسنا ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، فلا يمكن لهذا أن يحصل من دون الإيمان ومن دون الصبر. هذا هو الجواب الذي نقدّمه على هذين السؤالين. لقد كان السؤال الأوّل حول ما إذا كان الأنبياء الإلهيّون من حيث المجموع قد نجحوا أو فشلوا، فنقول إنّ جميع الأنبياء كمجموعةٍ واحدةٍ قد نجحوا، وذلك بدليل أنّهم أرادوا للبشريّة أن ترتقي وتسمو وقد حصل ذلك. بالطبع، لقد عرضت لهذا المطلب في المجالس والمحافل المختلفة سواء في الدروس أو التفسير أو الأبحاث التي تُطرح بعد الصلاة، وكنت في كلّ مرّةٍ أضرب مثالًا، ولو أردت أن أطرح جميع تلك الأمثلة لطال الأمر؛ ولقد ذكرت لكم أحد هذه الأمثلة وهو التلميذ في الابتدائيّة.

لقد كان جميع الأنبياء موفّقين وناجحين من حيث المجموع ولم يفشلوا. ولكن يأتي السؤال الثاني وهو ما إذا كان كلّ نبيٍّ على حدة، وفي كلّ نهضةٍ من النهضات الثوريّة والإلهيّة والتوحيديّة، قد وصل إلى النجاح أم لا؟ ونحن نقول إنّه يوجد ها هنا قاعدة عامّة، وهذه القاعدة العامّة هي أنّ كلّ من يتحلّى بالإيمان والصبر يكفيه ذلك لتحقيق النجاح، وأنّ من لا يتحلّى

بالمقدار الكافي من الإيمان والصبر فإنّه لن ينجح. والآن التفتوا جيّدًا إلى المجموعة الآتية من آيات **القرآن**، وهي مُستقاة من مصدرين: الأوّل سورة **الرعد**، والثاني من سورة **الصافات**.

﴿ قل اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [٩٨]، فلأنّه خالق كلّ شيء يمكنه أن يخبرنا ماذا ستكون عاقبة الأشياء، وذلك لأنّه تعالى يريد أن يحدّثنا عن عاقبة الحقّ والباطل. فيبدأ ذلك أوّلًا بذكر خلقه لهذا العالم، والخالق يعلم السنن والقوانين التاريخيّة، فكأنّه يقول اسمعوا منّي ﴿ قُل اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ، فإذا كان خالقًا لكلّ شيء فله الوحدانيّة وله القدرة والقوّة.

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ﴾ [٩٩]، وهنا يضرب لكم مثلًا. هذه الآية من ناحية التركيب اللغويّ العربيّ جميلة جدًّا، وللأسف إنّ الإخوة الذين لا معرفة لديهم باللغة العربيّة لا يمكنهم أن يتلمّسوا بدقّة هذا الجمال. فإنّه تعالى لا يقول إنّني سأضرب لكم مثلًا أوّلًا، وإذا كنتم أنتم تستمعون لن تفهموا أنّ هذا تمثيل وإلى أين يمكن أن يؤدّي، ولن تلتفوا، لكنّكم في النهاية ستدركون ما هو الخبر وأنّه في طور التمثيل، ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها ﴾ سواء كانت هذه الأودية عبارة عن أنهارٍ كبيرة أو سيول صغيرة، ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابِيًا ﴾ فهذا السيل الذي يجري في الممرّات النهريّة، يحمل فوقه ذلك الزبد الذي يبرز، بحيث إنّكم عندما تمرّون بجانب النهر ويكون الماء في طور السيلان، فإنّكم إذا وقفتم سترون أنّ الأمر ليس عبارة عن ماء، وإنّما هو عبارة عن زبد وأنّ الماء تحته وأنّ هذا الزبد قد نما وفار على سطح الماء الذي يجري؛ وكأنّ الماء السائل يريد أن يتظاهر بنفسه، فأنتم ترون الزبد والماء تحته.

ونذهب إلى موضع آخر حيث يوجد في مثالٍ ثانٍ: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ فإنّ تلك الأشياء التي يضعونها في النار كالموادّ المعدنيّة أو

---

(٩٨) سورة **الرعد**، الآية ١٦.

(٩٩) سورة **الحديد**، الآية ١٧.

كالحديد، ﴿ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ﴾ سواء كان الأمر من أجل التزيّن، مثلما يوضع الذهب في النيران لكي يصنعوا منه زينةً؛ أو يضعون الحديد، أو غيره كالنحاس، في النيران من أجل أن يصنعوا منه أشياء. وتلك الأشياء التي توضع في النيران من أجل أن تُستخرج منها الحلي والآلات والمتاع والبضائع، فيها أيضًا زبد مماثل لذلك الذي كان في السيول الجارية، ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾؛ وهناك عندما يذوب الحديد مثلًا ستجدون كيف أنّه يوجد زبدٌ فوقه، وكذلك عندما يذوب الذهب فله زبدٌ خاصّ، فما هو الأصل؟ وما هي المادّة التي تمنح الحياة؟ هل هو الماء أم الزبد؟ ولكن ما الذي تراه العين بحسب الظاهر؟ وماذا يتجلّى أمامها؟ وما هو الشيء الذي يظهر نفسه أكثر؟ إنّه الزبد.

وهنا نسأل: هل أنّ هذه الآلة والأداة المطلوبة للإنسان هي هذا المعدن أو الزبد؟ هل أنّ الموجود عند تذويب المعدن هو الذهب أم زبده؟ ولا شكّ أنّ الذهب والمعدن هو المطلوب، فما هو دور الزبد إذًا؟ إنّه يشبه الشيء الطفيليّ الزائد، ولكن ما هو الشيء الذي تراه العين أكثر؟ إنّه الزبد، لا الذهب ولا المعدن رغم أنّه منهما تُصنع الأشياء؛ ثمّ يقول مباشرةً: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾، وهكذا يظهر الله لنا الحقّ والباطل، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ فإنّ ما ترونه ظاهرًا هو الزبد وهو الباطل، أمّا ما يختفي تحت الزبد فهو الماء أو الذهب أو المعدن وهو الحقّ.

وهنا، وإلى هذا الحدّ نكون قد عرفنا المثل؛ فاستمعوا إلى ما يأتي بعده من الله، وكيف ستكون عاقبة هذا الشيء. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً﴾ إنّ الزبد الذي يكون فوق المياه الجارية ليس دائميًّا فهو موجودٌ في لحظة، وفي لحظة أخرى يصبح معدومًا. وعندما تفتح خراطيم المياه في مزرعتك، فإنّ ما يأتيك من السيول هو الذي يبقى لك، وهو الماء لا الزبد، فزبده يزول، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ سواءٌ كان هذا الذي ينفع الناس هو الماء أو المعدن أو الذهب، فإنّه يبقى

ويستقرّ في الأرض، ولا يزول. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ وإنّ الله تعالى يريد بهذا المثال أن يقول إنّ الحقّ ماكثٌ وباقٍ. وحيث إنّ دعوة الأنبياء ونهضتهم هي حقّ، فإنّها تبقى؛ في حين أنّ كلّ باطلٍ وقف في مقابل الأنبياء وتحدّى وتظاهر، فإنّه سوف يُذلّ ويذهب جُفاءً لأنّه كالزبد، إنّه مثل الحُباب والفقاع الذي نراه على الماء زائلٌ لا محالة. هذا هو المثل الذي ضربه الله.

وبعد هذه الآية التي أظهرت هذا المثال، يأتي تطبيقه في مجال المواجهات الاجتماعيّة للمسلمين، فيقول تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ وهي العاقبة الحسنة والأجر والثواب. فإنّ العاقبة تكون لأولئك الذين استجابوا لدعوة الأنبياء في نهضتهم، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ فسلكوا طريق الباطل، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾، فهناك نجد أنّ أتباع الباطل وعندما تصلَ الأمور إلى خواتيمها نجدهم مستعدّين لأن يدفعوا كلّ ما لديهم، حتّى ولو كانت لهم الأرض وما فيها مضاعفًا، من أجل أن ينجوا أنفسهم من هذه المهلكة؛ فهل شاهدتم أيّها الأعزّاء مثل هذا في التاريخ؟ ألم تروا تلك المواجهات المستمرّة بين الحقّ والباطل، وكيف أنّ بساط زعماء الباطل ورؤسائه قد طُوي وانقضى؟ ولو أنّهم كانوا يقدرون في تلك الأحوال أن يدفعوا كلّ هذه الدنيا من أجل أن ينجوا بأنفسهم وأرواحهم تماماتهم [لفعلوا]. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ عندئذ، سيُحاسب هؤلاء بئس ما يكون وسيكون محلّهم النهائيّ تلك النار المشتعلة. هذه هي آيات سورة الرعد.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾[١٠٠]، هذه الكلمة تظهر أمر الله الذي تمّ وانقضى. لقد اتُّخذ القرار اللازم وما يقتضيه في مكانه، فما هو هذا القرار؟ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فالنصر يأتيهم من قبلنا، وقد ذكرت سابقًا أنّ شرطه الأساسيّ هو ذلك الإيمان

(١٠٠) سورة **الصافات**، الآية ١٧١

والصبر. فرسول الله يدعو الناس في كلّ الميادين إلى الصبر، وكذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام، كانوا يقولون دائمًا: اصبروا؛ وما هو الصبر في ميدان الحرب؟ وماذا يعني الصبر في المواجهة؟ إنّه يعني عدم الإحساس بالوهن من المواجهة، وعدم إيقاف السعي أو تركه وسط الطريق، هذا هو معنى الصبر. فلو أنّ مسلمي العالم اليوم تمسّكوا بهذين العاملين: عامل الإيمان وعامل الصبر على طريق التطّور الثقافيّ والاقتصاديّ والسياسيّ لأصبح المجتمع الإسلاميّ متفوّقًا على الكفّار وعلى أعداء الدين بلحاظ الثقافة والسياسة والاقتصاد.

فلا ينبغي أن يظنّ المسلمون أنّ جباههم قد وُسمت بسمة المذلّة والتخلّف والفقر. كلّا، فلا ينبغي أن يظنّوا أنّ أعداء الدين والإسلام في كلّ أنحاء العالم، وهم الذين يمثّلون القوى العالميّة المخالفة، لا ينبغي أن يظنّوا أنّه ينبغي لهؤلاء أن يكونوا دومًا ممسكين بزمام المسلمين ويفرضون عليهم ما يحلو لهم ويستغلّونهم. كلّا، الأمر ليس كذلك حتمًا. فلو أنّ مسلمي العالم من الدول الإسلاميّة، ولو أنّ الجماهير المسلمة والشعوب المسلمة، وباختصار لو أنّ الأمّة العظيمة التي تُعدّ اليوم حوالي ٦٠٠ أو ٧٠٠ مليون نسمة اتّخذت الإيمان والصبر ذخيرةً، لانتصرت على العالم كلّه. وهذه هي وصيّة **القرآن** إلى جميع المسلمين في كلّ الأزمنة. هذه هي حصيلة بحثنا. لقد أردت لكم أن تعلموا أنّ عاقبة كلّ نبوّة هي عاقبةٌ حسنة، وأردتكم أن تتعرّفوا على هذا المطلب من القرآن.

الجلسة الواحدة والعشرون: عاقبة النبوّة (٢)

الأربعاء، ٢٢ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَٰءِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى الْأَلْبَابِ﴾[١٠١].

---

(١٠١) سورة **غافر**، الآيات ٥١-٥٤.

ذكرنا في الجلسات السابقة أنّ وعد الله لأنبيائه ورسله بين الناس هو وعدٌ يبعث الأمل ويمتزج بالبشرى، أي أنّ الله تعالى قد وعد بأن ينصر أنبياءه وحملة ثقل أمانة الرسالة وكذلك كلّ الداعين إلى الدين وإلى الحقّ والحقيقة، سواءٌ نصرهم في هذه الدنيا على أعدائهم، أو في الآخرة بإعطائهم الأجر والثواب. وبالمجموع، لقد اختصرت ما يمكن بيانه بشأن انتصار الأنبياء عليهم السلام في مطلبين؛ الأوّل: هو أنّنا عندما نلاحظ سلسلة النبّوات عبر التاريخ من أوّلها إلى آخرها، سنجد أنّ الذين أرسلوا معلّمين للبشريّة كانوا موفّقين وناجحين بالمجموع؛ وصحيحٌ أنّ بعض هؤلاء الأنبياء قد واجه بعض الفشل أو نكران الجميل من قبل الناس أثناء دعوته وإلى نهاية دعوته، لكنّنا عندما نحسب القضيّة بالمجموع نشاهد أنّ الأنبياء الأعزّاء قد أنجزوا ذلك العمل الذي أرادوا إنجازه منذ البداية وحتّى النهاية.

وكنت قد شبّهت عمل الأنبياء بالمعلّمين الذين يريدون تربية تلميذ المدرسة من أوّل مراحله الدراسيّة وحتّى نهايتها، مرحلةً بعد مرحلة، فيأتي ستّة معلّمين، أو عشرة، أو حتّى خمسة عشر معلّمًا، من المراحل الأولى وحتّى آخر المراحل، ويريدون أن يرتقوا بهذا التلميذ شيئًا فشيئًا من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة. هذا، وإن كان معلّم الصفّ الأوّل سيقطع مقدارًا من هذا الطريق ومن هذا المسير ويقدّمه لهذا الطفل ويساعده على طيّ هذا الطريق، وإن كان معلّم الصفّ الأوّل لا يشاهد وصول هذا التلميذ إلى أوج الكمال ويموت قبل ذلك، لكنّنا نتساءل ما هو الحكم الذي سنصدره بشأن نجاح معلّم الصفّ الأوّل أو عدمه؟ فهل أنّنا سنقول بما أنّه لم يتمكّن من إيصال التلميذ إلى آخر مرحلة، أو لأنّه لم يتمكّن من مشاهدة وصول هذا التلميذ إلى المرحلة الأخيرة، فهل نقول إنّه لم يكن ناجحًا؟ كلّا، لقد قام بما عليه ونقل حمل الأمانة إلى من أتى من بعده لكي يؤدّي دوره في هذه المسؤوليّة.

والمثال الآخر الذي كنّا نضربه دائمًا في هذا المجال: نقول إنّه لو كان من المقرّر أن ننقل حملًا كبيرًا مجهدًا من هذا المكان إلى رأس المسجد، ولا يستطيع شخصٌ واحدٌ أن يحمله أو ينقله على تلك العربة من هنا إلى هناك لوحده ودون إعانة شخص آخر، ولا يستطيع جميع الأفراد أن يساعدوا بعضهم بعضًا ليحملوا هذا الثقل دفعةً واحدةً وينقلوه، يبقى عندئذ طريقٌ واحدٌ وهو أن يقوم شخصٌ من هؤلاء الأقوياء المقتدرين المستعدّ لحمل هذا الثقل، بنقله لمسافة متر واحد، ثمّ يأتي شخصٌ وينقل هذا الثقل مترًا آخر، وهكذا يأتي الثالث والرابع إلى أن يصل إلى الشخص السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين والثلاثين، ففي النهاية سيصل هذا الثقل إلى آخر الباحة الخارجيّة والتي تفصلنا مثلًا عن المكان الأوّل بحدود ثلاث وثلاثين أو أربعين مترًا؛ وهذا المقدار من المسافة يكون قد قُطع وتمّ نقل الثقل، حيث إنّ كلّ واحد من الذين شاركوا في حمله تمكّنوا أن ينقلوه مسافة متر واحد، ولعلّ البعض منهم قد فقد روحه أثناء القيام بهذا الأمر، فلقد كان هذا الحمل ثقيلًا إلى درجة أنّه لو أراد الإنسان أن يتقدّم به مترًا واحدًا لاضطرّ أن يقدّم نفسه فداءً على هذا الطريق، وقد فعل ذلك؛ لكنّ الحصيلة الجمعيّة في هذا المجال أضحت أنّ روحًا عزيزةً قُدّمت فداءً لطيّ هذه المرحلة من الطريق واقترب الحمل منزلًا، واقترب أكثر إلى نهاية الطريق.

إنّ الأنبياء هم أولئك الأقوياء الجسيمون الذين تقدّم كلّ واحد منهم بهذا الحمل مترًا واحدًا، فنوحٌ عليه السلام جاء وتقدّم بحمل هداية البشريّة وإيصال أجيالها إلى أوج الثقافة والفضيلة مترًا واحدًا، وإن كان قد تحمّل كلّ أنواع الأذى لقطع هذا المتر، ولو كانت دعوته قد احتاجت إلى ألف سنة إلّا خمسين عامًا، وتقدّمت بشكل مختصر، وإن كان آخر الأمر قد قدّم روحه من أجل هذا العمل، لكنّه في النهاية قد أنجز وظيفته. أليس كذلك؟ ألم يقترب هذا العمل نحو الهدف المقصود مترًا؟ فأنتم ترون أنّ

الأمر قد حصل.

والنبيّ الذي جاء من بعد نوح، قام أيضًا بنقل هذا الحمل لمسافة متر إلى الأمام، وهكذا جاء النبي الثالث وفعل ذات الشيء. وعندما جاء خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم وبُعث بالرسالة أوصل هذا الحمل المذكور إلى حدٍّ معيّن مقدّر، ووضعه على الجادّة، ومن على الجادّة يضعه على العربة ويتقدّمً، وسوف تصل البشريّة إلى البلوغ بناءً عليه. إذًا، لقد كان الأنبياء موفّقين وناجحين من أوّلهم إلى آخرهم.

ثمّ وبعد ذلك وفي نهاية الأمر، فإنّ آخر سفيرٍ إلهيّ - والذي نذكره تحت قضيّة ظهور وليّ العصر صلوات الله عليه يمثّل تلك البُشرى لجميع الإلهيّين والمليّين في هذا العالم على مستوى هذه القضيّة؛ فهو آخر المبعوثين الإلهيّين، والذي نؤمن بأنّه إمام زماننا وإنّ كلّ أتباع الأديان في هذا العالم ينتظرونه - يأتي ويوصل هذا الحمل إلى نقطة النهاية. فمن كان يتّبع إمام الزمان في عمله هذا؟ لقد كان استمرارًا لعمل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وإتمامًا لعمل نبيّنا، واستمرارًا لعمل أئمّة الطهرً من آل بيت النبيّ. فإذا لم يصل هذا العمل إلى خطّ النهاية نقول إنّ نوح قد فشل، ولكن بما أنّه سيصل في النهاية إلى المقصود، ولأنّه كان لنوح دورٌ في إيصال هذا العمل إلى نهاية الطريق، فلا نقول إنّه قد فشل. وهكذا هو الأمر بالنسبة لإبراهيم، ولزكريّا الذي قُسم ظهره إلى نصفين، وبالنسبة لذلك النبيّ الذي قُسم بدنه إلى نصفين، وبالنسبة لذاك النبيّ الذي أُلقي في البئر؛ وصحيحٌ أنّه أُلقي في البئر، وصحيحٌ أنّه لم يرَ في الدنيا ما كان يريد أن يراه، وصحيحٌ أنّ يحيى عليه السلام قد قُطع رأسه وأُهدي إلى طاغية زمانه، كلّ ذلك صحيحٌ ولكن لا أحد من هؤلاء الأنبياء العظام قد هُزم؛ وذلك لأنّهم تحمّلوا كلّ هذه البلاءات والمصائب مقابل التقدّم بحمل الأمانة والاقتراب إلى المنزل المقصود.

المطلب الآخر الذي أشرت إليه بالأمس أيضًا، هو أنّنا رأينا أنّه في

العاقبة النهائيّة وفي خاتمة العمل الكلّيّة، لم يُهزم الأنبياء أبدًا، ولم تكن الهزيمة متوقّعة بالنسبة لهم، فإنّهم في نهاية المطاف نجحوا ووُفّقوا بحسب البيان الذي قدّمناه. لكنّ بعض الأنبياء، بالإضافة إلى ذلك التوفيق النهائيّ، الذي عبّرنا عنه بتقريب الوديعة من المقصد النهائيّ، قد حظوا بنجاحات في هذا العالم أيضًا، وكانت هذه النجاحات عبارة عن أنّهم تمكّنوا من إيجاد المجتمع على أساس الفكر التوحيديّ وعلى أساس المذهب الذي بُنيت فيه أطروحتهم. ومن النماذج الواضحة لهذه الواقعة نبيّنا الذي أوجد ذلك المجتمع أو النظام على أساس الفكر الإسلاميّ وأسلوب الفكر القرآنيّ والإلهام الإلهيّ، فكان ذلك مجتمعًا ومدينةً. وكثيرٌ من الأنبياء السابقين كانوا مثل النبيّ أيضًا، وهذا ما أشرنا إليه سابقًا. فإقبال إمبراطور الروم على الإيمان بعد رحيل عيسى، وتشكيل المجتمع الفاضل لبني إسرائيل بعد رحيل موسى، وتشكيل إبراهيم للمجتمع الإلهيّ في حياته، وهو ما نطق به القرآن. والحكومة الإلهيّة التي نشرها سليمان في كلّ آفاق العالم. فهذا النبيّ من بني إسرائيل والمُسمّى بسليمان بن داوود قد جمع العالم كلّه حول محورٍ واحد ليشكّل بذلك مجتمعًا توحيديًّا وإلهيًّا.

إذًا، بعض الأنبياء كانت لهم نجاحات وتوفيقات في حياتهم، ويمكن أن نختصر هذا التوفيق بكلمةٍ واحدة وهو تشكيل هذا النظام والمجتمع الإلهيّ والتوحيديّ. ولم يكن لبعضِ الأنبياء مثل هذه الفرصة، مثل زكريّا الذي تحدّثنا عنه، أو يحيى الذي ضربناه مثلًا، فإنّهم لم ينجحوا في هذه الحياة الدنيا وقُتلوا في النهاية. فما هو هذا الشيء؟ وكيف يمكن تحليل وتفسير هذه القضيّة؟ فلماذا وُفّق بعض الأنبياء ولم يوفّق البعض الآخر؟ ولماذا لم يتمكّن الجميع من تشكيل المجتمع الإلهيّ والتوحيديّ؟ ولماذا كان للبعض فقط مثل هذه الإمكانات والتوفيقات؟ يمكن اختصار الجواب في جملة واحدة وهي: إنّ كلّ التوفيقات التي حصل عليها الرجال والقادة والعظماءً

الإلهيّون إنّما كانت بإيمانهم وصبرهم، وأينما هُزم القادة الإلهيّون العظماء ودُعاة الحقّ والحقيقة، فذلك بسبب عدم وجود الاستعداد الكافي من الإيمان والصبر، نقول هذا دون أيّ تردّد.

لقد كان الأمر هكذا في كلّ الأحوال، فأينما كان أتباع النبيّ والمؤمنون به ينفقون الصبر في مواجهة الأعداء والمعاندين والمعارضين لدعوة النبيّ كانوا يتقدّمون، وكان ذلك مقتضى الفتح في دعوة الأنبياء؛ لأنّ الأنبياء إنّما يتحدّثون طبقًا للحقّ ويتحرّكون على أساسه، والحقّ منتصرٌ دومًا. إنّ الحقّ مطابقٌ لفطرة العالم وأصل خلقته، لذلك فهو موفّقٌ ومنصور. والأنبياء لا يتحدّثون إلّا على أساس هذه الفطرة والخلقة الأصليّة. بناءً عليه، فإنّ أساس ومقتضى التوفيق موجودٌ بشكلٍ كامل في نهضة الأنبياء وفي ثورات الرسل. وإذا رأينا أنّ رسولًا قد هُزم في التاريخ، فلا نعتبر ذلك دليلًا على أنّ كلام الحقّ يجب أن يُهزم، فإنّ كلمة الحقّ يجب أن تنتصر ولا بدّ لنظام الحقّ أن يُغلَب، وينبغي ليد الحقّ أن تعلو على رأس الباطل وتقمعه وتجعله زاهقًا؛ فلماذا يُهزم النبيّ في موضع ما إذًا؟ ذلك لأنّ أتباعه لم يتمتّعوا بالإيمان أو الصبر الكافيين، ولم ينفقوا من الصبر ما هو مطلوبٌ؛ وإلّا فإنّ الآية ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[102]، كلام الله الذي لا اختلاف فيه ولا بطلان؛ فإذا رأيت في مكانٍ ما أنّ الناطقين بكلمة الحقّ قد غُلبوا فاعلموا أنّهم لم يكونوا جند الله، وأنّ شروط صيرورة الإنسان من جند الله لم تكن فيهم، وإمّا أنّ الذين كانوا السبب وراء ذلك وأدّوا إلى تلك الهزيمة وهيّئوا مقدّماتها، فإنّهم لم يكونوا جند الله. إنّ المجتمع الإسلاميّ عندما يصبح جند الله فإنّه يتقدّم، وعندما يتراجع فذلك لأنّه ليس من جند الله.

يمكن اختصار محصّل القضيّة في كلمتين: إنّ سبب الهزائم من جانبٍ وسبب الانتصارات من جانبٍ آخر هو: إذا أوجد أتباع النبيّ في أنفسهم

(١٠٢) سورة **الصافات**، الآيات ١٧١- ١٧٤.

الإيمان واليقين الكاملين وثبتوا على كلمة حقّهم فمن المسلّم أنّهم سوف ينتصرون ويتقدّمون ولا يمكن أن تنزل بهم الهزيمة. لقد ذكرت سابقًا شيئًا، ونقلته عن أحد الأجلّاء الذين كانوا في التاريخ المعاصر القريب من عصرنا يقول لأنصاره: عندما تقدرون واجهوا، وعندما ترون أنّكم ستُهزمون واجهوا أيضًا، حتّى تصلوا إلى تلك اللحظة التي تتيقّنون فيها بأنّ الهزيمة ستحلّ بكم، فواجهوا أيضًا؛ وعندما تصل تلك اللحظة التي تتيقّنون فيها بأنّكم ستُهزمون قوموا وابذلوا السعي واستمرّوا في جهادكم، وهناك سيكون الفتح والنصر من نصيبكم. والآية القرآنية تذكر مثل هذا المطلب تقريبًا أو تحقيقًا، وتقول: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾[١٠٣]، فوصل الأمر بالضغوط والضربات التي وجّهتها الجبهات المعارضة للأنبياء إلى حدٍّ استيأس معه الرسل ومَن كان معهم وزُلزلوا، لا بلحاظ الإيمان لأنّ إيمانهم بقي ولم يزُل، كما أنّهم لم يفقدوا اعتقادهم بالله، ولكن لأنّهم كانوا يعتقدون أنّهم سينتصرون فإنّ إيمانهم ويقينهم بالنصر صار يضمحلّ شيئًا فشيئًا وظنّوا أنّهم قد فهموا الأمر خطًا، فقد كانوا على يقين أنّ الله قد قال لهم إنّكم ستنتصرون حتمًا، لكنّهم وصلوا إلى حيث أنّهم ظنّوا أنّ فهمهم لهذه القضيّة كان خطأً، وأنّ الله لم يعدهم مثل هذا الوعد، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ ففي تلك اللحظة وبسبب شدّة الضغط والضربات التي يوجّهها العدوّ، شعرت جبهة الحقّ وجبهة الدين أنّها في طور الزوال وأنّه سيُقضى عليها، وأنّ العدوّ يوشك أن ينتصر، وأنّهم قد سُدّت عليهم الطرق من كلّ جهة وكأنّ الأرض أطبقت عليهم؛ ففي تلك اللحظة ولأنّهم أظهروا الاستقامة، ولأنّهم لم يتوقّفوا عن الجهاد، جاءهم النصر الإلهيّ.

نحن نتصوّر أنّه وبسبب تعرّض بعض النهضات الداعية إلى الحقّ

---

(١٠٣) سورة **يوسف**، الآية ١١٠.

للهزيمة في بعض مقاطع التاريخ. فإذا أُصيب زيد بن عليّ[١٠٤] بالسهم في جبهته في مسجد الكوفة وصُرع، وإذا هُزم محمّد بن عبد الله[١٠٥] صاحب النفس الزكيّة في مواجهة المنصور، وإذا قُتل حسين بن عليّ الحسني[١٠٦] شهيد فخّ قرب المدينة مع كلّ أنصاره، وإذا قُتل إبراهيم بن عبد الله[١٠٧] في الكوفة والبصرة. نحن نتصوّر أنّه ينبغي أن تشكّل لنا هذه الوقائع رؤية عامّة وهي أنّ كلّ نهضةٍ تقوم بالحقّ على الباطل محكومٌ عليها أن تُهزم؛ حيث إنّ بعض الجهلة وعديمي الاطّلاع على منطق القرآن يتصوّرون مثل هذا. وقد قلت إنّ مثل هذا التصوّر يدخل إلى قلوب المستبدّين وطغاة التاريخ مثل الماء العذب، فهم يتمنّون من كلّ قلوبهم أن يعيش الناس مثل هذا التصوّر ويعتقدوا به. وبالطبع، من الواضح أنّهم هم من يروّج لمثل هذا النمط الفكريّ، لكنّ هذا الأمر مخالفٌ للواقع.

فلو أنّ زيد بن عليّ استُشهد هناك على تلك الحال المفجعة، فهذا ليس

---

(١٠٤) كان أوّل علويٍّ يقوم بالثورة المسلّحة في زمن خلافة هشام بن عبد الملك وفي زمن إمامة الإمام الصادق، وكان هدفه إعادة الحقوق المسلوبة من آل محمّد إلى الإمام المختار من آل محمّد. جمع زيدٌ من أهل الكوفة أصحابًا ورفع راية القيام، وهناك أمر يوسف بن عمر الثقفي بمحاربته، وقبل أن تحصل المواجهة تخلّى عنه الكثير من أنصاره وتركوه وحيدًا في الميدان، وهناك استُشهد مع جماعةٍ قليلة، وحول زيد يقول الإمام الرضا: لقد قام بالحقّ، وقُتل بالحقّ، ولو أنّه انتصر لأرجع الخلافة إلى أصحابها.

(١٠٥) محمّد بن عبد الله الحسن الملقّب بالنفس الزكيّة من فضلاء بني هاشم، وفي أواخر دولة بني أميّة. اجتمع بنو هاشم واتّفقوا فيما بينهم على أن يبايعوا صاحب النفس الزكيّة بعنوان مهديّ هذه الأمّة، ولم يرضَ الإمام الصادق. وبعد وصول المنصور إلى الخلافة أسر جميع أولاد الإمام الحسن والإمام الحسين وأرسلهم إلى العراق وحبسهم في الكوفة حتّى يموتوا في السجن واحدًا بعد واحد، وبعد أن سمع هذا الخبر ثار في المدينة وأخرج أميرها منها، وجرت قرب المدينة بينه وبين جيش الخليفة معركة قُتل فيها.

(١٠٦) الحسين بن عليّ بن حسن من أحفاد الإمام الحسن، وقد عاش في المدينة في زمان الإمام الكاظم. اقترح عليه بعض الناس الثورة ووعدوه بالنصرة بسبب قمع الخليفة العبّاسي ووالي المدينة. وقد ثار في البداية في المدينة وبعد أن سيطر عليها، توجّه مع ٣٠٠ شخص إلى مكّة وهناك واجه قرب مكّة جيش الخليفة العبّاسي في مكانٍ عُرف باسم الفخّ واستُشهد هناك. وقد قُطع رأسه ورأس ١٠٠ آخرين معه ووُضعوا أمام الحجّاج في مكّة. وقد تُركت جثامينهم على الأرض لمدّة ٣ أيام، قال الإمام الجواد عنه: لم يكن لنا مقتلٌ بعد كربلاء أعظم من حادثة الفخّ.

(١٠٧) إبراهيم بن عبد الله، أخو النفس الزّكيّة. أخذ البيعة في البداية باسم أخيه، وعندما استُشهد أخوه دعا إلى نفسه، ثار في مدينة البصرة وسيطر عليها بسرعة، ودعاه مجموعة من أهل الكوفة إليهم، وأثناء الطريق التقى إبراهيم بجيش الخليفة العبّاسيّ، واستُشهد على طريق الكوفة.

دليلًا على أنّ الحقّ محكومٌ بالزوال والهزيمة، بل إنّه دليل على أنّ الحقّ مع وجوده فهو يحتاج أيضًا إلى السعي والعمل والجهاد. فلا ينبغي أن نظنّ أو نتصوّر ذلك لأنّ كلمتنا هي الحقّ فلا ينبغي أن نسعى في طريق الحقّ. ولا ينبغي أن نتصوّر بما أنّ دعوتنا هي القرآن، فإنّ الله سوف ينصر القرآن ويتقدّم به هكذا. كلّا؛ صحيحٌ أنّ كلمة الحقّ ستبقى حقًّا، وصحيحٌ أنّه قُضي بأنّ العالم سيتقبّل هذا الحقّ في المستقبل وهو من المسلّمات؛ ولكنّ الأمر يحتاج إلى السعي والفعّاليّة، ويجب على البعض أن يصبروا عليه، ويحتاج البعض إلى أن يبذلوا المهج من أجل تثبيت عرش الحقّ. إنّ ما جرى على زيد بن عليّ يقدّم لنا هذا الدرس، وهو لا يقول إنّ الحقّ محكومٌ بالزوال، فلماذا وقعوا في هذه الشبهة؟!

لقد كان زيد بن عليّ صاحب كلمة حقّ وهذا مسلّم، وقد وقّع الإمام الصادق صلوات الله عليه أيضًا على جهاد زيد بن عليّ ضدّ جهاز هشام بن عبد الملك، وأجاز ذلك النضال المدهش والتاريخ ناطقٌ بهذا المعنى. فقد ذهب هذا الجليل أيضًا وقام بالعمل بشكلٍ جيّد. غاية الأمر أنّ بعض الباحثين عن الأعذار، والذين تكسوهم الجهالةً وعدم الوعي أو الأغراض السيّئة، والتي أدّت إلى وقوعهم تحت تأثير دعايات السوء التي يبثّها العدوّ المتربّص، قد خذلوه في اللحظة الحرجة وتركوه لوحده. هذا هو الدرس الذي نتعلّمه من تلك الواقعة، وهو أنّه حتّى ولو كانت الكلمة حقًّا، وحتّى ولو سلّمنا بحقّانيّة زيدٍ بن عليّ، فإن خذله أنصاره وأتباعه وتركوه لوحده ولم يسلكوا طريقه في الجهاد والسعي معه، فإنّهم سيُهزمون. أمّا لو جاهدوا فإنّهم سيتقدّمون، وإنّ كلّ كلمات العالم هي على هذا المنوال. أسألكم، كم تعرفون في هذا العالم من أفرادٍ وعقائد ومذاهب تمكّن أتباعها وأنصارها من خلال السعي والجهاد من ترسيخها وتثبيتها؟ فكيف يمكن للكلام الباطل، والكلام الذي يخالف سنّة العالم وطبيعة الإنسان، أن ينتصر ويثبت على أثر السعي والجهاد، في حين لا تستطيع كلمة الحقّ أن تستقرّ

وتثبت على أثر الجهاد؟ فأيّ كلامٍ هذا، لكنّ البعض يكرّرون هذا الكلام الباطل، يشترّونه.

وها نحن نجد كيف أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه في إحدى خُطب **نهج البلاغة**، وفي جملةٍ من هذه الخطب المختصرة يبيّن هذا المطلب بشكلٍ كامل؛ وسوف أنقل لكمً هذه الخطبة الآن، وهي الخطبة التي قرأتها على الإخوة الذين قد حضروا لعدّة مرّات وفي المحافل المختلفة، فأمير المؤمنين يشرح وقائع تقدّم جنود الإسلام في زمان النبيّ، فيقول: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ (صلّى الله عليه وآله)، نَقْتُلُ آبَاءَنا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنا وَأَعْمَامَنَا»[١٠٨]، لو كان الأبّ أو العمّ أو الابن أو الأخ تحت راية الكفر وأراد بذلك محاربة النبيّ، فنحن كنّا مع رسول الله؛ لم نكن نقول إنّ هذا أخونا فلا ينبغي أن نقتله، أو إنّ هذا ابننا لا ينبغي أن نقتله، بل كنّا نقتل كلّ هؤلاء في سبيل الله، وعندما كنّا نفعل ذلك ونرجع فإنّنا لم نكن نشعر بأيّ تزلزلٍ في قلوبنا أو أن نتحسّر ونندم على ما فعلنا في سبيل هذا الدين الجديد والفكر المعاصر. كلّا؛ فإنّ إيماننا لم ينقص أبدًا على أثر هذا الإقدام الحادّ والحازم، «مَا يَزِيدُنَا ذلكَ إلاَّ إيمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَمُضيًّا عَلَى اللَّقَم، وَصَبْرًا عَلى مَضَضِ الأَلَم»[١٠٩]. وهذا الجهاد كان يؤدّي بنا إلى أن نصبح أكثر حزمًا في أعمالنا وأكثر صبرًا على الآلام والآثار المحرقة للجهاد.

حسنٌ، ويقرّر أمير المؤمنين أن يختصر شرح ميادين الحرب فيقول: «وَجِدًّا عَلى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنا يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا، أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ»[١١٠]. وأنا لا أريد هنا أن أشرح هذه الكلمات وكيف أنّه ينبغي لجنودنا في ميدان الحرب أن يحاربوا العدوّ ويواجهوه ويصاولوه، وكيف ينبغي أن يتسابقوا

(١٠٨) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ١٠٥.

(١٠٩) المصدر نفسه.

(١١٠) المصدر نفسه.

إلى الموت فيحقّقوا الشجاعة والصلاح والفداء الإسلاميّ، فلن أتعرّض لهذا؛ لكنّه فيما بعد وفي آخر هذه الخطبة - وهي خطبةٌ قصيرةٌ - يقول: «فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصرَ»[111]. فلقد جاهدنا إلى أن رأى الله فينا الصدق ورأى كيف أنّنا ملتزمون بالإسلام ونؤمن به حقًّا، وكيف أنّنا أثبتنا بعملنا إيماننا العميق. ونحن حينما عملنا وفق ذلك، فإنّ الله أنزل الكبت بعدوّنا وأنزل علينا النصر. وبعد جملتين أو ثلاث، يقول: «وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ»[112]. وهذا الكلام قد قاله أمير المؤمنين في زمان خلافته، عندما ابتُلي بجماعةٍ من الناس تفضّل الكسل والدعة، وتتحجّج وتبرّر قعودها فعندما كان يدعوهم إلى حرب معاوية، وعندما كان المقرّر أن يذهب إلى قتال طلحة والزبير كانوا يختلقون له آلاف الأعذار الشرعية لأجل عدم الذهاب.

وباختصار لقد كان أمير المؤمنين يواجه هؤلاء، طلّاب الدعة والحياة الدنيا والراحة والبعيدين عن المعارف الإلهيّة؛ ضعفاء منحطّون يفضّلون السفالة والجبن والمذلّة وقد اعتادوا على الراحة، ولذلك قال لهم: «ولعمري» فأقسم بنفسه، «لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ»، لو أنّنا في زمن الرسول فعلنا ما تفعلونه الآن أيّها المسلمون، «مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلاَ اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ»، فلم يكن ليستقيم أيّ ركنٍ من أركان الدين وما كان ليخضرّ أيّ فرعٍ من فروع الإيمان.

ماذا تفهمون أنتم من هذا الكلام؟ فكلام أمير المؤمنين ليس سوى كلام الرسول. إنّ الطريق الذي سلكه عليّ، هو نفسه الذي كان يسلكه أخوه الرسول، فلماذا كان رسول الله يتقدّم في ذلك اليوم؟ ولماذا كانت الأعمال تتوقّف بذلك النحو في زمن أمير المؤمنين؟ نرى أنّ أمير المؤمنين يبيّن سرّ

---

(١١١) المصدر نفسه.

(١١٢) المصدر نفسه.

الأمر، فيقول لأنّنا نحن في تلك الأيّام صبرنا في ميادين الحرب، وصبرنا في تلك الأيّام على الرمضاء، وكنّا في تلك الأيّام مستعدّين أن ننهض من أسرّتنا وننزل إلى الميدان، كنّا مستعدّين في تلك الأيّام أن ننسى مصالحنا الماديّة وتجارتنا وأعمالنا [لنجاهد] في سبيل الله، أمّا اليوم فأنتم لستم مستعدّين. في تلك الأيّام، كنّا نتقدّم، أمّا اليوم فإنّنا نتأخّر. إذًا، فالقضيّة سهلةٌ جدًّا وواضحة، اثنان + اثنان = أربعة، هذا هو التحليل الاجتماعيّ الذي يقدّمه أمير المؤمنين. أجل، إنّ المطلب يصبح بصورةٍ مختصرة كالتالي وهو أنّ الأنبياء الإلهيّين، بالإضافة إلى أنّ أعمالهم تتواءم مع الانتصار في سلسلة نبوّتهم، وأنّه كان لهم الفتح والعاقبة الأبديّة والنهائيّة في خاتمة العمل، فقد كان لهم الفتح والانتصار والوصول إلى ما أرادوا وإلى ما يريده مذهبهم في هذه الدنيا أيضًا؛ وكان هذا أمرًا مسلّمًا بالنسبة لهم. ولكن بشرط أن يؤمن أتباعهم وأصحابهم وأن يظهروا الإيمان الواقعيّ وأن يجاهدوا ويصبروا في ميادين القتال.

والآن نرجع إلى الآيات القرآنيّة. لقد اخترت آيات عدّة من مواضع مختلفة من **القرآن الكريم**، وقد رأيت أنّه يوجد آيات أكثر منها في القرآن هي آيات البشارة، إحداها في سورة **غافر**، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[113]، واللام في قوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ﴾ دليل الحتميّة والتأكيد والأمر المحقّق، «إنّ» أيضًا تفيد معنى التحقيق والتأكيد، أي أنّنا ننصر رسلنا بصورة حتميّة ولا ترديد فيها؛ فهل أنّ هذا الأمر منحصرٌ بالرسل؟ كلّا، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أيضًا. فالمؤمن الذي يتحرّك على طريق النبيّ له مثل هذا الوعد أيضًا، وكلّ من كان تقيًّا ويسير على درب دعوة الأنبياء فله مثل هذا الوعد كذلك. فأين يحصل لهم النصر؟ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ولا نذر الأمر إلى ما بعد. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقد فسّر بعضهم قيام الأشهاد بيوم القيامة.

---

(١١٣) سورة **غافر**، الآية ٥١.

ويوجد حديثٌ منقولٌ في ذيل هذه الآية الشريفة عن الإمام الصادق عليه السلام لجميل بن درّاج، حيث يقول وفق هذا الحديث إنّ المقصود من نصر الله لرسله هو نصرٌ في عالم الرجعة؛ أي أنّه بعد أن يأتي وليّ العصر صلوات الله عليه، ويحقّق تلك الحكومة الإلهيّة الشاملة في هذا العالم، وترفرف راية القرآن والإسلام في كلّ أنحاء المعمورة، ويتحرّك كلّ الناس نحو الدين ونحو الله والتوحيد، وتتحقّق الحكومة الإلهيّة الواحدة، فبعدها يحيي الله تعالى أولئك الأنبياء والرسل والأوصياء والشهداء والصلحاء من المؤمنين، وفق الآيات التي فُسّرت في القرآن بهذا المعنى، والروايات التي صرّحت به أيضًا. ولا مجال هنا للبحث حول الرجعة، إلّا أنّ الإمام في هذه الرواية يقول إنّ هذا هو لأجل الرجعة، وأنّ هذه الآية ترتبط بهذا الموضوع، وإنّ النصر أيضًا يكون في الرجعة. وأنا أتصوّر أنّ الإمام عليه السلام لا يريد أن يحمل هذه الجملة في قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على الرجعة، فالإمام لا يريد أن يقول إنّ الله تعالى حيث يقول إنّنا ننصرهم في الحياة الدنيا أي في الرجعة في الحياة الدنيا؛ وأظنّ أنّ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يُفسّر بالرجعة لا بيوم القيامة؛ فما معنى النصرة يوم القيامة؟! أمّا يوم الرجعة فإنّ الله تعالى ينصر رسله، وهذا هو الذي أذكره لكم كاحتمال وقد استنبطته من هذه الرواية على وجه الاحتمال على أيّ حال. ولو صرفنا النظر عن هذا الاستنباط، فإنّ كلمة أو جملة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نفسها بظاهرها، تدلّ بقرينة الآيات التي تأتي بعدها، على أنّ الله تعالى يقدّم وعدًا صريحًا لرسله وللمؤمنين أنّه سينصرهم في هذه الحياة الدنيا.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ متى يكون [هذا اليوم]؟ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، ومتى يقوم الأشهاد؟ إنّه في ذلك الوقت الذي لا تنفع فيه الأعذار، وهناك آية أخرى أيضًا في القرآن الكريم، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾[١١٤]، وقد فُسّرت أيضًا بزمان

(١١٤) سورة **الأنعام**، الآية ١٥٨.

ظهور وليّ العصر، ومن الممكن أيضًا أن تكون تلك الآية نفسها، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

ثمّ بعد ذلك ولأجل أن يأتي بشاهد على أنّه ينصر رسله، يذكر وقائع من حياة موسى، لأنّه قبل هذه الآية كان الحديث بمعظمه عن النبيّ موسى من بدايات سورة غافر وما جرى معه في جهاده ضدّ فرعون. لهذا، عندما يأتي هنا على ذكر وعده بنصر جميع رسله، فإنّه يفعل ذلك بعنوان النوع، أو المصداق أو النموذج، فيقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ فقد بقي بنو إسرائيل أصحاب الكتاب، أي أصحاب مجموعة المعارف والأحكام الإلهيّة، وهذا يدلّ على أنّهم قد نجحوا وإلّا لو أنّ الكفّار والطغاة انتصروا على بني إسرائيل في تلك الأزمنة، لما سمحوا لهم بأن يطبّقوا الكتاب السماويّ المنزل عليهم، ولأضاعوا الكتاب من بينهم، ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فهو كتاب الهداية، والتنوير والوعي لكلّ صاحب عقلٍ ولبّ.

﴿فَاصْبِرْ﴾، وبعد أن يتمّم هذا المطلب، يخاطب النبيّ الخاتم ويقول ﴿فَاصْبِرْ﴾ يأمره بالصبر والاستقامة ومقاومة كل تلك الدوافع التي تورث الانحطاط؛ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، فعندما يعدكم الله بالنصر فهو وعدٌ حقّ كما مرّ في سورة الصافات. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ وهكذا، يوجد وعودٌ أخرى في القرآن، فكلّها حقّ، وصحيحة. فمن المسلّم أنّك ستنتصر يا أيّها الرسول طبق وعد الله، ولكنّ شرطه هو الصبر، ﴿فَاصْبِرْ﴾، فعليك أن تصبر وتقاوم وتستقيم، ولا ينبغي أن تتراجع عن سلوك طريق هذا الجهاد المقدّس الذي سرت عليه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾. بالطبع، إنّ الذنب هنا هو ذنبٌ خاصّ بالرسول ولا يشبه ذنوبنا أبدًا، فمن المسلّم أنّ النبيّ معصومٌ وبنصّ الآيات القرآنيّة وبحكم العقل فإنّ الرسول لا يذنب، فهذا الأمر هو

من نوع الذنوب والأخطاء التي لا تعدّ خطأً بالنسبة للإنسان العادي- أنا وأنتم مثلًا - ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ ، ومثل هذه الآية تبيّن لنا بوضوح بأنّ عاقبة أعمال الأنبياء هي النصر الإلهيّ.

وأمّا آيات سورة **الأنبياء** فسنفسّرها ها هنا باختصار. إنّ سورة **الأنبياء** هي في الجزء السابع عشر وتأتي بعد سورة **طه**، وما أجمل آياتها! إنّني أوصي أصحابنا الذين لهم أنسٌ مع **القرآن** أن يقرأوا هذه السورة بدقّة؛ ففيها ومنذ بداياتها يكرر الله تعالى قوله بأنّ الأنبياء سينتصرون وأنّ أعداءهم سيُهزمون وسينالون العذاب في هذه الدنيا قبل ذلك العالم. وبعد أن يكرّر ذكر هذه المطالب بنحو ما يأتي على ذكر التاريخ وينقل لنا قصّة موسى وانتصاره وهزيمة القوى التي هاجمته وعادته، وينقل لنا قصّة إبراهيم وانتصاره ونجاحه وهزيمة القوى التي قامت ضدّه، وكذلك يأتي على ذكر قصّة نوح، وقصّة سليمان، والقصص الأخرى. فجميع الوقائع التي نُقلت في هذه السورة ترتبط بهذه الصورة حيث يتقدّم النبيّ وينجح وينتصر، أمّا أعداؤه وأعداء ثورته وأعداء دعوته الجديدة، وهي الرجعيّة المعادية للنبوّة، فإنّها ستُهزم وتتنكّب وتُغلب وهذه هي سنّة التاريخ.

يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾[115]، هذه آيات أوّل السورة، ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ ، فيقول لنا إنّ الله لم يجعل الأنبياء الذين أرسلوا قبل النبيّ بصورة الملائكة الذين لا جسد لهم ولا يأكلون الطعام، ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ ، فهؤلاء ليسوا دائمين ومستمرّين، فهؤلاء سيموتون يومًا؛ ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ وهذا هو الوعد الإلهيّ الصادق وهو وعد النصر؛ ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ ، فهذه هي عاقبة الذين اعتدوا وتعدّوا، ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، فيا أيّها الذين آمنوا لماذا لا تفكّرون أو تعقلون بشأن الكتاب و**القرآن** الذي فيه الذكر والوعي الذي يرتبط بكم؟!

---

(١١٥) سورة **الأنبياء**، الآية ٧.

ثمّ بعد ذلك، يصل إلى الآية الحادية عشرة ويقول: ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وهذا الذي هو في الواقع أنشودة فتح الأنبياء وهو نشيدٌ حماسيٌّ يدلّ كيف أنّ الأنبياء سينالون بواسطة الإمدادات الإلهيّة الغيبيّة التي توجد في بطن هذا العالم - لا تلك الإمدادات الغيبيّة التي يودّ عامّة الناس أن تكون وفق ما يحلو لهم ويرغبون بحيث تأتي يدٌ من عالم الغيب وتضرب العدوّ على صدره. كلّا، إنّ الإمدادات الغيبيّة الموجودة في باطن هذا العالم مخفيّةٌ وهي متساويةٌ مع خلقة هذا العالم، وخلقة البشر والعالم - كم سينال الأنبياء مع هذه الإمدادات الغيبيّة من توفيقاتٍ وانتصارات بواسطة ربّ العالم؛ ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً﴾.

إنّ المجتمع والنظام الظالم، والحضارةَ الظّالمة، هي ذلك المجتمع الذي يُستعمل الظلم في بنيته ويتسبّب بحالة الطبقيّة ويؤدّي إلى الاستغلال وإلى أن يستغلّ الناس بعضهم. هذه هي القرية الظالمة والمجتمع الظالم الذي يعشعش الظلم في أسسهما، فكم قد قصمنا من هؤلاء، قصمنا يعني هزمنا وشتّتنا، ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْمًا آخَرِينَ﴾، وهو إشارة إلى الاستبدال، سواء كانت شعبًا أو جماعةً أو طبقةً أخرى.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا﴾، وهنا يفصّل لنا حال الخزي الذي يصيب الظالمين حين يرون عذاب الله؛ فبمجرّد أن شعروا بغضب الله - إمّا من جهة نزول العذاب السماويّ على سبيل الفرض، أو من باب أنّهم رأوا كيف أنّ المؤمنين ينهالون على رؤوسهم وراء نبيّهم، فها هو سيف غضب الله الآن ينزل عليهم - ﴿إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ﴾، يهربون فجأةً من عمرانهم وحضارتهم ومجتمعهم. ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ ارجعوا إلى ما كنتم تتنعّمون به، ارجعوا إلى تلك القصور التي كنتم تتنعّمون فيها، وإلى وسط المجتمع والمدينة الذي كنتم تتعزّزون وتسودون فيها، فإلى أين ستهربون؟ ﴿وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾، فأين

تذهبون؟! ﴿قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِين * فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيدًا خامِدِينَ﴾ وقد كرّروا هذه المقولة حتّى جُعلوا جميعًا لقمةً للموت والفناء.

دقّقوا هنا يوجد آيتان أو ثلاث، وآيات أُخر سوف أبيّنها. والآيات اللاحقة تبيّن في الحقيقة البنية التحتيّة الفكريّة لهذه الواقعة التاريخيّة؛ فلماذا حدث هذا الأمر؟ ولماذا ينبغي أن يُحصد الظالمون حصد الفناء، ويدال عليهم المظلومون ويرثون أرضهم؟ لماذا يجب أن تتقدّم دعوة الرسول على وجه الحتم ويُهزم معارضوهم والذين عاندوهم؟ السبب هو ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾، ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾، فالله لا يعبث ولا يعمل طبق الباطل، ولا يتصرّف جزافًا. فماذا يعني هذا؟ أي أنّ الله عندما خلق هذه السماء وهذه الأرض وما بينهما، فإنّه خلقها لأجل هدف ولأجل الوصول إلى ذلك الهدف والمقصد، فالحقّ هو خطّ سير هذه السماء وهذه الأرض وكلّ ما فيهما، وهو الوصول إلى ذلك الهدف، أي الحقّ. فذاك الطريق هو الذي يوصل السماء والأرض وموجوداتهما إلى المنزل النهائيّ والمقصد والهدف الذي خُلقوا من أجله، إنّه خطّ السّير وهو الحقّ. وكلّ وسيلة توصل الناس إلى ذلك المقصد هي وسيلة الحقّ. وهذه الأمور الأخرى لا يُصرَّح بها في الآية القرآنيّة ولكنّ مفادها هو هذا، أي أنّه بالتدبّر بالآية يصبح واضحًا جدًّا، وطريقة القرآن هي أن لا يصرّح بكلّ تلك الأمور التي يمكن في الأغلب أن نفهم منها أشياء كثيرة وتتّضح لنا ويصل إليها عقل الناس.

فبعدها مباشرةً يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ﴾، هذا هو طريق الحقّ، وهذه هي الطريقة الصحيحة، إنّها طريقة الفطرة والخلقة الإنسانيّة وخلقة العالم، فهي التي ستنتصر في النهاية على الباطل، ﴿فَيَدْمَغُه﴾؛ أي أنّ الحقّ يمحو الباطل كلّيًّا ولا يترك منه أثر ﴿فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾؛ عندئذٍ

سترون الباطل كيف يزول ويتّجه نحو الفناء. ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، فيا أيّها الظالمون! ويا أيّها الذين سلكوا طريق الباطل وتركوا الحقّ! سيحلّ بكم الخزي والفناء بسبب ما كنتم تصفونه وتبيّنونه.

وبعدها يأتي البحث أيضًا بأسلوبٍ قرآنيٍّ جميلٍ جدًّا وجذّاب - حيث ينبغي للإنسان أن يأنس بالقرآن من أجل أن يفهم هذه النكات الجميلة فيه بنحو صحيح. وفي الغالب إنّ أولئك الذين لا يلتفتون إلى هذه الدقائق واللطائف القرآنيّة، فذلك لأنّهم لا يمتلكون الأنس بالقرآن. فلو أنّهم حصلوا على هذا الأنس، ووصلوا إلى لحن كلام القرآن بأسماعهم لفهموا كيف أنّ القرآن يخاطبهم - يبحث ويتحدّث عن هذه القضيّة وهي مجيء الحقّ وزوال الباطل، وانتصار الحقّ وهزيمة الباطل؛ ويليه [الحديث] حول ما يتعلّق بخلقة السماء والأرض ويجدّد التمسّك بأنّ ربّ العالم ومالك السماء والأرض والحاكم على جميع أقطار عالم الوجود هو الله، فلذلك يجب أن يكون هو الحاكم في حياة الناس أيضًا؛ فهو الذي ينبغي أن يضع القانون في نظام حياة البشر، وهو الذي ينبغي أن يدبّر ويدير؛ وأولئك الذين يدّعون الحكومة والسلطة والقدرة مقابل الأنبياء، فقد حكموا على أنفسهم بالبطلان والزوال.

الجلسة الثانية والعشرون: التزام الإيمان بالنبّوة

الخميس، ٢٣ شهر رمضان المبارك، ١٣٥٣ هجريّ شمسيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا في سَبيلِ اللَّه وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[١١٦].

(١١٦) سورة **الأنفال**، الآية ٧٤.

إنّ من القضايا التي ينبغي طرحها في مباحث النبوّة تلك القضايا التي إذا لم نفهمها ونتعرّض إليها فإنّ الكثير من هذه الأبحاث المرتبطة بالنبوّة ستكون بالنسبة لنا فاقدةً للأثر العمليّ تقريبًا. فما هو هذا البحث الذي يُعدّ ضامنًا لتحوّل الأبحاث السابقة إلى البعد التطبيقيّ والحياتيّ؟ فعندما نقول: «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله»، ونشهد بأنّ محمّدًا هو رسول الله، ونعلن ذلك في آذاننا وفي صلاتنا وفي الشهادتين وفي كلّ مكان أنّنا من أمّة هذا النبيّ، ونعتقد ونؤمن بنبوّته ونشهد على ذلك، فما هو الالتزام والمسؤوليّة التي يلقيها هذا الإيمان على عاتقنا؟ وهل توجد هذه العقيدة والشهادة والتشهّد مثل هذا الالتزام؟

في بعض الأحيان، عندما تقولون إنّني أشهد وأتقبّل مثلًا أنّ الزنبق عطره أجمل من الورد الجوريّ، فهذا أمرٌ مختلف؛ فبعض الناس قد لا يعرفون ذلك، وبعضهم الآخر قد لا يعتقدون بذلك، ولعلّك أنت يا صاحب الجناب العالي أيضًا تعتقد أنّ هذا الورد عطره أجمل من ذاك الورد، سواء أكان اعتقادك صحيحًا أم لا؛ حسنٌ، ها أنت قد شهدت بذلك، ثمّ ماذا؟ - بحسب قولنا نحن طلّاب الحوزة - ماذا يأتي بعد ذلك؟ لا شيء. أترون؟! إنّ الإنسان لو شهد وتقبّل أنّ هذا الورد أفضل من ذاك الورد، أو انقلب اعتقاده من هذه الزهرة إلى تلك الزهرة فإنّ ذلك لن يترك أيّ أثرٍ في حياتنا، ولن يوجد أيّ التزامٍ فيها.

وأضرب مثالًا آخر، هناك في عالم المسيحيّة شخصٌ على رأس المقامات الروحيّة يُسمّى البابا، وأنتم تعلمون أنّ البابا هو بمثابة النموذج أو المجسّم الذي ينبغي للناس أن يحترموه في الحقيقة، فإنّه لا يحتاج لأن يطرح عقيدةً جديدةً في عقائد المسيحيّة، ولا أن يوجد حكمًا جديدًا من أحكامها قد اختلف عن الأحكام السابقة، فوجوده أو عدمه، مثل وجود أيّ مجسّمٍ جميل أو عدمه في غرفة الاستقبال عندكم، فإذا كان موجودًا فإنّ التصميم الداخليّ للغرفة يتمّ، وإذا لم يكن فإنّه بالنسبة لأولئك الذين يحبّون الزينة

سيجعلها ناقصةً. إنّ وجود البابا وعدمه بالنسبة لعالم المسيحيّة ومن ناحية الفكر المسيحيّ ليس له أثرٌ أكبر من هذا المقدار. فمثلًا، في هذا الزمن الذي نعيش فيه، لو اطّلع مسيحيٌّ على أنّ جناب البابا الحاليّ قد ارتحل عن هذا العالم وحلّ مكانه شخصٌ آخر، أو لم يطّلع، فإنّ حياته لن تتأثّر أبدًا، سواءً علم أو لم يعلم أنّ البابا الحاليّ هو فلان الثاني عشر أو الثالث عشر؛ فلو قال مسيحيٌّ: إنّني أشهد أنّ البابا الموجود في زماننا هو السيّد زيد، فهذه الشهادة لا تجلب معها أيّ نوع من الالتزام، فحاله سيكون مشابهًا لحال ذلك المسيحيّ العجوز الذي رُدَّ إلى أرذل العمر، وهو يعيش في تلك الناحية من القرية الفلانيّة والذي ليس لديه أدنى خبر عن ذلك البابا الذي توفّي سابقًا وأنّ بابا آخر قد جاء مكانه. إنّ حاله لن يكون مختلفًا عن ذلك العجوز الذي يعيش في تلك المنطقة النائية؛ وكذلك وضع حياته فإنّه لن يتبدّل بعد موت ذاك البابا السابق، تمامًا مثل ذلك العجوز الذي لم تتبدّل حياته مع موت بابا ومجيء بابا آخر. فلن نلمس أيّ تغييرٍ من التغييرات. إنّ شهادة أنّ البابا الفلانيّ اليوم هو فلان، لن يجلب معه اليوم أيّ نوع من الالتزام وتحمّل المسؤوليّة.

فهل أنّني عندما أتشهّد في صلاتي وأقول «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله» وأجعل ذلك على مآذن المدينة وأطرح ذلك بعنوان شعارٍ وبعنوان مظهرٍ عامّ لهذا المجتمع فيُقال: «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله» هي الشهادة بالنبوّة، والإيمان بها؛ فهل أنّ إعلان هذا الإيمان يلقي على عاتق هذا المتشهّد أو على عاتق ذلك المجتمع، الذي جعل هذا التشهّد كشعارٍ في حياته، مسؤوليّةً أم لا؟ السؤال هو هنا.

والجواب هو بالإيجاب، أجل، إنّ هذه الشهادة تلقي على عاتقنا مسؤوليّات؛ فلنسأل عن هذه المسؤوليّات والالتزام العمليّ الذي يُلقى على عاتق أتباع النبيّ والمؤمنين بدعوته. وأنا سوف أختصر هذا الالتزام بكلمةٍ واحدة: إنّ الالتزام والمسؤوليّة التي تُلقى على عاتق الإنسان المعتقد بنبوّة

النبيّ هو عبارة عن السير على خطى هذا النبيّ وقبول مسؤوليّة إيصال حمل النبيّ إلى غايته. فالكلام الذي يعبّر عن المعنى سهلٌ جدًّا، لكنّ المسؤوليّة ثقيلةٌ للغاية. وفي الأساس إنّ معنى أمّة النبيّ وشهادة النبّوة هو هذا الأمر.

يتصوّر بعض الناس أنّهم إذا قالوا إنّنا نعتقد بأنّ فلان هو نبيّ، فإنّ ذلك يكفي ويحقّق قبول النبوّة بالقلب، فإعلانها بواسطة الإسلام سينجينا من جهنّم ويدخلنا الجنّة وينقلنا من هذا الحدّ إلى ذاك الحدّ. استمعوا جيّدًا، هل أنّ هذه العقيدة التي أتحدّث عنها الآن موجودةٌ في أذهانكم أم لا؟ ولا يهمّني من الذي يحمل هذه العقيدة ومن لا يحملها. يتصوّر البعض أنّ الناس كانوا في عذاب جهنّم أو في نار القهر والغضب الإلهيّين يحترقون، وجاءت بعدها قضيّة نبوّة خاتم الأنبياء، فخرجت مجموعة من هؤلاء، الذين كانوا في نيران غضب الله، من منطقة العذاب ومحلّ الغضب الإلهيّ عندما قالت: «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله» صلّى الله عليه وآله وسلّم. فبالنطق بهذه الكلمة خرجوا من منطقة عذاب الله وانتقلوا إلى منطقة رحمة الله. والآن، إذا أدّوا الصلاة، فإنّهم سيقتربون أكثر إلى منبع الرحمة طالما أنّهم موجودون في منطقة الرحمة، وإذا صاموا فإنّهم يقتربون أكثر، وهكذا إذا أدّوا الخمس والزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فهذه الفرائض بالنسبة لهم تقرّبهم خطوةً إضافيّةً؛ وإذا قاموا بأعمالٍ أخرى أيضًا سيصلون إلى منبع الرحمة، وإذا لم يؤدّوا تلك الأعمال فهم في النهاية داخل منطقة الرحمة؛ التفتوا، إنّ البعض يتصوّرون الأمر على هذه الشاكلة.

ونتيجة هذا الطراز من التفكير هو ما نشاهده اليوم، يأتي شخصٌ فيُكتب على بطاقة هويّته مسلم وتابع لنبيّ الإسلام - كانوا يكتبون ذلك في السابق على بطاقات الهويّة والآن لم يعودوا يكتبوه - أو أنّه عندما يُسأل عن ذلك فإنّه يجيب: ديني هو الإسلام ولأنّه ذكر الإسلام وحدّده، ولم

يحدّد المسيحيّة، ولم يحدّد المادّيّة أو اليهوديّة، فهو بذلك لم يحدّد دينًا آخر، فمن أجل أنّه قام بمثل هذه الأمور وأشار إلى تلك الأشياء التي تندرج تحت عنوان الدين ويُقال إنّها من الإسلام، فسوف يُقال له: حسنٌ جدًّا، لأنّك حدّدت الإسلام فاذهب إلى الجنّة؛ أمّا إذا كنت من المصلّين فبها؛ وكذلك إذا كنت من الصائمين وقمت بأعمالٍ أخرى فكم هو جميل، ولكن إذا لم تفعل تلك الأمور فإنّ مكانك محفوظٌ في جنّة الله، غاية الأمر أنّه قبل قيام الساعة فإنّك سوف تتعرّض إلى ضغطٍ شديد (ضغطة القبر)؛ هذا هو الكلام والفكر الرائج في أذهان الناس. ونحن نقول إنّ هذا الكلام ليس صحيحًا، إنّ هذا الإيمان بالنبيّ ضروريٌّ، لكنّه يستلزم مجموعة من المسؤوليّات؛ وفي حال أدّى الإنسان المؤمن هذه المسؤوليّات، فإنّه بمقدار ما يؤدّي منها يكون إيمانه صحيحًا، وإذا كان الإيمان موجودًا باللسان أو حتّى في القلب ولكنّه لم يستتبع أيّة مسؤوليّة يحدّدها الإيمان للإنسان ولم يلتزم بها فإنّ هذا الإنسان، وإن كان بحسب الظاهر مؤمنًا بالنبوّة، لكنّه ليس مؤمنًا واقعيًّا. فماذا سيفعل الله به يوم القيامة؟ أنا لا أعلم، ولا أريد الآن أن أعلم، ولكن بالنسبة لمعايير هذا العالم، وإذا أردنا أن نحكم بعنوان أنّنا نستطيع أن نحكم على وجود إيمانٍ في قلب الإنسان أو عدمه، فإنّنا لا نستطيع أن نحكم على هذا الإنسان بأنّه صاحب إيمان.

بالطبع، أريد أن أضيف أمرًا. إنّ إعلان هذه الكلمة، وإظهار هذا الاعتقاد بحسب الظاهر، وإن كان يحفظ نفس الإنسان وماله حسب القول المعروف - حيث إنّ في ذلك نوع من المسامحة - أي أنّه يجعل الإنسان ضمن نطاق البيئة الإسلاميّة، إلّا أنّ بحثنا لا يدور حول ما إذا كان مال الإنسان أو نفسه ستُحفظ أم لا، بل بحثنا يدور حول معرفة ما إذا كان مؤمنًا أو لا. إنّنا سنوضّح الأمر بناءً على المعايير القرآنيّة التي سنفسّر آياتها ونقول: ما لم يلتزم الإنسان بمسؤوليّات الإيمان فلن يكون مؤمنًا، إنّ المؤمن هو ذاك الذي يتمسّك بالمسؤوليّات والالتزامات التي يحدّدها الإيمان بالنبوّة لكلّ

إنسان.

فما هي هذه المسؤوليّة؟ إنّها تستلزم أن نرى ماذا كان يريد النبيّ أن يفعل في هذا العالم؛ فقد كان [النبيّ] يريد أن ينقل حملًا عظيمًا، وكان يريد أن ينقل هذا الحجر الكبير من مكانٍ إلى مكان ليبني به بنيانًا عظيمًا، وعليّ أنا الآن أن أنظر في زماني لأرى، هل أنّ هذا الحمل الذي أراد الرسول أن ينقله قد نُقل بشكلٍ تامّ؟ وهل أنّ ذلك الحجر الكبير الذي أراد الرسول أن يقتلعه من الأرض وينقله قد اقتُلع بشكلٍ كامل؟ وهل أنّ ذلك البنيان الذي كان يريد الرسول أن يهدمه ليبني مكانه بنيانًا كاملًا [قد هُدم وبُني مكانه ذلك البنيان]؟ فإذا كان جوابي هو بالنفي، فذاك الحمل ما زال على الأرض، أو تلك الصخرة لم تُقتلع منها، أو ذلك البنيان لم يُعمّر؛ فعليّ أن أسعى لأفعل ما كان يريده. فعليّ أن أسعى لأنقل هذا الحمل، وإذا كانت عظامي ضعيفة، ولم تكن قوّتي بالقدر المطلوب، فعليّ أن أفعل ما أقدر عليه، وأن أبذل ما أمكنني، وأن آتي بعشرة أشخاص آخرين، مثلًا، لنرفع هذا الحمل معًا، وأن أجد مجموعةً أخرى لنبني هذه العمارة سويًّا؛ وإذا لم أتمكّن من إكمال هذه العمارة، ألا أستطيع أن آتي بعشرة أحجارٍ وأضعها فيها؟ ألا أستطيع أن أساهم في بناء الأسس والقواعد قليلًا؟ ألا أستطيع أن أقدّم وأهيّئ مقدّمات العمل؟ فإن قلت إنّني لا أستطيع فهذا كذب. فعلى [الإنسان] أن يلتزم بهذا العهد وهذه المسؤوليّة وإلّا فإنّه سيكون كاذبًا في قوله «أشهد أنّ محمّدًا رسول الله»، هذه هي الشهادة الكاذبة. ولعلّ التعبير بالشهادة السطحيّة هو تعبيرٌ أفضل؛ فهم يشهدون بأنّه رسول الله، أو أنا أشهد بأنّه رسول الله، لكنّني لا أستطيع أن أشهد بأنّني معتقدٌ بنبوّته، كحال المنافقين، ﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾[117]. إنّ الله تعالى يقول لهم: نعم، إنّني أعلم أنّه رسولي، فهو مطلبٌ واضحٌ وبالنسبة لنا مسلّم، فالكلام في

(١١٧) سورة **المنافقون**، الآية ١.

محلّه صحيحٌ، لكنّنا نشهد بأنّهم في شهادتهم هذه كاذبون، فهم لا يقرّون بهذه الحقيقة في قلوبهم، وإنّما يتفوّهون بها بألسنتهم.

إنّ الالتزام بالرسالة هو عبارة عن صناعة عالمٍ على الشاكلة التي يريدها الإسلام؛ هذه هي مسؤوليّة الرسالة. يأتي الرسول إلى هذا العالم من أجل أن يقدّم أطروحة بنائه على أساس الإسلام؛ وإنّما بُعث النبيّ من أجل أن يصنع شكل الحياة ونظام حياة البشر على الصورة التي يأمر بها الله. فإذا رأيتم، في هذا الزمان الذي تعيشون فيه، أنّ الناس وأنّ البشريّة لا تعيش على النحو الذي أراده الله، وإذا رأيتم أنّ البشريّة محرومةٌ من الوصول إلى المجتمع الإلهيّ، وإذا رأيتم أنّ المذاهب المختلفة تسوق البشريّة إلى هذه الجهة وتلك الجهة، ورأيتم أنّ الإسلام يُستعمل فقط لزاويةٍ من الذهن وزاويةٍ من القلب لا أكثر، فإنّ مسؤوليّتكم ووظيفتكم بناءً على الشهادة التي قدّمتموها حول رسالة النبيّ هي أن تسعوا من أجل أن تجعلوا هذه الدنيا على الشكل الذي أراده الإسلام؛ هذه هي مسؤوليّة النبوّة وعهدها.

إنّ الإسلام يقدّم فكرًا جديدًا، وعلى أساس هذا الفكر الجديد يوجد جبهةً جديدة ويحقّق اصطفافًا جديدًا في هذا العالم. ونحن قد وصلنا إلى هذه النتيجة مرارًا من خلال مطالعة الآيات القرآنيّة، حيث إنّ أساس الدين يعني إيجاد جبهة واحدة واصطفاف جديد.

عندما ترى أنّ الناس كانوا يعيشون في مجتمعٍ جاهليّ، ثمّ يأتي النبيّ إلى هذا المجتمع فيجعل الناس الذين انقادوا ورُوّضوا والذين كانوا يتحرّكون باتّجاهٍ واحدٍ وعلى نحوٍ واحد، يجعلهم فرقتين؛ فينجي فرقةً منهم من هذه الغواية والضلالة والحيرة ويبدّل طريقهم. فإذا افترقوا إلى اثنين، يكون الأنبياء هم العامل الذي يقف وراء هذا الاختلاف، بمعنى أنّ الرسل يكونون عامل تفرقة؛ فتذكّروا هذا المعنى الذي شرحته لكم، حتّى إذا أردتم أن تنقلوه إلى أحد فلا تقولوا إنّ الشّخص الفلانيّ يقول إنّ النبيّ

هو العامل وراء الاختلافات؛ وإنّما يكون الرسول سببًا للاختلاف بهذا المعنى الذي يكون فيه الجميع مثل مقطورات قطارٍ واحد، ويتّجهون نحو هاوية السقوط، فيأتي النبيّ من الخلف ويمسك بهذه المقطورات، فيجد أنّ بعض هذه المقطورات تفصل نفسها وتنتزعها من يد النبيّ وتتّجه نحو تلك الهاوية. أمّا البعض الآخر، فإنّهم يستقبلون ويرحّبون بهذا الإمساك فيحصل الاختلاف بين المقطورات.

نرى أنّ هذه القافلة تتّجه نحو قطّاع الطرق، أو أنّها تتحرّك نحو الفخّ المميت، أو باتّجاه الزلزال، ثمّ يأتي النبيّ ويقول: لا تذهبوا، فتستمع إليه جماعة من هذه القافلة ولا يكملون المسير بذلك الاتّجاه المميت، ولكنّ البعض الآخر لا يصغون ويذهبون، وعلى هذا الأساس تتشكّل جبهتان ويحصل الاختلاف. بهذا المعنى، يأتي الرسل ويوجدون مثل هذا الاختلاف والانقسام داخل المجتمعات، غاية الأمر أنّ هذا الانقسام إنّما حصل في ذلك المجتمع الذي كان يسير كلّه باتّجاه الضلالة، فيأتي الرسل ويقولون لهم ارجعوا إلى الله، فيحصل الانقسام في هذه القطعة الواحدة، فيرجع البعض؛ أمّا البعض الآخر فلا يرضى بالرجوع.

عندها تتشكّل جبهةٌ جديدةٌ، ويحصل نوعٌ من الاصطفاف الجديد أو ما نعبّر عنه باتّخاذ مواقف متضادّة. حصل ذلك بسبب مجيء النبيّ إلى المجتمع؛ فيقف النبيّ في صفٍّ واحد وأعداؤه والمعارضون والمعاندون في الصفّ الآخر والجبهة المقابلة. التفتوا جيّدًا إلى هذا الاصطفاف الذي أقوم بتوضيحه ورسمه. لقد كان النبيّ في البداية وحيدًا فريدًا وكان الجميع في الصفّ المقابل له، فيسعى النبيّ ويجاهد وينقذ منهم واحدًا بعد واحد، حتّى يتمكّن في النهاية من تشكيل صفٍّ واحد مقابل ذلك الصفّ الضالّ والجهنّميّ، فيوجد الصفّ المقابل لصفّ الضلالة؛ فهذان صفّان متقابلان: أحدهما صفّ الرسول، والآخر صفّ أعداء الرسول. فماذا أراد النبيّ بعمله هذا؟ لقد أراد أن يأخذ الناس إلى الجنّة؛ جنّة هذا العالم،

والجنّة التي تأتي بعد الموت. ولأنّه كان يريد أن يأخذ الناس إلى الجنّة، فكان على الناس أيضًا أن يتّبعوه ويأتوا معه لأنّهم إذا لم يفعلوا ذلك، فلن يصلوا إلى الجنّة. [أن نقول] بأنّ الرسول يريد أن يقود الناس إلى مقصد السعادة، هو مطلبٌ غير صحيح، فما لم يأتِ [الناس] ويصحبوه ويصبحوا معه صفًّا واحدًا لن يصلوا إلى ذلك المقصد النهائيّ؛ فاحفظوا هذا جيّدًا في ذاكرتكم. وها هنا يبرز شخصٌ من بين هذين الصفّين وينظر إلى النبيّ ويرى أنّه يتكلّم كلام الحقّ، وكلّما استمع إليه، فإنّه يجد كلامه جميلًا. ومن جانبٍ آخر، يرى أنّه إذا جاء إلى صفّ النبيّ، فإنّه سيضطرّ إلى مواجهة الصفّ الآخر ولا بدّ له من أن يعارضه؛ فهو لا يرغب بأن يذهب إلى الصفّ المقابل لأنّه يرى أنّه يسير نحو جهنّم، وهو لا يودّ أن يأتي إلى صفّ النبيّ لأنّه يرى أنّ ذلك الصفّ سيوجد له المشاكل والمتاعب، فماذا يفعل؟ يقف بين الصفّين ويختار منطقةً آمنة وادعة هادئة وينصب خيمةً في ذلك الموضع ويجلس، فماذا تصفون مثل هذا العمل؟ فهل أنّ هذا الرجل الذي جلس بين الصفوف واختار مقعد الراحة والدعة سوف يصل إلى الجنّة أم لا؟ من الواضح أنّه لن يصل إلى الجنّة، لأنّ النبيّ يريد أن يذهب إلى الجنّة، ولن يصل إليها إلّا من سلك طريقه، وهذا الرجل لم يسلك طريق النبيّ. فكلّ من كان في وسط الصفوف فليس مع النبيّ، وكلّ من لم يلتحق بالنبيّ فهو ضدّه، فكما يُقال إنّه من لم يكن مع عليّ فهو ضدّ عليّ، لأنّ من لم يكن مع الحقّ فهو ضدّ الحقّ، وهذا ما يخبرنا عنه **القرآن** أيضًا؛ لكنّ اللسان البليغ الواضح للإمام [عليّ] عليه السّلام هو أيضًا قريبٌ جدًّا إلى الأفهام، ولهذا يبيّن لنا أنّ «السَّاكِتُ أَخُو الرَّاضِي وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَنَا كَانَ عَلَيْنا»[118]. وبعدها لا يقول ما هو حال الراضي لأنّه معروفٌ، فمن رضي بعمل قومٍ فهو منهم؛ فهؤلاء القوم سوف يجرّونه إلى معلفهم ويربطونه عنده. فهذا هو الساكت، وإذا لم يكن في قلبه راضيًا، حتّى لو لم يُعلن عدم

---

(118) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٤٢١.

رضاه، فإنّه يصبح بذلك أخ الراضي، وهذا يدلّ على أنّ الإسلام لم يقبل بوجود حالة ثالثة بين الصفيّن.

فأولئك الذين كانوا مثل أصحاب عبد الله بن مسعود، ومنهم جناب الربيع بن خيثم(١١٩) - وإن كان قبره موجودًا في خراسان - الذي كان من الذين قالوا في حرب الجمل إنّنا لسنا مستعدّين لنكون مع أمير المؤمنين لأنّه قد قرّر إراقة دماء المسلمين وجاؤوا يطلبون العافية ويسألونه أن يرسلهم إلى الثغور من أجل أن يكونوا من أهله. فهؤلاء قد عموا على أنفسهم، لقد كانوا يتصوّرون أنّه لو أنّ كلًّا من يزدجرد الثالث، ولا أعلم هيراكليوس الروم، قد غلب في حربهما مع بعض، فإنّه لن يكون مفيدًا أبدًا لدين الإنسان ودنياه. إنّ طلب السلامة يحمل الإنسان على أن يتّخذ قرار عدم التعرّض وقرار عدم التدخّل في الحرب، والركون إلى العزلة والاعتزال. تصوّروا الأمر كما هو في الحروب الدوليّة التي تتنازع فيها بعض الشعوب فيما بينها على السلطة والحكومة، أنّ الدّولة التي يمكنها أن تحافظ على حيادها هي التي تنتصر! لم يعرفوا أنّ الحرب بين الحقّ والباطل هي حربٌ لا مفرّ منها؛ لم يعرفوا أنّ الحرب بين الحقّ والباطل تعني أنّك إن لم تكن مع الحقّ فأنت مع الباطل، وأنّ كونك مع الباطل لا يعني أبدًا أنّك ستواجه الحقّ، بل يعني أنّه حتّى لو لم تحارب، أو حتّى في الصورة التي لا تكون فيها داخلًا في الحرب ضدّ الحقّ فهذا يعني أنّك مفهومًا مع الباطل. هؤلاء لم يدركوا مثل هذا، إنّ النبّوة تأتي وتحدّد الصفوف وتقول للجميع من كان معنا فليلتحق بنا، وبحسب قول الشّاعر نيّر التبريزي:

گفت اى گروه هر كه ندارد هواى ما سرگيرد وبرون رود از كربلاى ما

كلّ من لم يكن هواه معنا فلينسحب وليخرج من كربلائنا

(١١٩) كان رجلًا زاهدًا وعابدًا ومن التابعين. وكما جاء في كتاب **واقعة صفّين**، فإنّه جاء مع مجموعة أخرى إلى أمير المؤمنين وكانوا قد شكّوا في حقّانيّة هذه المعركة وأرادوا من الإمام أن يرسلهم إلى الثغور لمواجهة الكفّار.

إنّ ذاك الذي كان الحسين بن عليّ يطلبه أثناء المسير من أجل أن ينصره، فيقول: يا ابن رسول الله هذا هو فرسي أقدّمه لك، وهذا هو سيفي لك، من الواضح أنّه لم يكن مع الحسين بل كان ضدّه. ولهذا، ترون أنّ محدّثينا يكتبون ويقولون إنّ هذا هو الشقيّ، وحقًّا قالوا، فقد حُرم من السعادة. ويا لتعاسة من كان مثل هذا! فسوف يبقى دائمًا شقيًّا. فيا أيّها الشقيّ! إنّ الأنبياء يأتون من أجل تشخيص الطريق ويقولون هذا هو، فلو كنت صاحب مروءة، وتطلب الحقّ، وتريد أن تشهد لله بنبوّتهم، فـ«يا الله»، هذا هو طريقنا. أمّا إذا آثرت القعود ولم ترَ طريقنا وغفلت عن السالكين دربنا، ولم تأتِ إلينا لأنّه صعبٌ، ولم تقدّم يد العون لأنّ فيه متاعب، وأعرضت بوجهك عنه لكي لا تقع في الصعاب، وقلت إنّني لم أرَ، في حين أنّك حملت السبّحة بيدك وقلت: أشهد أنّكم رسل الله، وأشهد أنّكم أنبياؤه، وأشهد أنّكم الأنبياء، وفعلت ذلك مرّةً بعد أخرى؛ فكلّ ذلك لا فائدة منه، لا تقل شيئًا لكن تعال، ولا تأتي على لسانك بهذا الذكر، بل افعل، ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ (١٢٠)، فلماذا لا تعمل بما تذكر بلسانك ووفق ما تعتقد به؟! فوا اسفاه على أحوالنا، وأنا أذكر حالي، وأنا أقصد حالي أنا. يا له هو من جرم كبير أن يقول الإنسان شيئًا بلسانه ويتظاهر الاعتقاد به، لكنّه لا يعمل به؛ فلماذا أقول إنّني أتّبع رسول الله، في حين أنّني في الواقع أتّبع أبا جهل؟! ولماذا أقول إنّني أتّبع الإسلام في حين أنّني أسير وراء الشرك؟! ولماذا أقول إنّني علويٌّ في حين أنّني أبو جهليّ ومعاويّ؟!

فما هو الفرق بين عليٍّ ومعاوية؟ أقسم عليكم لو أنّكم اليوم قمتم بتشخيص كلٍّ من عليٍّ ومعاوية في مجتمعكم؛ خذوا مثلًا شخصًا يكون كلّ ما يقوله هو ضدّ الراحة والتنعّم والرفاهيّة الشخصيّة، وكلّ ما يقوله يحمّلنا المسؤوليّة ويضع على عاتقنا التكليف، وكلّ ما يريده هو السعي، وهو

(١٢٠) سورة **الصف**، الآيتان ٢ و ٣.

ينزعج من الكذب ويتألّم من الرشوة، وينزعج من أيّة هديّةٍ فيها رائحة الرشوة، وتجده غاضبًا بشدّة في سبيل الله ولله، ولا يرحم أحدًا إذا كان لأجل الله وإذا كان الحكم لله، حتّى إذا جاء أخوه وطلب منه المال من بيت المال فإنّه يضع على يده تلك الحديدة المحمّاة التي كانت كالجمر؛ خذوا هكذا شخصٌ في المجتمع، شديدٌ دقيقٌ محتاطٌ في إجراء الأحكام والحدود الإلهيّة والإسلاميّة. وفي المقابل، شخصٌ آخر لا همّ له سوى العيش وقضاء الوقت بالراحة، وهو مستعدٌّ لأن يتخلّى عن كلّ ما يهواه، مقابل شرط واحد فقط يضعه له هذا الإنسان وهو أن يقول إنّني لا أعين عليًّا ولا أنصره، والعون الذي يطلبه منك ليس كثيرًا، لعلّه في بعض الأحيان أن تمدحه لا غير. حسنٌ، أقسم عليكم، فمن تتبّعون من بين هذين الشخصين؟ ومن تقبلون في هذا الزمن وفي هذا المقطع من التاريخ؟ فهل أنت مستعدٌّ لأن تسلك طريق ذلك الشخص الذي إذا كنت معه وعملت تحت إمرته فإنّه سيجلب لك وجع الرأس والمسؤوليّة والتحرّك والسعي؟ وهل أنت مستعدٌّ أن تترك ذلك الذي يعرض عليك المال والمنصب والراحة والشأنيّة والنفوذ والاقتدار على أن تترك ذلك الشخص الأوّل؟ فإن كنت مستعدًّا لذلك فهنيئًا لك، فلو أنّك كنت في زمن عليٍّ أيضًا، فإنّك ستكون من شيعته. أمّا إذا رأيت قلبك يحلّق نحو كلّ أنواع الراحة والتنعّم والعيش والأموال والمناصب والسمعة والمجاملات، ولو كانت في غير طريق الله؛ فاعلم أنّك لو كنت في ذلك الزمان، لكنت، إذا لاحظتم جيّدًا، من أولئك الذين خرجوا يتّخذون الليل جملًا، ولم يودّعوا الجيران وقالوا لزوجاتهم وأبنائهم إنّني أنتظركم في الشام، يا عليّ مدد؛ ولذهبت إلى الشام وتركت عليًّا لوحده مثلما فعلت الكثير من الشخصيّات الوجيهة في ذلك الزمان.

فهذا عبد الله بن عبّاس - ابن عمّ أمير المؤمنين، وابن عمّ النبيّ، وراوي كلّ هذه الأحاديث، ومفسّر القرآن، والشخصيّة الوجيهة بين الشيعة والسنّة - قد فعل هذا الأمر مع عليّ؛ وهذا أمير المؤمنين يكتب له كتابين،

وقد ذُكرا في **نهج البلاغة**. فمن كان عبد الله بن عبّاس؟ إنّه ذاك الذي نُقل عنه أربعة أحاديث عن النبيّ، وكلٌّ من الشيعة والسنّة يقبلون بهذه الأحاديث الأربعة، ولم يكن من أصحاب النبيّ أيضًا، ولكنّ الجميع يقبلونه ويعترفون به، وهذه نُكتة. ولو كان من صحابة النبيّ ويعترف به الشيعة والسنّة فليس بالأمر المهمّ، لأنّ سلمان وأبي ذرّ وعمّار كانوا من الصحابة وكانوا كذلك موضع قبول الجميع. لكنّه كان من التابعين ولم يدرك زمن النبيّ، وكان صغيرًا عندما ارتحل النبيّ عن هذا العالم؛ وأنا قد طالعت إلى حدٍّ ما في التاريخ، ورأيت أنّ جناب عبد الله بن عبّاس كان من حواشي وصحابة الخليفة الثاني وكان شديد الحبّ له، وغالبًا ما كان يسير خلف جناب عمر؛ لقد كان من التابعين، ولم يدرك زمن النبيّ، في حين أنّ الشيعة والسنّة يعترفون به. فيا للعجب! كم كان هذا الرجل شخصًا عجيبًا! وماذا يمكن أن نسمّي هذا الأمر في العرف الإسلاميّ، أنّ جماعتين متخاصمتين تقبلان بشخص واحد؟ عندما كان هذا الرجل حاكمًا وواليًا على البصرة، أخذ المال من بيت المالٍ وفرّ به إلى مكّة، إلى حرم الأمن والأمان الذي جعله الله، فلا بدّ أنّه قد دفعه هناك صدقةً ووزّعه على الفقراء، أجل، لقد قدمّه مقابل شراء الإماء الفقيرات، فاشترى عدّة إماء، تتمتّع كلٌّ منهنّ بالجمال لكي يقضي معهنّ أوقات اللذّة والراحة.

فها هنا، لو كان عبد الله بن عبّاس [يعيش] في يومنا هذا، ماذا كان سيقول بشأن أمير المؤمنين، برأيكم؟ فجميع الأحاديث التي تُعدّ من الطراز الأوّل بشأن عليّ قد نُقلت عنه، وقد كان يذرف الدمع عندما يُذكر عليٌّ عنده. وقد كان ينقل ذكريات عن صحبته لعليّ. لكن إذا كنتم أنتم وأنا من أهل الفطنة والكياسة، فهلً أنّنا سنقبل أن نجعله من الشيعة؟ بل إنّنا سنقول: يا فلان اذهب، ودع الشباك، واصطد في مكانٍ آخر. اذهب! فلو أنّك كنت من الشيعة حقًّا لظهرت على حقيقتك وقت الامتحان، «عند الامتحان يُكرم

الرّجل أو يهان»[121]، و«في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال»[122]. فلو كنت من شيعة عليّ، فلماذا أحرقت كبد عليٍّ إلى هذه الدرجة! ولماذا جعلت عليًّا يشتكي إلى هذا الحدّ من فراقك! حتّى أنّ عليًّا كان يئنّ من ذهاب عبد الله بن عبّاس: لقد كنت أقرب إليّ من كلّ أقاربي، وكنت آمل بك وأعتمد عليك، فماذا فعلت بابن عمّك في مثل هذه الظروف؟! لقد تركته وحيدًا وذهبت! ولأنّ المرحوم الشريف الرضيّ[123] رضوان الله عليه، كان يعيش في زمن بني العبّاس، فقد خجل أن يكتب فوق عنوان الرسالة التي بعثها عليٌّ إلى عبد الله بن عبّاس: «من كتاب له إلى عبد الله بن عبّاس»، بل كتب قائلًا: «من كتابٍ له إلى بعض عمّالهٍ»[124]، فلم يذكر اسمه، ولم يذكر من هو الوالي الذي كان عامله، ولكنّكم عندما تقرأون هذه الرسالة ستعرفون أنّ المقصود منها هو عبد الله بن عبّاس. هذا، بالإضافة إلى أنّه قد نُقلت هذه الرسالة في غير **نهج البلاغة**، وذُكرت أنّها كانت موجّهة إلى عبد الله بن عبّاس، وقال فيها: لقد تركت ابن عمّك فماذا فعلت وفعلت؟!

أجل، إن الالتزام بقبول النبوّة والاعتقاد بها هو: السير على درب النبيّ، وقبول تكليفه، والإذعان له، والعمل كما يريد. وبالنسبة لي لم يعد هناك المجال الكثير الآن من أجل أن أبيّن معنى جميع الآيات، فسأكتفي بتفسير مختصر للآيات فقط لكي تروا ما هي المسؤوليّة الإسلاميّة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾، سواء كان الجهاد بعدها بالمال أو بالأنفس، فذلك كان في زمان النبيّ ولكن لا يعني ذلك أنّني أريد أن أقول إنّه لا يشمل الأزمنة الأخرى. كلّا، فهو حكمٌ كلّيّ ولكنّه الآن يشير إلى موردٍ في زمان النبيّ حيث طُرحت قضيّة الهجرة هناك، الهجرة إلى المجتمع الإسلاميّ. في ذلك اليوم، أسلم

(١٢١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٢٨٥٢.

(١٢٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٤٩.

(١٢٣) أبو الحسن محمّد بن حسين (٣٥٩ – ٤٠٦ ق.) الملقّب بالسيّد الرضيّ، وُلد في بغداد وقد تتلمذ مع أخيه الأكبر السيّد المرتضى علم الهدى عند الشيخ المفيد، وعُرف عنه جمعه لكتاب **نهج البلاغة**.

(١٢٤) الرسالة ٤١ من **نهج البلاغة**.

البعض وآمنوا بفكر النبيّ لكنّهم لم يكونوا مستعدّين أن يخرجوا من مكةّ، فقالوا: حسنٌ، لماذا نخرج؟ فيقول أحدهم: إنّ لي في مكة دكّانٌ وسيعٌ، ورقم هاتفي هناك مميّز جدًّا، ولي زبائن أعرفهم ويعرفونني، ولي قومٌ وأقارب وزملاء وأصحاب، فهل أترك هؤلاء جميعًا وأذهب إلى النبيّ؟ لماذا؟ هل يُلزمني الإيمان بذلك؟ إنّني مؤمنٌ، وأقول كلّ يوم مئة مرّة، وإن كان في قلبي وبلساني بصوت لا يسمعه أحد، أنّ الله واحدٌ وأنّ النبيّ على حقّ. وإذا كان النبيّ يريدني أن أصلّي فإنّني أصلّي، وإذا كان يريدني أن أصوم فأنا مستعدٌّ أن أصوم بدل الثلاثين يومًا ستّين يومًا؛ ولكن لماذا أذهب إلى المدينة؟ هكذا، كان البعض يفكّرون؛ وهناك كانت الهجرة واجبةٌ، فقد كان المجتمع الإسلاميّ حديث العهد ويجب عليهم أن يلتحقوا به من أجل تقويته ولكي يبنوا مجتمعًا منيعًا مقابل أعدائه، لهذا كانت الهجرة شرطًا قطعيًّا لقبول الإيمان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾[١٢٥] ستجدهم يأوون من لجأ إلى المدينة ولا معيل له ولا أسرة، فصاروا بذلك أعضاء جبهة واحدة واتّحدوا وشكّلوا حلفًا واحدًا؛ هؤلاء هم المؤمنون الذين أصبحوا كالبنيان المرصوص. إذا نظرتم أنتم إلى أيّ بنيان ورأيتم أيّة عمارة، فسترون كيف أنّ الحجارة توضع فوق بعضها البعض وتلتحم فيما بينها لتشكّل مع كلّ الأجزاء الأخرى ذلك البناء الشامخ. والمؤمنون في المجتمع الإسلاميّ يشبهون مثل هذا البنيان، فالكلّ مرتبطٌ بالكلّ، والكلّ ملتحمٌ ومرتبطٌ بالكلّ؛ هؤلاء هم الأولياء، وهذا هو معنى الولاية، إنّها الارتباط الكامل، إنّها الإلصاق والالتصاق الكامل، هذه هي الولاية.

﴿أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ - اسمعوا هنا - ﴿وَلَمْ يُهاجِرُوا﴾ أي أنّهم آمنوا أو أقبلوا على الإيمان وصدّقوا بقلوبهم أنّك رسول

---

(١٢٥) سورة **الأنفال**، الآية ٧٢.

اللّه، ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ فإنّهم لم يضعوا التزام الإيمان على عاتقهم، عندها ﴿ما لكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، فتنقطع الرّابطة والعلقة مع هؤلاء حتّى يهاجروا، وإلّا فحكمهم حكَم الغرباء عنكم فلا يوجد أخوّة ولا ارتباط ولا علقة إسلاميّة بينكم وبينهم.

غاية الأمر أنّه يوجد ها هنا حكمٌ آخر إلى جانب هذا الحكم؛ فلو حصل أن وقعت حربٌ بين هؤلاء الذين بقوا هناك وبين جماعة أخرى وطلبوا منكم النصرة، فإنّ عليكم حتمًا أن تذهبوا لنصرتهم، لأنّهم معكم في خندقٍ فكريٍّ واحد؛ وقد شُنّت عليهم الحرب. فلو أنّ جماعةً مسلمةً تنازعت مع جماعة كافرة فعليكم أن تذهبوا لإعانتهم ونصرتهم ولو لم يكونوا معكم في وطنكم، أو لم يهاجروا إليكم، إلّا أن يكون في هذه الحالة بينكم وبين الذي يحاربه المسلم عهدٌ ومعاهدة سلام، فعندها لا يجب عليكم أن تنصروا ذلك المسلم، فهنا ماذا تريد هذه الآية أن تفهمنا؟ أوّلًا، تفهمنا أنّ نصرة المسلم في أيّ منطقة من العالم كان، تُعدّ أمرًا واجبًا ولو لم يكن قد هاجر. ثانيًا، تقول لنا إنّ ذلك المسلم الذي لم يهاجر إلى المجتمع الإسلاميّ - حيث إنّنا اليوم لا يوجد لدينا مجتمعٌ إسلاميّ في العالم بهذا المعنى - وبقي في دار الكفر، فإنّ هذا الإنسان لو واجه حربًا مع فرد أو جماعة كافرة وكانت تربطكم مع هذا الجماعة معاهدة سلام أو اتفاقيّةً عدم التعرّض (هدنة)، فلا حقّ لكم أن تذهبوا لنصرة أخيكم المسلم، لماذا؟ لأنّه لم يهاجر، ولأنّه لم يصبح أخًا. فإنّه لم يلتحق بكم من خلال الهجرة. ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فهنا يُقال لنا إنّ جبهة الكفّار هي جبهةٌ واحدةٌ، فلا تنظر إليهم على أنّهم معسكرين، فهم في عدائهم لكم يصبحون معسكرًا واحدًا وجبهةً واحدة. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ولعلّ المراد هو أنّكم إذا لم تولوا قضيّة الجبهة الواحدة

والصفّ الواحد الاهتمام المطلوب، وإذا لم تعلموا ولم تكونوا تعرفون أنّ صفّكم يقع في مقابل صفّ أعداء الله، وهو صفٌّ مشخّص وملحوظٌ. فإذا لم تعلموا أنّ كلّ من كان يكون بين الصفيّن هو صفّ الأعداء والمعارضين لا من هذا الصفّ، فإذا لم تعرفوا هؤلاء ولم تعملوا بمقتضى ما يلزم معهم، فسوف يكون هناك فتنة وفساد في الأرض وهي فتنة الابتعاد عن الدين، والفساد هو بسبب عدم تطبيق حكم الله في المجتمع، هذا على نحو الاحتمال.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾ دقّقوا جيّدًا في هذه الآية، لأنّ هذه الآية شاهدٌ ملفتٌ على هذا المطلب الذي ذكرته، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ هل فهمت هذا الأمرَ جيّدًا؟ إنّ المؤمن الحقيقيّ هو هذا، أمّا أولئك الذين آمنوا لكنّهم لم يهاجروا ولم يجاهدوا ولم يأووا وينصروا، فمن هم؟ هم المؤمنون غير الحقّ، المؤمن المصطنع، المؤمن المزيّف، هذا هو مفاد الآية إلى آخر الآيات.

وهناك كلمةٌ أعرضها بشأن تلك الآيات من سورة آل عمران، لأنّه من الضّروريّ أن أقدم شرحًا مختصرًا حولها، وإلّا فلن يُفهم عندئذ ما هو قصدنا منها. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ فهذه الآية التي ترجمتها هناك ولا أريد أن أكرّر ترجمتها هنا، تريد أنَ تبيّن لنا هذا المطلب بشأن من مضى من الأنبياء؛ حتّى إنّنا أخذنا العهد وقلنا لهم أن يؤمنوا بالنبيّ السابق، بموسى مثلًا؛ فقلنا لهم: إنّ ما أعطيناكم إيّاه، فلو أنّه جاء من بعدك نبيّ ليؤيّد ويمضي ما أعطيناك إيّاه، فيجب عليك أن تؤمن بذلك النبيّ وأن تعينه، أي إنّ على موسى أن يؤمن ويصدّق بمن يأتي من بعده، فعلى موسى أن يؤمن بالأنبياء الذين يأتون من بعده، وعلى عيسى أن يؤمن بالأنبياء الذين يأتون من بعده، وكلّ نبيٍّ بالنسبة للنبيّ الذي يأتي من بعده، ويقبل كلام النبيّ السابق ويمضيه ويؤمن بالنبيّ الذي يأتي من بعده، بالإضافة إلى أنّ عليه أن ينصره، ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾.

ثمّ بعد ذلك، يخبرنا عن كيفيّة نصرة النبيّ فهي تعني أنّ على موسى مثلًا أن ينصر نبيّنا بحيث يوصي أمّته وأولياءه وأنصاره ألّا يخالفوا النبيّ الآتي وأن يحذروا من معارضة هذا النبيّ الذي جاء بهذه العلامات؛ حسنٌ، هذه هي النصرة. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ فطلب الله من هؤلاء الأنبياء الإقرار وقبول هذا التعهّد والالتزام، وهذا هو الميثاق الذي أخذه الله على الأنبياء بشأن من يأتي من بعدهم، بهذا الشرط: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾، وهل أخذتم العهد على أمّتكم أيضًا إلى يوم القيامة؟ فيَعني ذلك أنّ يهود العالم الآن، سيكونون محلّ مؤاخذة موسى بن عمران على هذا الميثاق، والآن إنّ موسى بن عمران بلسان حاله كأنّه يقول لهم: يا عديمي المروءة ألم آخذ منكم الميثاق إلى الأبد بأنّ على كلّ من يؤمن بموسى - لأنّ موسى نفسه يؤمن بالنبيّ الخاتم - أن يؤمن بالنبيّ الخاتم وينصره ويعزّره؟!